غرائب الغرب

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

الجزء الأول

الناشر

شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
1433هـ-2012

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

على ، محمد كرد، غرائب الغرب : كتاب اجتماعى تاريخى اقتصادى ادبي
تاليف / محمد كرد على
طـ1 القاهرة: شركة نوابغ الفكر2012
800ص ، 24 سم
تدمك :978-977-5318-12-1
ا- العالم - تاريخ
- العنوان

ديوى: 909

رقم الايداع: 2012/13511

مقدمة الكتاب

هذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات الأولى في شتاء سنة ١٣٢٧ (٨و١٩٠٩) والثانية في شتاء سنة ١٩١٣-١٩١٤م والثالثة في سنة ١٣٤٠ (١٩٢١-١٩٢٢) وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها من تلك المدنية الساحرة إلا بقدر ما تصل إليه يد عابر سبيل ويتفطن له فكر النزيل والدخيل.

وقد أبقيت ما كتبته في حينه بحاله لم أدخل عليه أدنى تعديل ليقف القارئ على ما كتبت برمته راجيًا من كرمه تعالى أن ينفع بها قراء العربية ومنه أستمد العون والتيسير نعم المولى ونعم النصير.

محمد كرد علي

دمشق ١٩ صفر سنة ١٣٤١ و١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢

الرحلة الأولى
الرحيل من دمشق إلى لبنان
١

كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين، أن أرحل إلى أوربا رحلة علمية أقضي بها ردحًا من الدهر. للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها، واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون. والفلاسفة المنزهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة الغارون، والتجار والصناع والزراع والماليون. وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن إتمامه، وتحول دون البغية المنشودة إلى أن قدر الله فأقام والي سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحتال انتقامًا لنفسه لإقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم تتفرغ لتحقيق ما في الخاطر، ريثما يتبين الحق من الباطل، والحالي من العاطل، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

في الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان ١٣٢٧هـ/١٩٠٨م ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين، قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات إلى أن وصلت فرسي ووصل صديق آخر راكبًا فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان إلى المدينة، وكان بدأ في تلك الساعة الأشراق في الأفق، والسكون لم يبرح مستحوذًا على الأرباض والرياض، ولم نكن نسمع من بعيد غير فعقعة أجراس الطحانين والمكارين، وصياح الديكة أو

عواء الكلاب، وما كدت أعلو متن مطيتي حتى ترامى إلى مسمعي صوت مؤذن القابون ينادي (هلموا إلى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله) فقلت: كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جمل جملة تقال، ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد.

التفت إلى الغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة وهي أحب بقعة إلى قلبي في الأرض وقد كثر في أفقها شفق الفجر فذكرت طرفًا من أيامها البيض والسود. ذكرت الغوطة المحبوبة، وذكرت مطامع البشر وانحطاط أخلاقهم وعقولهم، فقاد ذلك إلى التفكير في شقاء الإنسان بالإنسان. وموت بعض لحياة كل، وافتقار مئات لا غناء أفراد، وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعب فريق لراحة أمة، فتمثل لي عجيب صنع المولى في خلقه، سبحانه لا يبقى العالم على حال هو المعز المذل، القابض الباسط، المغني المفقر، يقلب الأرض ومن عليها ولا يرثها إلا عباده الصالحون.

سارت بنا مطيتانا، فاجتزنا قرية برزة ومعربا، ولم تشرق الشمس إلا وقد قطعنا أراضي معربا وأشرفنا على اكتماتها فالتفتنا إلى ما وراءها وقد تجلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال فألقينا عليها نظرة الوداع، وأغذذنا السير إلى بسيمة، ومنها إلى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد، وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر.

ولم أشهد هذا الوادي وكنت مررت به راكبًا منذ ستة عشر عامًا شيئًا من التغير والارتقاء المحسوس، فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة، إن سلمت أشجاره من لفحات الجليد، يرتاش تلك السنة ويعتاش، برمانه وجوزه، وتفاحه وكمثراه وتينه وعنبه، وإلا فيضطر في الأكثر إلى الاستدانة على الموسم المقبل وإن كان على شيء من القوة والجلد، يرحل إلى

بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الحنطة في كنه وكانونه.

وذلك لأن هذا الوادي منذ قرية دمر حتى سوق وادي بردي لا يغل من الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة، لغلبة اليبوسة على جروده وجباله، ولأن أكثر تربته صخرية، تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة، لتأتي أكلها. أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا، فالفضل لنهر بردي في إروائها، يأخذ من مائه في مجاري يعليها بقدر حاجته أو أكثر.

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأتي أصحابها بأرباح أكثر من السنين السابقة خصوصًا منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت- دمشق- حوران وسكة دمشق- حيفا- المدينة وسكة دمشق- حلب- بيره جك (البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر إلى الجهات القاصية. وكانوا يقدمون أكثرها في سنى الخير علفًا للدواب. أو يلقونها في الطريق؛ لأن العطلة في نقلها من محلها إلى دمشق أو بيروت مثلًا على الدواب لا تقوم بأجرة المكار ودابته.

نعم لم أر ارتقاء محسوسًا في حالة فلاح وادي بردي (البيلية) وأنى يتم له ارتقاء. وليس له طريق يسلك. غير ما حفرته أقدام المارة، وحوافر الدواب والماشية، وجرفته السيول والرياح منذ قرون. فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها في هذا الوادي، ولعل ذلك ناشئ من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة. فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لأقضية بعيدة أما الآن بعد أن غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات، فقد بات يرجى أن تنظم لأهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية، ليتيسر للناس الغدو والرواح من

أيسر السبل. وما إخال ذلك متعذرًا على الحاكم إذا حث أهل كل قرية أن يقوموا بأنفسهم لتمهيد طريقهم أيام انقطاعهم عن العمل، كفصل الشتاء مثلًا لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها، أو يعلمونها بواسطة الموظفين الأمناء، وإن كانت هذه الطريقة لا تخلو من محظور لأنها تؤدي إلى السخرة، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسي وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة.

وبعد فإنه لا وجود في وادي بردي لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتمدنة. وذلك لأن الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح إلا أن تأخذ منه لا أن تهيئ له سبيل الأخذ. فكان قصاراها تكثير الجباية، وتوفير الضرائب، وأخذ من تريده للخدمة العسكرية أما إمتاع الأهلين بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل المواصلات، ورفع علم الأمن، وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة، فكانت أمورًا لا تعرفها لا في وادي بردي فقط بل في جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها.

ومن أغرب ما رأينا في وادي بردي، أن بعض قراها تحفر القبور لموتاها أمام الدور، فترى حي الأحياء مع حي الأموات وما أدري هل يأتون ذلك بالقصد حرصًا على رفات موتاهم من أن تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها إذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات، أو أنهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الإنسان إلى دار البقاء ويزهدوا في دار الفناء، فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء.

ومما عمت به البلوى في الفلاحين أنك ترى القاذورات أيضًا نعمى العيون ونخنق الأنفاس، فترى روث البهائم وغائط الآدميين. وسط الدور

وخلفها وقدامها وعن أيمانها وشمائلها. ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء في الجملة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الإقليم ومن حوله.

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردي ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلًا سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير، ولهذه الأسواق أمثال في أوربا. وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه إلى منفسح وادي الزبداني. وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القمم والآكام. ومن السوق انتهى بنا نفس السير إلى قرية عيتا الفخار من أعمال البقاع العزيز، وهي القرية التي اشتهر منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من أعمال دمشق.

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطللنا على عيتا، ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في أكثر بيوت سورية وعلمنا أن سبب ما شاهدناه من جمال المساكن في عيتا، تلك الأموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم إلى أميركا. وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالسكنى ثانية في عيتا أن يظهروا غناها بإنشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي (أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها) (إن الغنى الطويل الذيل مياس) أو الأثر المشهور (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) وليس كالبيوت تتم عن يسار وتدل على سعة، وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا. ومع حرصه

على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وقد سرت إلى هذه القرية وإلى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم، ومن حديث كثير من البقاعيين تبين أن أهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر إقليمًا خاصًا لهم ينزلونه أو مملكة يوجهون وجهتهم إليها فيقصد مثلًا أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي أميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرين ينزلون كندا وغيرهم أوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال. فكان عدوى الانتقال تسري إليهم بالعشرة، فلا يحب المواطن إلا أن يقلد مواطنه في مآتيه ومنازعه، بل في شقائه وسعادته. وقد أذكرنا هذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون إقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الأندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة.

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجرسها المخرب الممتد على نهر الليطاني وأنجدنا قاصدين جزين أول حدود لبنان إلى الجنوب، ومشغرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة إلى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر، والمسافة بين مشغرة من أعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية، ثم تنحدر في واد عميق.

ومع أن قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته، وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي،

ومتاخمته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار. ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولًا أنموذجية حقيقية وصرفوا عليها الأموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالأراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل- مع كل هذا العمران المستبحر، وما تأخذه النافعة من أموال الأهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقًا مسلوكًا اللهم إلا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشى خط بيروت الحديدي، وقيل لنا إن الحكومة صح عزمها مؤخرًا على إنشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة في غربه وإن هذا الطريق وصل أو كاد إلى قرية عيتنيت ولعله يكون جسمًا لا اسمًا كأكثر الطرق التي أنشأتها النافعة في الولايات فكانت لفظًا بلا معنى واسمًا بلا مسمى لم ينشأ عنها إلا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الأوطان.

وصف لبنان الطبيعي
٢

كنت في لبنان أشبه بأبي زيد السروجي أو أبي الفتح الإسكندري أحتاج إلى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروي كل منهما لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطررت إلى الظهور فيها لأنجو من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب.

فقد قيل: اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك، ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الأذكياء، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطاف بينهم. أو سائح في جبالهم. والوقوف على مقصده. ومبلغ ثروته. والدين الذي يدين به. وربما كان سؤالهم عن الأخير قبل كل شيء لأن عامتهم متدينون جدًّا فهم يسرون إذا شعروا أنهم يتعارفون إلى رجل يشاكلهم في المعتقد، وأنى لمن قضي عليه شدة إخلاصه في خدمة وطنه ودولته أن يصرح لهم بهويته، وهو مشرد طريد. محكوم عليه بالجناية حكمًا قره قوشيًا.

ودعني رفيقي غداة وصلنا إلى حزين وعاد إلى الفيحاء وبقيت وحدي لا رفيق لي إلا كتابي وفرسي. فانقلبت لساعتي من جزين قاصدًا دير القمر فاجتزت إليها بتاتر وعماطور والمختارة وغيرها، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشي فيه وسط أشجار الزيتون وهي غابات غبياء في الشوف كما أن أشجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن. ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت إليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بأبنيتها الشاهقة كالعروس في حليها وعكست شمس الأصيل على زجاج

نوافذها وسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان من أجمل منظر نقع عليه عين إنسان وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحببون إلى الغريب كيف كانت حاله، وفي هذه القصبة إلى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمراء لبنان ولا يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وإن لم يكن له من يقيم فيه الصلاة.

وقصبة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها أشبه بالمدن منها بالقرى. وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل إليها من حوران فتوزع في الأطراف وليس دير القمر وحيدًا في نوعه باكتظاظ الأقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم نفوسها إلى خمسة وثلاثين وتكثر النفوس في حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفرذبيان والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالألوف والمئات.

والقرى والمزارع متصلة خصوصًا في المحال التي ترتفع كثيرًا عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وست وخمسين قرية [1] إلا بقصر فخم جميل! واسع الارجاء، محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع. لا يكاد المتجول يمل من مقصورة، حتى ينتقل إلى أخرى، وما أسرع

---

(١) دليل لبنان لإبراهيم الأسود.

وصوله إليها من تلك الطرق المعبدة، وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ما تخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيرًا في تعهده.

معنى لبنان الأبيض، وهو اسم عبراني سمي به لتعمم قممه بالثلج في الشتاء والربيع وبعض الصيف. وقد ورد ذكره في الشعر القديم، فقال النابغة الذبياني:

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتًا ... يقرو الأماعز من لبنان والأكما

وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من المحدثين:

دعوني لقا في الحرب أطفو ... ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وإن جهلت جهال قومي فضائلي ... فقد عرفت فضلي معد ويعرب
ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضبًا ... فمن بعض ما بي ساحل الشام
وكيف التذاذي ماء دجلة معرقا ... وأمواه لبنان ألذ وأعذب
فمالي وللأيام لا درّ درّها ... تشرق بي طورًا وطورًا تغرب

وأنشد المتنبي في مدح أبي هارون بن عبد العزيز الأوارجي من قصيدة:

بيني وبين أبي علي مثله ... شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحتري:

وتعمدت أن تظل ركابي ... بين لبنان طلعًا والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعـ ... ـرض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف لبنان: إذا ما ألقيت ببصرك من البحر إلى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظرًا مهيبًا فيلوح لك أزرق أو ورديًّا في الصيف ومشتملًا في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي وإذا تصاعدت الأبخرة في الجو ألبست قممه الشامخة ثوبًا شفافًا هوائيًا، غاية في اللطف، بيد أن جمال هذا المنظر، لا يخلو من سطوة الشدة، فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم على أن النظر إلى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠كليو مترًا. أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة، أوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد.

وقال الأب لامنس: إن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة. أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعًا متعددة على هيئات شتَّى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها في بعض، وإذا استثنيت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المتسقة. تحققت أن سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية، وجانب كبير من البساطة، ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين، وإنما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الأفق. يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه.

ووصف شكله أيضًا فقال: ومن تفرع الجبل من الجنوب إلى الشمال وجده يتزايد علوًا وكذلك يتسع عرضًا. ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كليو مترًا وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلو مترًا، ومعظم اتساعه بين طرابلس

والهرمل ٤٦ كيلو مترًا. فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين اهـ.

قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مربع يحده جنوبًا صيداء وأعمالها وشمالا طرابلس وكورتها، وشرقًا ولاية سورية وغربًا البحر المتوسط ومدينة بيروت، هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي و الأصل في التسمية، ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي التيم وجبل الشيخ (حرمون) أي على قضاءي حاصبيا وراشيا وما إليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين وحدّه القدماء فقالوا: إنه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالأردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان، ويتصل بأنطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد إلى ملطية وسميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفي لبنان سبعون لسانًا لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير أن يزرعه أحد وفيه يكون الإبدال من الصالحين، وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان إلى الشمال ويجاور دمشق وإذا صار في شماليها سمي جبل سنير.

وعلى ذكر الصالحين نقول إن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس إلى العبادة فيه، قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه: وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع، فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة. ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى، أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء، وينصرف إلى حيث شاء، ومن العجب أن

النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وحسنوا إليهم، ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فيجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة، والظلال الوارفة، وقل ما يخلو من التبتل والعبادة وقال ابن بطوطة في القرن الثامن: إن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه.

قلنا: ولذلك نرى المعروف اليوم بالإحصاء أن في لبنان نحو ألفي راهب وراهبة لهم ١١٨ ديرًا ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبنات والأديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين، وهو نحو ثلث إيراد لبنان وفيه المحابس التي ينقطع فيها إلى النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة أو مكان منفرد يتعبدون في الخلاء، زرت أحدهم في مديرية القاطع فرأيته متوفرًا على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطرًا من وقته في النسك والصلاة، ولو قام كل امريء بالواجب عليه فسعى للمعاش سعى هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها، وهذه المحابس [1] قديمة في لبنان ترد إلى عهد هيلاريون الناسك أو قبله وفي عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم.

---

(١) تسيرح الأبصار.

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعًا بعمرانه لها بطبيعته فكأن علو قممه- وأعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ مترًا ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ مترًا وأعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ مترًا- وتكاثر ضبابه وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية إلى كثرة الثلوج والأمطار فيه فيتكون من عصارانها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم في عمران الشام، فمن سفوح لبنان تنبجس أعظم أنهار سورية فنهر العاصي الذي يروي أراضي وادي حمص وحماة وأنطاكية ينبجس من الهرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروي بلاد صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر أبي علي ويعرف قديمًا بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وصاحينها ينبجسان من السفح الغربي من لبنان ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع أيضًا. ومن لبنان الشرقي ينبجس الأردن (الشريعة) كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر إبراهيم.

فلبنان في فائدته لسورية أشبه بجبال الألب في سويسرا أو بنيل مصر من حيث امتداد المنافع، وللألب والنيل المثل الأعلى، وفي لبنان عدة ينابيع منها نبع الأربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد زرت هاتين الأخيرتين.

وصلنا إلى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز مصرفية لبنان الصيفي وكفر نبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد منفرج قليلًا تنبع عينها على قيد غلوة منها، أما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها، فتوفر لهم بذلك إلى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن: طيب الهواء

ونسيم الأرز والصنوبر العليل البليل، ومن الباروك إلى عين زحلتا ساعة على الراكب، وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين إليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينعبان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها، وخصب واديها وحراجه الغبياء، وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة في العلو. وماؤهما يكاد يكون متشابهًا والطريق من عين زحلتا إلى عين صوفر مارًّا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقريبة.

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنايل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة. وهنا قضيت مع صديقي الابرامين أفندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياما رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدًا القطر المصري فأوروبا. هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الأقضية الثلاثة الأخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقًا بأن أتكلم على الجبل خصوصًا ولم ينقصني منه إلا قضاء الكورة فقط.

نبذة في تاريخ لبنان
٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلًا حصينًا كل من ساده يكون في الأعم من حالاته إلى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به جيرانه من أهل البلدان الأخرى. ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالًا وخضوعًا للغريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام.

والغالب أن قاصيته خضعت للفينقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الأيتوريين العربية أو أهالي جيدور حوران في عهد الروم. والأيتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفأ من الجيدور واللجاه بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس أو عين جر (عنجر) جعلها عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم إلى الأمام حتى تيسر له أن تسور قممه وأخضعه لسلطانه ثم انحدر إلى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزًا ثانيًا [١] وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الأيتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لأنفسهم طولًا ولا حولًا.

نعم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الأيتوريين فنزل المردة [٢] في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الأمراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الأمير فخر الدين الذي عهد إليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المالطي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر.

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة يطيلون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيحفظون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظنينين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي

---

(١) تسريح الأبصار.

(٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل.

انهالت على هذه البلاد كسيل العرم إن نجا المسلم من التتري لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فلما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالًا هائلًا بزعامة جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق. والغالب أن سكان كسروان كانوا إذ ذاك خليطًا من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة.

وما زال نواب الشام [1] الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصيرية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قومًا من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان. ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣ فرتب [2] في جبيل قومًا من الأكراد لحفظها فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣ فباعها الأكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الأفرم كما تقدم إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد أيدي سبا.

---

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى.

(٢) معجم البلدان لياقوت.

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم [١] بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس إلى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربند نهر الكلب إلا بورقة طريق من المتولي أو من أمراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية [٢] على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة أبدال كل بدل يقيم في الدرك شهرًا لحفظ المواني والدروب. وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الأمراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون إلى جمال الدين وزين الدين بن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر إلى جهة كسروان والجردان يتوجها إليه بجموعهما وأسرتيهما وإن من سبى امرأة منهم كانت له جارية أو صبيًّا كان له مملوكا ومن أحضر منهم رأسًا فله دينار وإن سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم. وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن أمراء الشام إلا بعد أن طفح كأس صبرهم من تمرد الكسروانيين.

واختلف العلماء في أصول سكان لبنان والأرجح أنهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجًا واحدًا كما هو حال معظم البلاد. فإنك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران في الداخلية ولا سيما في القرون الخمسة الأخيرة. ذكر المؤرخون أن معاوية نقل إلى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قومًا من الفرس يسكنونها. وذكروا أيضًا أن أبا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الأمير أرسلان وأخوه الأمير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت

---

(١) تاريخ بيروت.

(٢) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت المجاز بين مصر والشام وقد مررت بها وأنا منهزم من وجه حكومة سورية في ربيع سنة ١٣٣٠هـ.

نفس الخليفة بهما فأمرهما أن يسكنا في جبال بيروت الخالية من السكان وأنعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم في كسروان وأخذوا يشنون الغارات على مجاوريهم. وفي بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى، وتقوى الامراء الأرسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها.

أما الموازنة فكان أول منشأهم في شمالي سورية في الأغلب ينتسبون إلى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلكة في أمر جوهري في المعتقدات جاؤا شمالي لبنان أولًا ومازالوا يمتدون ويطردون سكان الجبال الأصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم في جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والإباء.

وزعم بعضهم أن الموازنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لأنه لا يوجد بين أديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وأن جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا إليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد إلا أن هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم [١] لهم وثباتهم معهم على العهد إلى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢م ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفر سارون والحدث.

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات. يقوى

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة الكسروانية للحتوني.

اليمانيون تارة والقيسيون أخرى والناس معهم في أمر مريح ومن النحزبات القيسية واليمانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الأرسلاني اليمني. قال المقريزي وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل ينور بعضهم على بعض.

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة إلى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة إلى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩-١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالمعلوفي والمكاري ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامى والإماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سببًا في تخريب الجبل أيضًا.

ومن الوقائع التي يتمت فيها الأطفال تلك الوقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينا كانت محمولة إلى الآستانة فجمع إبراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها إلى مرج عرجموش قرب زحلة وأمسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الأمراء.

وما زالت حال الجبل في إقبال وإدبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغدا وقعة مرحلاتا وبعده وقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوي واليا فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل إمتيازات وقسمته في السنة التالية

إلى مقاطعات. وتعرف الأولى [١] بقائممقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا إلى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الأمير حيدر إسماعيل اللمعي وتعرف الثانية بقائممقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام إلى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى إقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الأمير أحمد عباس الأرسلاني أما قصة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي إيالة صيداء وكانت قائممقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل فضاءى الشوف وجزين وفسما من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في فضاء المتن وفرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس.

ودام الحال على ذلك إلى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالًا إداريًا بأن جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول. وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الأعناق.

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الأراضي الأميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئًا من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع إليه العجز في ميزانيته وفي لبنان ألف جندي لبناني بإدارة أميرالاي لبناني وفي بيت

---

(١) دواني القطوف.

الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان.

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تزيد الضرائب قليلًا ليتيسر لها القيام ببعض الإصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور إلا أن معظم الأهلين يقاومونها وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم إلا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الأسعار وهم يعتبرون أن هذا العمل إخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الأمر إلى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا إلى مجلس الأمة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين إرسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر إخوانهم العثمانيين في الغنم والغرم فليس من الإنصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءًا متممًا من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر و الأشكال.

غابات لبنان

٤

ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الأراضي منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسايل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم وأشجارهم وأكثر الأراضي مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الأرض في الأكثر وليس في الأيدي نص قديم يشير إلى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من أن فيه أصناف الفواكه والزروع

وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع. وإذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة. ولكن لم تخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والأرز من الأشجار غير المثمرة.

وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربايل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم. وقالوا إنه ثبت أن ملوك الأشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الأرز وأن المصريين أدخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وأن الإسكندر المقدوني وضع من خشب الأرز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية أدخلوا خشب الأرز في بناء دورهم.

وكل هذه الأخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب إلى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الإسلام أساطيل من خشب الأرز وقالوا إن بيروت [١] كانت دار صناعة دمشق (مسلحتها أو ترسانتها أو ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام وأسماء العميصاء وقيل إنه عمر من الأرز ألفًا وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز أسطولًا أضخم من الأرز نفسه وتبعه غيره من ملوك الإسلام في

---

(١) تاريخ بيروت.

اختيار الأخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعًا ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى وهو عطر لرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم إذا مسسته بيدك ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبث به الأرضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم.

والغالب أن الحكومة السالفة القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله. وقد بدأ النقص في هذه الأشجار ولا سيما الأرز منها منذ خمسة قرون لأن اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصًا وقد جرت عادة بعض حكام لبنان إذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره وإلى اليوم لا يزال من الأمثال العامة السائرة في الجبل (الله يقطع رزقه) أي ما يملك من شجر و(الله يخرب رزقه) أي بيته- قاله في الدواني

مثال ذلك أن الأمير أحمد المعنى طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثر بغيهم في كسروان ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدمر -كما في تاريخ بيروت- نائب الشام لشهاب الدين بن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان في دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه إلى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عمّا فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقًا وربما أحب عدم تصديع أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه

واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته. قلنا ومثل ذلك ما نشاهده في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فرارًا من ظلم ملتزمي الأعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها أضعافًا مضاعفة.

ولم يبرح شجر الأرز موجودًا في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأبهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك الأرجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضا أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين أفقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشرى صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشرى على علو ١٩٢٥ مترًا عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر مترًا وارتفاع أطولها خمسة وعشرون مترًا وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة. ولا أثر الآن في سورية لشجر الأرز إلا في أعالي سير ببلاد الضنية [1] في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب.

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الأرز أو أي كان من شجر الاحتطاب في الأماكن الخالية ولا سيما في القمم والقنن لما

(١) تسريح الأبصار.

أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلًا لأن شجر الأرز لا يجود في الغالب إلا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها.

وإذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الأماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف أنها كانت غابات غبياء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الأمطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتم كما يتضرر ابن المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الأمطار وأرضية بسطو ابن البادية على ما بقي لابن القرى من رزق.

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني أن يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر عله تقتدى بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي علينا جيل إلا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا أو أكثر والأشجار في بلادنا أكثر نموًّا مما هي في أوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة أن كثر اليوم تهطال الأمطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر خيرها كلما زادت أشجارها وعسانا نقتدي في سورية بهذا المثال.

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وبطلت أو كادت السلطة الإفرادية الذوقية وقلت الأوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصدًا كالزلزال الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة- منذ خفت العوارض الطبيعية والأرضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب أسباب الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئًا من اللغات الإفرنجية والعلوم العصرية كما أن الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف إليه أحبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد.

ثم إن طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم. والمسيحيون على الجملة يميلون إلى الرفاهية ويقدرون طعم الحياة قدرها. ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد: فكثرت طرق عجلاته حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلو متر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة وتهيئ سبل التنقل على المصطافين في ربوعه، وأكثر هذه الطرق في قضاء المتن. لأنه ظهر لبنان ونقطته الوسطى، ومقصد المصطافين. من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم. وفيه الآن سبعون كيلو مترًا من

الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواي شمالي لبنان.

وفي هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة إكليركية و٨ مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفبالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦: ٢٠٢٧٠٣٠ أوقة ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا أن في كل كيلو متر مربع ٦١ نفسًا ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الآستانة وجزيرة سيسام (ساموس) وسكانه الآن زهاء أربعمائة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفًا من الموارنة و١٦٠ ألفًا من الروم و٣٦ ألفًا من الكاثوليك و٥٥ ألفًا من الدروز و٣٣ ألفًا من المسلمين (سنة وشيعة) و١٥٠٠ من البروتستانت والباقون أرمن وإسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من أهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الأكف وقد أحصى غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين عدد الموارنة في عصره فكانوا أربعين ألفًا وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وإن هاجر كثيرون بعد ذلك إلى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد أن تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم.

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شؤون الجبل إلى هذا الحد إلا أن نرسل جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة إلى أميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية أن المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج إلا لمن يمد يده ليتناوله مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا أن المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب.

والذي ظهر من قرائن الأحوال أن ابن لبنان كان أول فلاح سوري هاجر إلى أميركا أو جرأ سائر السوريين على الهجرة محدوبًا بما اشتهر عن القارة الأميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولأن ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلمًا ونورًا وأوفرهم نشاطًا ومضاءً وشممًا وإدلالًا بل إن مجموع القارئين والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام.

وأول من دخل أميركا [1] من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨-١٦٨٣ وأول من دخل أميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلابيانوس الكفوري سافر إليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشدودي وأول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الإحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف إلى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا إلى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد وأوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي إفريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

وقدر بعضهم أن ثلث المهاجرين يسكن أميركا وثلثهم يرجع إلى وطنه والثلث الآخر يموت. ونظن أن الثلث الأخير مبالغ فيه وإن كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل. وأحصى عدد السوريين المهاجرين إلى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفًا منهم ستون ألفًا في الولايات المتحدة وخمسون ألفًا في جمهوريات أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون ألفًا في أميركا الوسطى وعشرة آلاف في أوستراليا وبعض الجزائر

---

(١) الدواني.

والباقون في إفريقية والهند والفليبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفًا نصفهم ذكور ونصفهم إناث وربما كان الذكور أكثر.

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان بأقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا في دار الهجرة بلادًا تحتاج إلى أيد عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعملون ويدخرون ويقترون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أميركا من أهل أوربا مثلًا فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان أول همه أن يعمر له دارًا قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر.

وكثر تقليد الناس بعضهم بعضًا ومنهم من اشترى له أرضًا في بلده وطفق الآخر ينجر بما نحاه من ذااك الراس المال القليل. أما الأفراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالألوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جريًا على المثل العامي (في المطرح الذي فيه ترزق الصق) وهم إن كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا إذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبولس ايرس وسان باولو مثلًا وبين عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجى البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم وهذا القسم ممن حسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم أن بعضهم ذهب براس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الأخلاق والمعرفة لم يعمدوا إلى الطرق السافلة في تحصيل الثروة.

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندي أن المضار أكثر من المنافع إذ لا يظهر إلى العيان في الغالب إلا الحسن. فقد يذهب ألف مهاجر مثلًا إلى

بلد كذا ولا ينجح منهم إلا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون بعد مرور سنين يوفون أجرة الطريق التي استلفوها من أحد المرابين في بلدهم أو باعوا في الحصول عليها أرضًا لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالأمراض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها.

فإن من نظر في الأمور نظرًا سطحيًا وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلانا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات وأن بلد كذا يدخل إليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب- من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال إذا دام على هذا المنوال وأموال أميركا تتسرب إلى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الأميركان وننقل شطرًا عظيمًا مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية.

ليست السعادة بكثرة المال. السعادة شيء غير ما يتوهمه من همهم إنشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة. قالت لي عجوز في صليما وقد سألتها أين رجالكم: (ذهبوا إلى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها لتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لأن ما جمعوه لم يكفهم لإتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم إن حالة البلاد لم تعجبهم بعد أن شاهدوا مشاهد أميركا). وقول هذه العجوز الذي أحزنني مغزاه ولا تزال الأذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء.

أي حسرة أعظم من أن تتوقع أم في كل اسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتابًا منه أو زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هي وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المراة المسكينة أن تعمل ليلها ونهارها لتطعم أولادها من كدها وما هي بمفلحة، وأي بلوى أكبر من أن تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروسًا لأن شبان الضيعة هاجروا وأكثرهم لا يريد أن يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة أميركية وزهد في أسرته وقريته لأنه تمدن بزعمه ولا يليق به أن يتزوج إلا من متمدنة. ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الأهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه.

وإن دعوى من يدعون أن لبنان لولا الهجرة لأصبح خرابًا مردودة من وجوه أحدها أنهم يعتقدون أن تلك الأموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة إلا العمل ليس إلا. فقد رأينا أسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال إلى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمور لأن هذا الملك كان يعتقد أن كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى أمست أسبانيا أفقر بلاد أوربا لأن أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والأخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم.

إن انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين إلى نزول أميركا وإفريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة إلى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم ففي لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله إذا

زادوا ضعف ما هم الآن. ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد ولا يشعر بذلك إلا أرباب الأملاك. مثال ذلك أن (كدنة) الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشًا فأصبحت اليوم تساوي ستين على حين أن غلات اليوم مثلًا لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة أيدي العاملين وارتفاع أسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولأن المهاجر اللبناني الذي كان فلاحًا حراثًا إلى عشرين أو ثلاثين جدًّا من أجداده إذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب إلى بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل إلى معاناة الزراعة بل يفضل أن يعيش كما يعيش تجار أميركا وأرباب الأملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة إذا ظل عطلًا من العمل.

في أمثال العامة (أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحمير) حكمة لطيفة نافعة تصدق على كل لبناني مهاجر فإذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الأعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والأرز والسنديان والزان وحفر الأقنية والأحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الأقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة.

ولقد قال الاقتصاديون إن من جملة ما ساعد ألمانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية أنك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف إلا به فالألمان أشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف إلى عمله لا تحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولو جرى أهل بلادنا على هذا المثال لأصبحنا بعد جيل أمة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لأنه يريد تقليد الكبير وأسبابه لا تساعده.

نحن لا نجاري أولئك الذين يدعون أن لبنان كان خرابًا لولا الهجرة لأمور أقلها أن البلاد السورية واسعة وأهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون أن ينزلوا الأقاليم القليلة السكان المحتاجة إلى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه فإن لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلًا ما يكفي لإغناء مئات الألوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لأصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من المنافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم أيام السنة في جبلهم.

وقد كتب قائممقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول إن خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض أرباب الأموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة إلا وهذا القضاء وحده من أعمر البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الأقضية والألوية والولايات العثمانية من الخيرات.

لا نوافق القائلين بالاغتناء بسرعة فإن ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الأكثر كما جاء. وإنا لنؤثر أن بوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سوريا والعراق والأناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة لو صبروا على جنيها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يبلى.

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقي لو سعوا إلى تحسينه كعمل الأقمشة والنجارة والحدادة [1] وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فإن لبنان من سورية ومصر كسويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماسًا للصحة والراحة فلو عني اللبنانيون أكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لأتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر الف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مائة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة ما لا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين في قمم لبنان لا يعتم أن يجلب إليه أناسًا من المصطافين من أهل أوروبا نفسها خصوصًا إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الألب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف.

وبعد فإنا لا نفتأ نكرر القول بأن من الأنفع لابن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته إلى الداخلية ليعتاش ويرتاش وأنه إذا استفاد المهاجر منا إلى أميركا من حيث ارتقاؤه في اقتباس بعض أصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فإن الأنفع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج إلى أضعاف أضعافهم. وسوف يعلمون أن هذه النصيحة صادرة عن

---

(١) في قرية بنت شباب من مديرية المقاطع تصنع أجراس الكنائس وهذه الصناعة لا تعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخلت إليها في الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل في بلادنا يستعملون النواقيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية.

إخلاص لا يراد منها إلا نفع لبنان خاصة وسورية عامة. فإن ما يقاسيه اللبناني من ألم الغربة والمهانة في الأحايين واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسبه بلاده والعيش بين أهله وجيرته. وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين أن ما حمله اللبنانيون المهاجرون إلى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والأدبية.

حالة مصر
٦

هبطت مصر وعهدي بها ليس ببعيد غبت عنها أربعة عشر شهرًا وكنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم أر اليوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يومًا قضيتها في مشاهدة من خلفتهم فيها من الأصدقاء الكثيرين. والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الإفرنجية حوت ما في العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعًا أو كرهًا ويأتي الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأييده.

إن من ينظر إلى مصر نظرًا سطحيًا يأسف لها كثيرًا ويعدها كنزًا ضائعًا ودمًا ضيعه أهله. ومن يمعن النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت يدرك أن المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عمّا أحرزته في حاضرها من المنافع المادية والأدبية إذا ظلت عناية أهلها

متوفرة على التعليم والتربية وهم يتفننون سنة عن أخرى في تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام.

ليس في أقطار الشرق ولا في أقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله أبقى على آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره. فقد قال لنا التاريخ إن عهد بعض سلائل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وإن مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة. وأنه جاء زمن طويل على مدينة الإسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة أيام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وإفريقية اليوم.

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الإسلام وإن كانت لها الميزة أبدًا في هذا الباب على الأقطار المجاورة فقد كانت على عهد الأيوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها موردًا تستقي منه البلاد الأخرى وكانت العلوم الإسلامية والأدبية خاصة مما يحمل من أزهارها إلى شمالي إفريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها، ولما جاء نابليون الأول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيس روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الأوربية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية إلى أوربا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقي.

وما برحت هذه الإرساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحي الغربية حتى جاء الخديوي إسماعيل وأسرف في مالها إسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من الماليين الأوروبيين وأكثرهم إنكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت إنكلترا مدخلًا لها بحجة أن أرباب الأموال يوجسون خيفة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلًا فعملت وحدها على إطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون في قوله وقد أخرجته إنكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي أنها لم تخرجنا منها إلا لتأخذها لنفسها في المستقبل.

دخلت إنكلترا مصر لإطفاء الفتنة أولًا ثم للمحافظة على ترعة السويس التي أصبحت أكثر أسهمها لجماعة من أبنائها. والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الأقرب ومادة حياة دولة البحار ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر.

ولقد كان ميدان الإصلاح فسيحًا أمام المحتلين لتوفر الأسباب الطبيعية لمصر وأن بلادًا لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الإنسان طبيعتها لأقرب البلاد إلى معالجة الإصلاح في مجاهلها ومعالمها.

ولما استتب الأمن في أنحاء القطر أقبل أرباب الأموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية. فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الأخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة.

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا بإخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معًا. وكان عميدهم الأكبر لورد كرومر الذي أدار دفة السياسة المصرية

أربعًا وعشرين سنة أرخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر إلى مصر كثيرون من المشارقة. عمل هذا وغيره من الأعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تسمح الحال إلا بإعطاءها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحًا وتلويحًا في تقاريره السنوية إنكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الأعمال فهل نسيتم ماضيكم أيام كنتم تساقون إلى السحرة سوقًا وتستعبدون استعباد العبيد والأرقاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن أحسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم أن تقنعوا بما حزتموه.

ولكن نبهاء مصر لم يفتهم معنى هذه السياسة وكان الفصل الأكبر للجرائد في تنبيه شعور الأمة المصرية إلى أن وراء ما هم متمتعون به الآن مطلبًا أسمى وأنفع فقاموا يسعون إليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة إليه لا يختلفون في كون بلوغه لا يتأتى إلا من طريق التعليم والتربية.

فبذل أهل الاقتدار المالي ما سمحت به نفوسهم من إنشاء الكتاتيب في الأرياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا أن الأمة لا ترقى إلا إذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الأمة بلغتها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى إقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان أكثره بالإنكليزية من قبل ثم رأوا أنه إذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الأمم لا يكون العلم إلا عقيمًا ناقصًا فأنشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية. وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الأوربية تدرس علوم

الجامعات الإفرنجية باللغة العربية وهي أول جامعة من هذا النوع لأمة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليونًا من البشر.

نعم إن الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الإصلاح على الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الأميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولابد لهذا الأمر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة إذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الأمم السالفة وإنصاع العامة للخاصة، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ما هي عليه عند الأمم الحية حقيقة لا مجازًا.

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادي هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرقيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الأتراك المصريين في الأمور السياسية والحربية.

ولا يعاب على مصر إلا فتور همة أبنائها في منتصف الطريق في الأغلب، وهذا الخلق يكاد يكون عامًّا في القطر لا يقوى في التغلب عليه إلا التربية العملية وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن إقبالها على تعلم الحقوق مثلًا فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات أوربا وأميركا والقسم الأعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها إلى الوظائف لأنه وقر في النفوس إن فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون

خصوصًا وهو متوقف بعد العلم النظري على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون أكثر العرب حظًا من تينك المزيتين.

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوي إسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كأوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لا تخرج أملاكها بطيش الطائشين من أبنائها إلى أيدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما أصعبها من حالة.

إن مسألة الراية التي تخفق على أمة لا تهم بقدر ما تهم في الحقيقة مسألة الأملاك إذ إنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لا تحدثها نفسها أن تنزع من المالك ملكه إلا برضاه. ومصر التي تتأذى اليوم بوطأة الرومي والطلياني والإنكليزي وغيره لا تنتقل بعض أملاكها منها إلا برضا أولئك الوارثين والمسرفين الذين لا يعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الأطيان والأملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير.

إن ما نخشاه على مصر هو الإسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء ولو كان لأهل وادي النيل شيء من الإمساك المحمود والاقتصاد المعقول لكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحنكة فائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لا تزال الدهر يخبأوها للأفراد كما لا يبخل بها على الأمم لابد أن يتمتع يومًا بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود.

مرسيليا
٧

في السابعة الرابعة بعد الظهر أقلعت بنا من الإسكندرية الباخرة إيكواتور (خط الاستواء) إحدى بواخر شركة الميساجري ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا أكبر مواني فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئًا يستحق الذكر سوى بعض سواحل إيطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف إليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهوًا حتى إذا خرجنا من مضيق مسينا أصبحنا وأصبحت سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها ألعوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الأربع إلا وقد أخذه الدوار أو كاد ولم نملك حواسنا إلا عند بلوغنا ساحل السلامة.

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصانًا ومحمولها ٣٨٤٨ طنًا وتقطع في الساعة اثني عشر ميلًا وهي إحدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين مواني البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر وبحر الأدرياتيك ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين في الأغلب.
ومن موانينا التي تقف عليها بواخر الميساجري ماربتيم خابيا وسلانيك والآستانة وجناق قلعة وأزمير ومدانيا وفاتى ولارنكا ومرسين والإسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والإسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبور سعيد والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من

بلادنا وترد إليها ولتعذر التنقل إلا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير أو في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض.

ولشركة الميساجري أيضًا اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب إلى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط أوستراليا وكليدونيا [1] الجديدة وخمس بواخر في المحيط الأطلانطيكي (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ما عدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض المواني الكبرى وأشغال الشركة متوسطة مع أن حكومة فرنسا تدفع إليها إعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق و الغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها.

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الألمانية والإنكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسوية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع أن الأجور واحدة. ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها إلى تخفيض الأجور في الصيف إلى نحو النصف لركاب الدرجة الأولى والثانية والثالثة. وأخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان

---

(١) لما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب تناولتها أقلام العلماء والأدباء بالتقريظ والنقد فنحن نشكر المقرظين ونزيد في الشكر لحضرات الناقدين أما العلامة الدكتور يعقوب صروف في مجلة المقتطف والأستاذ الأب لويس شيحو في مجلة المشرق والمستشرق المسيو كلمان هوار في المجلة الآسياوية Journal Asialque والمستشرق لوثر ماسيون في مجلة العالم الإسلامي Revue du Moude Musalam فإنهم أمله لما أوحي به علمهم الواسع فاستفدنا منه ووضعناه في المكان اللائق به من هذه الطبعة الثانية جزاهم الله عن التحقيق خيرًا.

القيمة المقررة. فإذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة. ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره.

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة أن اتفقت مع شركات البواخر الإنكليزية والأميركية وشركات السكك الحديدية على أن تنقل الركاب إلى المواني التي تختلف إليها البواخر. وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية إلى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب إن أحب أحد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن مواني الصين واليابان وكندا مارًا بفانكوفر وهو ويكلف في الدرجة الأولى أيضًا ٣٥٧٥ والطريق الثالثة إلى أوستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر وأجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الأولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة إلى أوستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الأولى فيركب الراكب من مرسيليا إلى هونغ كونغ على بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ إلى شنغاي إلى كوبي فيوكوهاما على بواخر الشركة أو على بواخر شركة الباسيفيك الكنادية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما إلى فانكوفر على بواخر الشركة الكنادية، ومن هنا يركب القطار إلى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك إلى ليفربول أو سوسامتون على إحدى البواخر الإنكليزية أو الأميركية أو النمسوية أو من نيويورك إلى الهافر على بواخر التراسلانتيك ومن الهافر بالكسة الحديدية إلى باريز.

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الأرض ولو قال قائل هذا لأحد أجدادنا الأقدمين وذكر له أنني أريد السير للنزهة على

هذه الخطة لنسب إليه الجنون وقال: إن ذلك لن يكون ولكن إذا عرف سر الأسفار في هذه الأعصار يقول: سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار. يفعل ما يشاء ويختار.

وبعد فلم يتسع لي الوقت لأدرس جميع معالم المدنية في مرسيليا لأني لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة من وعثاء السفر الذي طال علينا إحدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة في طريقها من الأنواء ولطارئ طرأ على آلتها في عرض البحر فأصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الإسكندرية ومرسيليا في خمسة أيام بلياليها لا تقف قرب اليابسة. ومن البواخر الإنكليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا في أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الإنكليزي تنقله من أوستراليا والهند إلى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يومًا لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زادًا ووقودًا وركابًا والمسافة المعتادة بين أوستراليا وإنكلترا لا تجتازها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يومًا.

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرون الجميل، فكانت جملة الجمال الفرنسوي بما فيها من الجبال والسهول، وما أحرزته من مجد قديم وغنى حديث وأن محيطها الذي لا تقل مساحته عن مئة كيلو متر مربع لأحلى من العافية في بدن السقيم. أو النضارة في خدود الجواري -كما يقول بديع الزمان- استغفر الله بل كاد يكون أجمل من الحور الذي تقرأوه في عيون المرسيليات الدعج. ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعابيب، انتقلت إليهن من أجدادهن العرب. فقد قال ميشله المؤرخ إن أصل سكان مضايق الرون مختلط كثيرًا ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب أن سكان جنوبي

أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور.

وإلى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفًا من السكان خمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الأجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦: ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجانب وفيها ٨١٧ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كليو مترًا من الخطوط الحديدية و١٦٣ كيلو مترًا من الترام و٢٨٤ من الطرق الأهلية و٣٦٨٣ كيلو مترًا من طرق العجلات الموصلة بين أقاليمها.

وأهم صناعتها عمل الأقمشة وتحضير الأطعمة والمأكولات وصنع القرميد والصابون خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للأساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجري ماريتيم.

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين إن تاريخها من أقدم التواريخ وهي أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد إنشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن منتزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧: ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفًا وقدروا ما يدخل إليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد.

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة وجريدة البتي مارسيلية (المرسيلي الصغير) أوسعها انتشارًا تطبع ١٨٠ ألفًا كل يوم وهو في حجم

الماتين والأيكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليونًا ومائتي ألف نسخة في اليوم والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشارًا. فكأن لهذه الأسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يحالف الأعمال التي تبدأ بالألقاب الضخمة والأسماء الفخمة.

زرت إدارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مستحكمًا في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والأربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا (الشيمافوردي مارسيل) أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتبرة إلا أنها أقل انتشارًا. وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلًا فلو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لأصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالألوف أيضًا.

ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والإيرانية لا يبلغ بكمينه قدر ما تطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه إحدى جرائد ولايات فرنسا. وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الأمور العقلية.

ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الأقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما

كانت إلا إلى جانب القصور نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدنية فرنسا فقط لحوقل واسترجع. وقال: هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو أتى المسعودي بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لا يحسن إملاء ما رأى وسمع، ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال إن هذا إلا حلم وخيال ونحن لا نسجل في رحلتنا إلا ما تقع عليه أبصارنا ويترامى إلى آذاننا وتمسه أيدينا.

وبعد فماذا يصف القلم في ليون أجمالها الطبيعي أم الصناعي، معاملها الحريرية أم مدارسها وكليتها. أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها. ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وأنصابها، وخطوطها الحديدية والكهربائية. وجسورها الحديدية والحجرية وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها، ونهريها العظيمين الرون وأنسون الذين يقطعانها شطرين، ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين.

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل. وعلى جسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين إلى المشرق لإنقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الإنسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة. ومشاهد بهيجة، ويالله ما أعجب معرض نموذج الأنسجة الذي حوى أربعمائة ألف نموذج. ليس لها نظير في العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد والسائحين ينتفعون بالنظر إليها ويستدلون بها على تفنن يد الإنسان في كسوة الأبدان.

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة فإن البخار البري عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطارًا جائية ذاهبة من أنحاء شتَّى ولا سيما من الشمال إلى الجنوب والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلو مترًا ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه بقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها. والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدي ثالث لتسيير القطارات لأن الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجري عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران.

لم تقف ليون عند حد الأعمال الصناعية والتجارية والمالية بأن كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلًا من أعظم مصارف العالم بل لها حظ كبير من النهضة العلمية، وأثر راسخ في الحضارة الفرنسوية. وناهيك بكليتها التي تحوي فروع العلم، ولا سيما الطبيعي والحقوق والطب والتجارة يختلف إليها ٢٥٠٠ طالب منهم الأجانب، وفيهم نحو خمسين مصريًا أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل في التجارة والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخريج في كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد أن ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه، فعينته حكومته في كلية ليون أستاذًا فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له أن جذب عشرات منهم للتعلم في كليتها وهو يشرف عليهم إشراف الأب على أولاده. وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسوية، ولا سيما كلية

مونبليه وذلك على عهد الخديوي إسماعيل لأنه كان يعتقد أن أهل مونبليه أقل معاداة للملوك وأبعد الفرنساويين عن التطرف.

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي أفندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الإنسائي والذوق الفرنسوي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشاهده السائح فيها من السكون والانقطاع إلى الأعمال الشريفة فلا يسعون كأكثر سكان العواصم في الأغلب للمكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانتها بالتوظف والاستخدام.

وياما أبهج ساحة بللكور يوم الأحد والرجال والنساء والأولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الأدب ولا في حركاتهم إلا التربية البيتية العالية. والتشبع بالنظام المدني المعقول، حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل وأماكن اللهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وإفادة أخذوا بحظ وافر من دنياهم ولم ينسوا لعهد آدابهم فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون.

ولقد كنت كلما وقع نظري في ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثني النفس بسورية فأقول متى يا ترى يكون فيها مثل ما في ليون على الأقل. ولو أن عمران ليون وحدها وهي إحدى مدن فرنسا وما فيها ما قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر إلى الفرات ومن البحر المتوسط إلى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهي واسعة جدًا بمساحتها من حيث عمرانها أرقى مدن المعمور ولكن الرزق

لا يأتي بالتمني والوجود لا ينتفع به إلا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر.

تحية باريز
٩

سلام عليك مرضعة الحكمة وربيبة الرخاء والنعمة وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ومحيية المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين وأنى يضرب على أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين، أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل أنت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تألبهه. فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود وبالغت في إكرام رحال العقول من أبنائك.

سلام عليك يا عشيقة الإبداع والاختراع، وسابقة الأقران في مضمار الانتفاع بما حوت الرباع والبقاع. استخدمت القوى المادية فأجدت استخدامها واستثمرت القوى العقلية فأبدعت في استثمارها وأحييت حضارات الأمم السالفة وأنشأت لك حضارة لا يزال يحسدك عليها أسبق الشعوب إلى الترقي مهما تقلبت بك الحال ويجدون في أوضاعك ما ليس يجدونه في أوضاعهم من المرونة والجمال.

سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان، وملقحة الأذهان بالتناغي بحب الأوطان والداعية إلى ثل عروش الجبارين والمخربين أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها، ولم تعلقي مسائلك على القضاء والقدر، بل أخذت بالأسباب

والمسببات فقتلت من أراد قتلك ووضعت من لم يهمه رفعك، وكنت للناهضين من الناس خير مثال.

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما أنشأتيه من مجامعك العلمية، ومدارسك الجامعة والكلية، ومجالسك العامية والخاصية، وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنيةوالإنسانية، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وسماعك، ومتاحفك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك، وكل ما أبدعته أفكار أبنائك وأيديهم. ودل على مجد طريف وتالد، وتاريخ على جبين الدهر خالد.

سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع، حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات، بين المختلفين في الموالد والديانات، وقطعت التفاضل إلا بالأعمال الصالحة والأحلام الراجحة.

سلام عليك يا متشبعة بأفكار الحكماء ارتضيتيها منهم قانونًا تجرين عليه لسعادتك، ولئن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها، فذلك لأن سياسة المنافع والمصالح، قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح. ولأن نظام بقاء الأنسب لا قلب له، والتنازع في جهاد الحياة كثيرًا ما يدعو الإنسان إلى ركوب ما تحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات، وما ذلك إلا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال ولعله لا يفوتهم في مستقبل القرون والأجيال.

السلام على هذه العاصمة التي أحسنت إلى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور. فإن قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الأقرب أنا نأخذ عن المدنية الغربية، فإنما نعني المدنية الفرنسوية. وبعبارة

أصح المدنية التي تنبعث أشعتها من باريز، ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسر لنا أن نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض.

سلام عليك علمت وعلّمت فما أحسن العلم والعمل إذا اجتمعا وما أحلى الإخلاص والشعور بالواجب.

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل، من العطف على البائسين والمساكين والرفق بالضعفاء والعاجزين. والأخذ بأيدي المقهورين والعاثرين، والانتصار للمظلومين من الآدميين، خصوصًا إذا كانوا من طينة أوربية.

سلام عليك أنت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الأمة مباحة للناس يدخلونها، وكانت بؤرة المظالم والمغارم، ومنبعث الشهوات والأهواء. ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء: إلى السماء، من حيف الكبراء أيام كان يوقع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعًا واحدًا يترك من الغد مئة ألف أسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة، ليعمر بما يجمع قصرًا له. أو يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة، فلما أضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة، متاحف عامة، ومن دور الظلم والظلمات، مجالس عدل وعلم ونور.

سلام عليك خلدت أعمال من خلفوا لك هذه المدنية، وأقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والإعظام، وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل يوم ألوف الألوف من المرات. لتجعليهم مهمازًا لمن يأتي بعدهم من الأبناء والأحفاد.

سلام عليك يا بلد ديكارت وكونت وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات أضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك. فلم تنس أفضالهم عليك بعد مماتهم.

أنت إن خجلت من ذكرى الحروف الصليبية وديوان التفتيش الديني. ومذبحة القديس برتلماوس ومقتل الفيلسوف فيفاني، وجنون نابليون وغير ذلك من الأعمال البربرية في عصور الظلام فإن سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بأنهم أحفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الأعمال المشكورة في عصور النور ما ينسى الماضي إلا أقله إن الحسنات يذهبن السيئات.

السلام عليك باريز أجمل عواصم العالم. وأغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية، وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية، لست أنت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر: أربعون في أرضك وستون في المستعمرات بل أنت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين، لأسباب هنائك وصفائك، ونعيمك ونعمائك. وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق، وسلامة الأبداع، ووفرة العلماء والباحثين والكاتبين والشاعرين والقصصيين فكل شيء في باريز مبذول حتى لتعافه النفوس من أقصى ما يتصور الفكر من الفصيلة إلى آخر ما يجول في خاطر أو يحوم حوله خيال.

فباريز ولأمراء جنة أرضية جمع فيها موحدوها -أستغفر الله- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

باريز بعد الغروب

١٠

إن فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت إليها الأنظار وتستفيد الفخار والنضار، فإن لها كل ليلة معارض لا تختلف عن السابقة إلا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالًا وأكثر جمالًا.

يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم. وكثيرون لا يعلمون إلا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم، وادخار أحسن ما عندهم لما بعد النفق، فهم لا يجعلون الليل لباسًا والنهار معاشًا كما هي عادة معظم الأمم، بل إن الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطلع بدلها شموس وأقمار.

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالأشجار غالبًا وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة. وفي هذه الأماكن تشهد مجالي الحسن والإحسان. وما تفننت في إبداعه العوامل، وتلطفت في روائه الأفكار والأنامل.

على تلك الأرصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة: اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف لتكون مثالًا من جنة أرضية فخصصت أهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته على الباريزيات، وشطر وزعته على سائر بنات حواء.

إن امتاز الفرنسيس بالإبداع في الصناعات فقد امتازوا أيضًا بنضرة الوجوه وإلى باريز تحمل هذه الأمة ولا سيما في فصل الشتاء أفضل ما عندها من مجالي الكمال والجمال. أيام نكون أم هذه القرى مقصد

السائحين والمتجرين. والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين وتغص دواوينها وإداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية.

ويزيد الوجوه بهجة في باريزة تفنن القوم في الأزياء وتغاليهم في التبرج والزينة، تغاليًا مهما تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده وأساتذته وسدنته ومظاهر الأزياء تتجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات، وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الأرض وتحتها وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ويزيدها فتنة للناظرين ما اعتاده الباريزيات إلا من عصم ربي من إبداء زينتهن لغير المحارم أكثر من إبدائها لبعولتهن وذوي قرباهن، ورنين أصواتهن في الكلام رنينًا تحسبه من مزامير داود وتستطيبه أكثر من تغريد العندليب وهناك الفتنة بعينها، والفتنة أشد من القتل. ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين.

ولعل هذه المجالي في الحرية المفرطة، حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ليشهدوا فيها ما لا يشهدونه في غيرها، وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات. عملًا بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له: ليس من اللائق أن تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع فقال: (الربح لا رائحة له) وأرسلها مثلًا ولذلك يقول الإفرنج أيضًا (الغاية تبرر الواسطة) فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لنيله، ومن أجل هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة، والناس معهما وما يختارون.

بعد الغروب تعمر في باريز أندية الخطابة والمحاضرة والعلم، وتلقى فيها من الفوائد ما يبلغ الأذهان عفوًا صفوًا، ويفيض معين البيان، ويبدو

حذق يد الإنسان، ويسعى العالم إلى تعليم الجاهل. في ساعة ما تعب في إحضاره الأيام والأعوام فمائدة الخطب والمحاضرات معروضة، ودروس الفضائل عامة موروودة.

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم، والشاعرين أشعارهم، والمؤلفين مؤلفاتهم، والمخترعين اختراعاتهم، والصانعين صناعاتهم كأن الأفكار لا تنطلق من عقالها، والأيدي لا تحذق أعمالها، إلا عند ما ترفد عيون البشر أو كأن الزهرة ربة الجمال، لا تحب أن تملي على من هم أحوج الناس إلى طلعتها، إلا من الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الأفلاك إلا مع الدجى، ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس، مجمع الأنس وريحانة النفس.

وكأن الباريزيين، وهم العارفون بتقسيم الأعمال عز عليهم أن تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم، فخصوا النهار ببعض الصناع والتجار. والعملة والعاملات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات، حتى لا تنقطع حركة ولا يقف دولاب عمل، وكان بذلك الحظ الأوفر للغرباء، فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد، ولا يفتأ من الفجر إلى الفجر إن أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه.

يقول الباريزيون: إن بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم، وإنهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى، ويكدحوا الليل والنهار، ولكن هذا قول من ملك شيئًا فزهد فيه، والروح ترتاح إلى النقل، أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم، فإنه يعجب لمن يساكنهم زمنًا، كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بلدًا، كما يعجب لأهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما

يأسف غيرهم عليها. ومن قال بأن دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم على أهل باريز لم لم يعمروا أكثر من عامة الخلق، وعندهم النعيم المقيم، والخير العميم.

تاريخ عمران باريز
١١

لعل باريز كانت في الأصل إحدى تلك الضياع التي كان الغاليون ينشئونها في جزر الأنهار الكبرى أيام كان يسهل عليهم أن ينشؤا جسورًا يتخذونها مجازًا إلى طرق مهمة وأول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان سنة ٥٣ق.م فدعا القيصر ساكنيها باريزيًا كما دعا المدينة لوتينبا وضم إليها سنة ٥٣ نواب الأمم الخاضعة.

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الأصلية ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالي على عهد الإمبراطور كونستانس كلود الذي أنشأ فيها قصرًا تسمى بقاياه اليوم بقصر الترم و سكن فيه حولين لما نادى به جنده قيصرًا وكانت الجزيرة محاطة بمناريس وفيها قصر تفصل فيه الأمور البلدية ومذبح على اسم جوبيتر أقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون في تجارة نهر السين وفي سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز أسقفية وعلى ذاك العهد أطلق عليها اسم باريزي وهو اسم الشعب الذي يسكنها وكانت عاصمة بلاده.

فتحت باريز أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كلوفيس ثم ماتت القديسة جنفياف حامية باريز ووقف العمران على عهد الأسرة الكاروليجيين بل تراجع فنقل الإمبراطور شارلمان عاصمة ملكه إلى أكس لاشبل وما كان يقيم في باريز إلا نادرًا.

وكانت القرى في شمالي المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الأديار وكثيرًا ما كانت تخرب بأيدي أشقياء من السكان أو بغارات النور مانديين، وفي سنتي ٨٨٥-٨٨٦ جاء النورمانديون وعددهم ثلاثون ألفًا وعسكروا أمام جزيرة المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهرًا، وبهذا الحصار افتتحت باريز أيام سعادتها وأصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها.

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر امتد عمران هذه القاعدة وأنشئت فيها أديار وبيع ومستشفيات ومدارس وأقيم لها في أيام لويس السادس عمدة ينظر في شؤونها وأمور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادي. وعلى عهد فيليب أغسطس وهو أهم دور من أدوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الأديار والمدارس ودور المرضى والأسواق والمجاري وأحواض المياه والفساقي والمرافيء وفي سنة ١١٨٥ أخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الأولى وفي سنة ١٢٠٤ أنشيء قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين ألفًا وجعلت منها مدرسة جامعة أطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (اللوربون) وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣: ٢٧٥ ألفًا وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس إلى لويس الثالث عشر في تزيين مدينة باريز وتطهيرها وأنشئت فيها فنادق جميلة.

ولقد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الإنكليز سنة ١٤٢٠ حمى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثًا ومنذ سنة ١٤٠٨ إلى ١٤٢٠ أكثر الأرمنياكيون والبورغونيون من ذبح سكان باريز التي احتلها الإنكليز من سنة ١٤٢٠ إلى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها. ومع هذا لا تزداد عروس الغرب إلا عمرانًا.

وفي سنة ١٥٢٣ وضع الحجر الأول في أساس دائرة المجلس البلدي الذي هو مفخر من مفاخر البناء في هذه العاصمة كما أسس قصر التويلري المشهور على أيام شارل التاسع وعادت باريز فأصبحت ميدانًا لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانتي من أهلها وانتشرت الفتن الدينية زمنًا، وأصبح القول الفصل فيها للمتعصبين والجامدين.

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفًا وكثرت الفتن على الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادي والعقلي فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة وكانت أسقفية صغرى وفي سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات وسنة ١٦٣٥ أسس المجمع العلمي وأنشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالأشجار وكثرت الحارات والأحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعًا وذلك في الليالي غير القمراء.

ولقد نشط هذا الملك البحث في التاريخ والصناعات والعلوم بإنشاء المجامع الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبترخيصه للناس أن يختلفوا إلى المكتبة وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط. وكان عهد الوزير كولبر عهد عمران هذه العاصمة الذي لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفًا وعلى عهد لويس الخامس عشر، طبعوا أسماء الشوارع على صفائح من توتياء، وجعلوها في رأس كل شارع. واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح الزيوت.

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز إذ أعقبت تخليص الأراضي من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الأبنية

العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من الثورات التي حدثت بعد ولا سيما فتنة سنة ١٨٤٨ ما نشأ عنه بعض الأضرار على العمران إلا أن الهمم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون ألفًا من الألمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض أحياء المدينة عقيب الحرب التي فشل فيها الفرنسيس في موقعة سدان وعاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام.

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشأم أيام الخراب على عمران باريز فتقوض بها ٢٣٨ دارًا خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندي وقتل وجرح خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليونًا من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسباب الراحة وكان من المعارض الخمسة التي أقامتها باريز ولا سيما معرض سنة ١٨٨٩ الذي أقيم تذكارًا لمرور مئة سنة على الثورة الفرنسوية الأولى أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيس وأول دليل على ارتقائهم التدريجي الذي لم يقف قط عن الجري.

إجماليات في عمران باريز

١٢

باريز واقعة في الدرجة ٤٨ و٥٠ و٤٩ من العرض يشقها نهر السين إلى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقي ويتحللها في وسطها عدة آكام وجبال مهدتها حتى غدت كأنها بعض أجزائها منها مايبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها أقل من ذلك. وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هيكتار ومحيطها ٣٦ كيلو مترًا.

وطولها من الشرق إلى الغرب نحو ١٢ كيلو مترًا وعرضها من الشمال إلى الجنوب نحو تسعة كيلو مترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتارًا ولها ٧٠ بابًا أو منفذًا منها ٥٧ بابًا و٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان ديني واورك وعدد سكانها بحسب الإحصاء الأخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدحامًا إذا قيست بالمدن الأوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ ألفًا والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠.

وتقسم من حيث أمورها الإدارية إلى عشرين قسمًا لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقًا و٨٢ جادة كبرى و١١٥ شارعًا و١٦٦ ساحة و٤٠٦ طرق غير نافذة و٤٦٨ ممشى و١٥٤ قرية و٤٩ مصيفًا و٧١ مجرى عامًّا و٤٢ رصيفًا و٣١ جسرًا و٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالأشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ مترًا وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق.

تضاء باريز في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و١٥٧٥ مصباحًا كهربائيًّا وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريز ٢٣٠٠٠٠٠ مصباح كل واحد ذو عشر شمعات ويجري ماء الشفة إلى مدينة باريز في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافًا لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من أن ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل ما يجري منه إليها ٣١٠٠٠٠٠ متر مكعب يأتي إلى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و٧٤٣٣ مضخة للحريق و١١١٦٩٥ محلًّا لشرب المارة ويجري إليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجري في ٦٤٦٠٠ آلة عامة.

في باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيل وأكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هي في الأكثر عربات خاصة بالأعيان وأرباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ أوتومبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليونًا من الناس في السنة و١١٩ خطًّا من خطوط الحوافل (أومنيبوس) والتراموای وفيها ٢٥٠ عجلة أومنيبوس و١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و١٢٠٠٠ سيارة (أوتومبيل) وقد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتومبيلا و٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكمبونات وفي باريز ١٦٠ ألفًا من الدراجات و١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليونًا ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون إليها.

ويلزم لباريز في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و١٥٩ مليون كيلو من اللحم و٣٦ مليون كيلو من السمك و٦٦٩ مليون بيضة و٣١ مليون كيلو من الطير والصيد و٦ ملايين هكتو لتر من الخمور و٦٩٢٠٠٠ من الجعة و١٢٠٠٠٠ هكتو لتر من سائر المشروبات الروحية.

وفيها ٣٠ ألف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة ألف نسمة ولتجارة الأطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص ولتجارة الفرش والأثاث ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التي تبيع الأمتعة والثياب والأزياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ ألف عامل وعاملة وعدد محال الأطعمة ومعاملها ٧٥ ألفًا فيها ٤٣ ألف مستخدم وخمسمائة ألف عامل وعاملة فيكون مجموعة من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة.

وأكبر وسائط النقل وأسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربائية تحت الأرض التي يسمونها المتروبولينين وهي تدل على عظمة

العقل وآخر ما وصل إليه الإنسان من التفنن وليس لهذا الخط نظير في سعته وجدته في برلين ولافي لندرا افتتح الخط الأول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منها ما طوله عشرة كيلو مترات ومنها أكثر وأقل إلى السبعة عشر كيلو مترًا يربط أجزاء المدينة بعضها ببعض وينقل الراكب إن أحب من فرع إلى فرع آخر بدون زيادة أجرة وقد تم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلو متر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الأولى ٢٥ سنتيما وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩: ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكبا وكان عدد من أقلتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩,٧٠٠,٥١٩ وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زهاء أربعة وأربعين مليارًا وهم يعملون أبدًا على تهوينه على طريقه لا نخلبه من الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شيء آخر.

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة إلا إذا درس لغتها وتاريخها وآدابها. واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل. ولذلك كان من الراغبين في درس أحوال الشرق من أهل أوروبا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبرًا بأهله وكان للغة العربية المقام الأول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهل الأقطار المعتدلة من صميم الشرق. فتوفروا على أحكام العربية وتنافسوا في تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا في فهم أسرارها عن خلص أبنائها

الذين نشؤا في حجرها وأحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار. وكل مملكة من ممالك أوربا وأميركا لا تخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون معضلات لغة العرب وينسلون إلى تلقفها من كل حدب.

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المستشرقين وقديمًا كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيس أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الألمان. والألمان أمهر الغربيين في النطق باللسان العربي وأكثرهم نبوغًا فيه وعند الألمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيس والنمسويين والمجريين والإيطاليين والهولانديين والإنكليز والروس والأسبانيين والبرتقاليين والأميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالألمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الأوفر من عنايتهم.

اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسياوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست أحوالهما وزرتهما غير ما مرة وهاءنذا ألخص للقارئ ما عرفته عن الجمعية الآسياوية بواسطة صديقي المسيو لوسين بوفا أحد الأعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار إليها فقد كتب إلي ما تعريبه: إن فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم إلا بعد زمن طويل. فقد أنشئت الجمعيات الأولى للباحثين في المشرقيات خارج أوربا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا ١٧٧٨ والجمعية الآسياوية في البنغال ١٧٨٤ والجمعية الآسياوية في بومباي ١٨٠٥ ومنذ ذاك العهد أنشئت في أوربا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين ولكن أقدمها عهدًا الجمعية الآسياوية في باريز أسست سنة ١٨٢٢.

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقي الفرنسيس أن الحاجة ماسة إلى أن يجتمعوا أو يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وأن يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم. وكان المسيو دي لاستي أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسياوية التي ناب في رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة، وكان الرئيسس إذ ذاك سلفستر دي ساسي أحد أعضاء المجمع العلمي وأستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيس وكان من مؤسسي الجمعية أيضًا كوسان دي برسفال وكارسين دي فاسي ورموسا.

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال إلى اليوم نموذج العلم الراقي وسيدة المجلات الإخصائية في فرنسا.

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ما وصلت يدها إليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضًا مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة. ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفته وأديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم الأعمال التي تعنى بها، وخصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنيت بمراسلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم.

وإذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد أن ضعف أمرها بضع سنين إلى مكانتها الأولى ولم تلبث أن قويت عن ذي

قبل وانتشرت كلمتها فرأسها أمثال سلفستر دي ساسي ثم جوبرو ريمو وموهل و كارسان دي ناسي ورنيه ورنان وباربيه دي مينار وسيسار. ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دي برسفال وبارتملي سان هيلير ودفرني وبوريه دي كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين أمناء سرها أبيل ريمورا وجايمس ودار مستثير وشافان.

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقرًا في بناء ملاصق للمجمع العلمي وذلك بفضل رئيسها إذ ذاك رنان الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسوية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس. ولا سيما المخطوطات التي أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية.

وما عدا المجلة الآسياوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفًا تتألف من نحو ٤٠ مجلدًا وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودي نشرته بنصه العربي وترجمته إلى الفرنساوية وهو في تسع مجلدات، ونشرت رحلة ابن بطوطة في أربع مجلدات وكتاب الماهافاستو في ثلاث مجلدات.

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية وأعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضوًا منهم ٢٦ من الأجانب وهي تبعث بمجلتها إلى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة أو مجلة دورية وإلى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسوية وللمجلة ١٣٠ مشتركًا ليسوا من الداخلين في الجمعية، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨: ٢٥٦٣١ فرنكًا و٦٦ سنتيما . وفي مكتبتها

نحو اثني عشر ألف مجلد من الكتب و١٥٠٠ صفحة و٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة اهـ.

هذا إجمال حال الجمعية الآسياوية وفيها من الأعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذي ترمي إليه إلا أنهم يؤدون الراتب السنوي المضروب عليهم ويتناولون المجلة مقابل ذلك وكثير منهم لا يعرفون من أحوال الشرق ولغاته وأصول سكانه أكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت.

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرئ مبادئ اللغات الشرقية وهي مخرج لأعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من نفعها وما دامت فرنسا تراعي الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الأكفاء فإن تعليم اللغات الشرقية يبقى صوريًا لا حقيقيًا. وهيهات أن ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال أمثال المستشرقين الأول من أبنائها الذين باهت بهم الأمم ما دامت سوق الشفاعات رائجة عندها.

درس من سلانيك
١٤

بينا كنت مأخوذًا بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسوية وأقرأ مثالًا مجسمًا من الارتقاء الغربي ولا أفرغ ليلى ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص في مكاتب باريز ولا سيما مكتبة الأمة ومكتبة السوربون وبينا تكاثرت علي المواد وأنا لا أعرف بأي لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر وبينا أنا أفكر في بلادي وما يجب علي أن أكتب لها مما تأثرت به عواطفي

وأخذ بمجامع قلبي حمل إلى البريد من سلانيك كراسة باللغة الإفرنسية من قلم صموئيل سام أفندي ليفي رئيس تحرير جريدة سلانيك الفرنسوية وهي محاضرة ألقاها في نادي الاتحاد الرياضي في ذاك الثغر أواخر الشهر الماضي عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدة فرأيت أن ألخصها للقراء ليعلموا أن تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الأوربية وأن ابن سورية إذا أقامه ما شاهده في غربي أوربا وأقعده بما فيها من آثار العمل والجد فإن ابن مكدونية لاينقص عنه تأثرًا في ما شاهده من أواسط أوربا وشعور ابناء الوطن واحد. قال الكاتب السلانيكي:

في ستة وعشرين يومًا ساح مائتان وخمسون رجلًا من أهالي الآستانة وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلو متر في السكك الحديدية و١٥٠٠ في البواخر والعجلات والسيارات وعلى الأرجل فوقفنا في خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحنو ١٥٠ دارًا صناعية ومعهدًا علميًا أو مدرسيًا وفنيًا وإداريًا ومتحفًا وغيره وحضرنا مئة دعوة وغيرها أقامتها لنا ١٥ جمعية و٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق من تلك الرحلة التي تذكرنا السائحين جول فرن وما بن ريد إلا أن نذكر شيئًا من ذلك الحلم الذي مر علينا في رحلتنا ونتثبت من تلك الأشباح لنحسن الانتفاع بها في مادياتنا وتكون لنا علمًا ودرسًا نافعًا ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والأوضاع التجارية والمدرسية والإدارية عن أمم ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلوموتسكي فيما خطبنا به لها مساس كلي بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل إلى البحث في الأولى مع إغفال الثانية.

ولقد كنا نقضي بالعجب من كل ما يقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عمَّا إذا كان ما تقع عليه أنظارنا من مدهش الأعمال هو من صنع أيدي البشر وهم الذين قاموا بهذه العجائب وبحق ما قاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا السائحين عندما غادر النمسا إن أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذي نتأثر به كلنا كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي. نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل إليها التجديد من كل أطرافها وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة.

وكثيرًا ما اتفق لنا أن زرنا معهدين أو ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي أقاليم مختلفة فكنا نجد في كل منها ما عدا أساليب العمل التي يقضي بوجودها العلم أعمالًا كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الإقدام الذاتي وقوة إرادة شخصية وحب في البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل كنا نشاهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والإنسانية. ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الإحسان ومعونة العملة تراءى لنا أن النمسا في مقدمة الأمم في هذا الباب ومن ذلك أن ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك وما ننس لا ننس ملجأ المرضى العصبيين في شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير.

وبينا كان رفقائي في رحلتي يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها في بلاد المجر والنمسا وموراقيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظري خاصة منظر اتفقوا على تسميته

باسم مملكة هابسبورغ فإن هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف أصولها، قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع وما كانت وحدة هذا المزيج إلا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها فرأت أن تترك لكل قوم استقلالًا إداريًا كان غاية الغايات في إبداعه، وبذلك توقت الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة. وهذا الرأي في توسيع سلطة الأقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل. وذلك أن كل قطر له من نفسه غنى طبيعي غزير، ورجال نوابغ أذكياء هم خيرة رجاله. فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك أن استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الأعمال منوعة الأساليب تمت في عامة فروع الجهاد الإنساني. وكان ذلك من أهم المشاهد وأجملها التي وقع نظرنا عليها في رحلتنا وأحسن معلم لنا معاشر العثمانيين.

تألفت مملكة هابسبورغ من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سببًا لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها مطامع جيرانها واعتداؤهم. ولكن لما عزمت الحكومة أن تمنح العناصر المختلفة التي يتكون منها جسم المملكة دستورًا قائمًا على المبادئ الحرة في مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها إلى الأمام.

فعلى نواب العثمانيين في مجلسنا النيابي أن ينظروا في أمر العناصر العثمانية ويحلوها كما حلتها النمسا والمجر التي كانت في حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فأحسنت حلها على ما يجب فهي سابقتنا في

هذا الباب وما علينا إلا أن نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى.

وهنا ألتفت إلى رفاقي في الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذي قطعه جيراننا فأقول لهم إن ما شاهدناه عندهم ليس إلا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وإرادة قوية وأساس راسخ وإذا أحببنا أن نبلغ بأمتنا مبلغهم فما علينا إلا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية في الأمة وأن تعمل الحكومة عملًا فعالًا لما فيه إنهاض الشعب كما على الشعب أن يعمل لمعاضدة الحكومة الصالحة، وبالجملة أن يعمل كلاهما بل يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة.

نهوض العثمانيين موقوف على التعليم ولا ننجح إلا إذا حذونا على الأقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالأمس كممالك البلقان مثلًا وأرسلنا من شباننا من يتعلمون العلوم الكاملة في كليات الغرب، فمن أعظم نجاح تلك الإمارات أنها ما زالت منذ زهاء ربع قرن ترسل بشبانها إلى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية في أوربا إلا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الأعمال في بلادهم ونفخوا فيها من أرواحهم ولسنا نضطر إلى الأجانب لتعليم أولادنا في بلادهم بل يجب أن نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون في بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن في حاجة إلى رؤوس أموال الأجانب لاستخدامها في أعمالنا ومشاريعنا وأن تكون في سياستنا الاقتصادية كما قال أرنست لافيس المؤرخ الفرنسوي في تعريف السياسة أنها علم خديعة غيرك من الناس، وأنت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو أنهم يحاولون خداعنا.

دار معونة العلماء
١٥

هي الدار التي أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير العالم المؤرخ أول رئيس للجمهورية الثالثة فقد نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فأحبت امرأته أن تخلد ذكره بعد مماته فأوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوي خمسة عشر رجلًا من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والمجامع العلمية التي يراد إجلاسهم في قاعاتها. ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالًا بلغ ريعه مئة وخمسين ألف فرنك.

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الإيقان بالمثل الإفرنجي القائل بأن (فرنسا تخترع وألمانيا تعمل) الفرنسيس يبتكرون في كل شيء، وهذه الدار هي من مبتكراتهم وما أظن لها مثيلًا عند الألمان والإنكليز والأميركان سادة العالم في العلم وقادة الإبداع والاختراع.

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف إلى مديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو أميل بوترو- ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون. ولم أتمن في حياتي أن أكون فرنسوي الأصل والجنس إلا لما رأيت هذه الدار وعلمت أنها لا تقبل في حجرها إلا الفرنسويين، تمنيت أن أعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس أبحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن إتمامها.

هذه الدار سميت باسم تير La Fondation Chiers والأولى أن تسمى دار معونة العلماء لأنها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة إكليريكية كالمدارس الدينية بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة من شبان العلماء من نابغي الكليات يحملون شهادة (الليسانس) أو (الدكتوراه) في الآداب أو العلوم أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمي في الأبحاث التي تجري فيها المسابقة بين أرباب الأفكار والأقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة في باريز فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها إلى الفن الذي يريدون الإخصاء فيه فيبحثون بأنفسهم لأنفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو أميل بوترو الذي يعيش وإياهم في المعهد كما يعيش الأب مع بنيه ويمدهم بآرائه ويهديهم إلى أقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم، ووضع مؤلف أو مؤلفات نافعة في الفنون التي هي أحب من غيرها إلى قلوبهم ولا ينشرونها إلا إذا نظرهو فيها وأقرهم عليها، وأي عالم لا يحب أن ينتفع في عمله برأي عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين أو كاد من عمره وهو يفني لياليه وأيامه في العلم والفلسفة.[1]

يشترط فيما يدخل دار معونة العلماء أن يكون ممتازًا بعقله وأخلاقه ويفضل من يرتضي أساتذته أخلاقه ونبوغه. ويشهدون فيه شهادة حسنة. وأن يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج. وقد قضى الخدمة العسكرية، ويعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقته الخاصة، وثلاثين ليرة ليسيح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة والرفاهية إحداهما لنومه والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة عشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد أبدًا موسعًا

---

(١) اعتمدنا في هذه المقالة على ما كتبه المسيو أميل بوترو بشأن معهد تبر العلمي في مجلة الأفكار الحديثة والمجلة الدولية الألمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم.

عليهم لا يطلب منهم إلا أن يؤلفوا ويبحثوا أبحاثًا علمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ ١٩٠٩ من شبان العلماء إلى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم في اليونانيات وحقوقيين وفيلسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين في الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسوية وجغرافي وقد أنشئ هذا المعهد في سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من أعانتهم على الإخصاء في العلم حتى الآن ٨٠ عالمًا وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة آلاف فرنك.

قام معهد تير العلمي في أجمل حي من أحياء باريز في حي الأشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغناء غربي مدينة باريز في الحي الذي تؤجر الدار فيه اليوم بثلثمائة ألف فرنك مسانهة وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق في مكان يجمع إلى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة في مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والمجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية وليس في المعهد مكتبة كبرى لأنها على اتساع مساحتها لا يتسع صدرها لكل ما يلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيها فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والأمهات التي لا غنية لكل عالم عنها وما عدا ذلك فمكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ما راقهم كل ساعة.

وليست هذه الوسائط هي كل ما في معهد تير من المعونات لعلمائها بل إن لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير أهم الأسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم

كل الوسائط فلم يبق عليهم إلا أن يقطفوا من ثمار يحبونها كل قريب ودان.

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركة فيتناولون طعامهم معًا ويلعبون ويتنزهون معًا ويبحثون عن العلوم التي يمتون بها معًا ويظلون هكذا يعيشون عيشة الأتراب العاملين على ما تعلموا في طفوليتهم في المدارس والكليات ويستفيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة ويعاون بعضهم بعضًا معاونة الإخوان ويترفهون رفاهية لا يتمتع بها إلا عقلاء الأغنياء.

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل المجمع العلمي وحققت فيه مؤسستاه العقيلة تير وشقيقتها ما رسمه النظار على ذاك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمي سان هيلير فكان تير الذي عد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تذكر على الدهر فتشكر نافعًا لأمته في حياته بعقله وفي مماته بماله فمتى يصل الشرق يا ترى إلى هذه الدرجة في العقل والإحسان ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار إلى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأموالهم كما أحسنوها بعلومهم.

إن شبان العلماء في هذه الدار بعد أن تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ما تعلموه أن يعانوا لينشأ منهم أفراد متفردون في العلم فيتحولون بهذه الواسطة من تلامذة إلى أساتذة أكفاء أن يكفوا أنفسهم وأن يوجدوا ويخترعوا وهذا موقوف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم وأوقاتهم على ما يشاءون فالعمل كما قال أميل بوترو هو السرور على شرط أن لا يكون صاحبه مستعبدًا فيه لأحد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعًا فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهي الإيجاد والإبداع، وما التربية إلا أن تخرج كل إنسان على ما ينفع فيه، ويتيسر له النبوغ في

فروعه، التربية هي تخريج المرء أولًا في مجموع المبادئ العامة التي هي وقف خلفه لنا أسلافنا بتجاربهم وسموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانيًا في أن يكون مخصيا متفردًا في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو ما يتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثًا ممن دخل في هذين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف إليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث في أن يوفق توفيقًا حسمًا بين الحياة الخاصة والحياة العامة وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التعس الآن.

تآخي الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة إليه وتحبيبه إلى النفوس، عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها في كثير من أعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والألمانية والأميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتية والفلسفية.

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا أن بلادهم تنتفع كثيرًا من تحسين صلاتها مع أميركا فألفوا جمعية دعوها (جمعية فرنسا أميركا) مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق، وقد أنشاوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو

إلى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون إليه وكتب في المجلة الأسبوعية مقالة طويلة الذيل في هذا الشأن فرأيت أن ألخص للمشارقة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لننعي على أنفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا.

قال هانوتو- إن النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم، ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ إلى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم إلى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به. هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين وإذ قد سكنت الآن وجب علينا أن نعمل عملًا يحمل في مطاويه أحسن الفوائد.

تبدلت الأرض غير الأرض في خمسين سنة حتى صح أن نقول إن قارتي آسيا وإفريقية كأنهما اكتشفتا حديثًا فكثرت مواصلاتهما وحملت إليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة، فقد غير دلببس بتفحه ترعة السويس شكل الأرض كما أن جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسمًا كافيًا من قسمة الأراضي الجديدة.

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا، ويستغني عنا، فإن مسألة باناما المشئومة التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد أثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الأوربية الكبرى التي اضطررنا إلي مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية. وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها أسبابنا في العمل واختفظنا بأساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاء وأكثر مضاء وأقل مطالب.

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدمًا لا يوصف

فقد كان سكان الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠: ٣٦ مليونًا أي ما يقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠: ٦٣ مليونًا وها هم يتجاوزون اليوم الثمانين مليونًا. وفي كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفي الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليونًا وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليونًا وكان فيها سنة ١٨٩٠: ٣٥ مليونًا.

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ مليارًا وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨: ٧٥٠٧٩ مليونًا فأصبحت سنة ١٩٠٥-١٩٠٦ مليارين ونصفًا. ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية.

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ما هناك من نفوس ١٦٠ مليونًا من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت أميركا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار فأثرت في فرنسا تأثيرًا غير قليل وكانت هذه إلى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من إنكلترا أي لها المقام الثاني في التجارة فأصبحت اليوم في الدرجة الرابعة بعد إنكلترا والولايات المتحدة وألمانيا. أي أننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديمًا فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الأولى أو أن نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضي لها الإرادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة إلى تقاليدنا والانتفاع من أسبابنا.

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذي أحاط بطرفي البحرين المحيطين فهي المهمينة على أعمال العالم فإن عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد أن يجيء زمن تتداخل فيه في السياسة الأوروبية وإن

الفرنسويين في كندا ليبلغون مليونين ونصفًا ومثل هذا العدد من الفرنسيس منتشر في جمهورية الولايات المتحدة ولا سيما في الجنوب واللغة الفرنسوية في هايتي هي اللغة الرسمية فإذا حسبنا المستعمرات الفرنسوية في كويان وجزائر الأنتيل يصبح عدد الفرنسيس ومن يتكلمون باللغة الفرنسوية من الأميركان ليس بقليل.

وإن ما لنا من الأيادي في أميركا ولا سيما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسوي باسم واشنطون الأميركي الذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وما وضعناه فيها من أموالنا وقمنا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال إلى أن نصل الحاضر بالغابر وإن لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع.

والناس مهما تقلبت بهم الحال لا يزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على المدنية وإذا نسوها فإنهم لا ينسون باريز التي تنشر أنوارها على العالم وإليها يحج الألوف من الأميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواعي إلى نزول باريز وما في أراضي فرنسا من المصايف والضواحي ككوت دازور فإن مجموع الأميركيين الذين يختلفون كل سنة إلى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح. فعقد الصلاة بين فرنسا وأميركا فيها كل ما نحتاجه من الأسباب القوية فإن كانت أميركا الشمالية تدعونا إليها بما فيها من القوة والعظمة فأميركا الجنوبية تنادينا إليها القرابة لأن عناصرها لاتينية وتربتها لاتينية فمن كندا إلى مضيق ماجلان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتيني ممزوجًا في شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح إطلاق المثل القائل (هذا دم لا ماء).

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا في القارات والأقطار الأخرى فقد كانت جمعية (إفريقية الفرنسوية) أعظم معاون للحكومة في أعمالها الاستعمارية وجمعية (آسيا الفرنسوية) أخذت على عاتقها مثل هذه المهمة (وجمعية مراكش) تعمل على نشر الأفكار الفرنسوية في الغرب الأقصى فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ إلى أميركا من معارفنا بقدر ما نأخذ عنها. فلا نرمي إلى الدخول فيها ونشر كلمتنا بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونحالفها نريد أن نتعلم عليها ونحن أبناء المدنية القديمة درسًا في النشاط والمضاء فإن كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فللمدن الحديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون ارج المستقبل.

قام في واشنطون مثل عملنا هذا يرمي إلى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الأميركية أنشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الأخرى ومنحه المستر كارنجي مبلغًا جسيمًا من المال وهو يفتح قاعات لإلقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لأخذ المواد والتعليمات وخزانة كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة إلى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما أن إسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين إسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتقال للتوفيق بينها وبين البرازيل. وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الأميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نحبب فرنسا إلى نفوس أميركا ونعرفهم بها ونحبب أميركا إلى نفوس الفرنسويين ونعرفهم بها.

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الأميركية التي أدهشت العالمين المدني والوحشي. فإن مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرنسيسكو قد امتازت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الثماني والأربعين ولاية

ومقاطعة كولومبيا والأرض الهندية والأسكا وجزائر هافاي ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فدانًا (آكر) وثمنها ٢٠ مليارًا ونصف مليار دولار أي ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨: ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و٨٠٧ من القرطمان و٣١ من الجاودار و١٦٦ مليونًا من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون ليبرة من التبغ و٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا و١٣٥ مليون ليبرة من الصوف النقي.

وكانت مساحة الغابات الأهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون دولار دع عنك الصيد في بحار أميركا وأنهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات.

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموعة ما في الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجورًا يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الأولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر مليارًا. وفي سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لإنشاء محال وأماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال.

وبلغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧=٢٣٧ ألف ميل أي ٣٨١ ألف كيلو متر لها ٥٥٣٨٨ قاطرة و٢,١٢٦٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢,٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليونًا وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الألفية (الألف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ مليارًا ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ مليارًا دولار وصافي ريعها

أربعة في المئة. وفيها ما عدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلًا من الخطوط الكهربائية. وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨: ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليونًا.

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لو لم تكن الأخلاق أساس عظمتها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والأعمال والصناعة والتجارة. وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطون التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم. وإن كثيرًا من الأسر لينزلون مدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة في سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو. وليس للأمير كان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها مادة علم ولا يجدون بلدًا مثل فرنسا تتلقاهم بقبول حسن وتوفر الإرادات على حبهم. وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون في بلادنا ما يتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات أميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

لما وصل النقل إلى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئًا من حال الشرق. ذكرت حال العثمانيين والإيرانيين وأنهم وإن كانوا من أمم مختلفة فجامعتهم الكبرى وهي الإسلام لا تقول بجنس ولا عنصر فلو كنا وكانوا على شيء من العلم الحقيقي لما كنا ندعو إلى إنشاء جمعية عثمانية إيرانية كما ينشئ هانوتو اليوم جمعية فرنسوية أميركية.

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لا تلبث أن تنفجر براكينها إذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الأب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر. وإن العاقل ليربط على قلبه بيده عندما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لإبقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتمنى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالإيراني. فاللهم علمنا علمًا نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون.

محاضرتنا في نهضة العربية

١٧

في باريز ثلاث جمعيات شرقية الأولى جمعية شبان الأتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الإسلامية والثالثة جمعية الإخاء المصرية. اتخذت كل جمعية لها ناديًا وأخذت تعمل على ما فيه غايتها وقد كلفتنا جمعية الإخاء المصرية أن نلقي عليها محاضرة في نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة فألقينا عليهم المحاضرة الآتية في ناديهم في قهوة فولتير أمام دار تمثيل الأوديون:

سادتي الإخوان

سألتموني سعدت بكم أوطانكم أن أحدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرى وما منكم إلا من أستفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه. أنتم من أهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وأن تعمروا أكناف معالمه ومجاهله بما

ثقفتموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة. فأنى لي وأنا نازل بينكم متعلمًا لا معلمًا أن أفوه في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسي إلا حال من يحمل التمر إلى هجر أو المسك إلى أرض الترك أستغفر الله بل إن حال من يلقي محاضرة على جمعية الإخاء المصرية في باريز أعجب وأغرب

إخواني: تعلمون قرت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وإن أتعس أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة. ثلاثة قرون بل أكثر مضت في مرض مستحكم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم أن يكون مستقبلها خيرًا من حاضرها وغابرها بيد أن لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين أن يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال ما دام في الأرض مسلم يوحد الله.

لابد لكل حركة من سبب. وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العلمية صورية ينظر فيها إلى الأشكال لا إلى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولًا لا غناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الأحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الأمن وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربي من لم يترب.

وكأن قدرة المولى تعلقت بأن هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها أن تأتيها الصحة على أيدي غيرهم. وربما يعجب بعضهم الآن إذا قلنا له أن مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقًا بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيس فكان من أعماله الجليلة ما خلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكام في الشرق. والشرق أبو المعجزات والكرامات.

ليس من يجهل أن محمد علي كان أميًا أو يقرب من درجة الأمية. مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرناؤديًا ولم يخط سطرًا واحدًا لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط. ومع هذا فقد عني بما لم يعن به أحد من الملوك المتأخرين وشرع منذ استقام له أمر مصر يختار الأذكياء من أبنائها ممن قروءا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة إلى أوربا ليخضوا في العلوم التي أولعوا بها حتى إذا عاد أحدهم وأتم تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتابًا بالإفرنجية في الفن الذي أتقنه ويوعز إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف فإذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد أن تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الأميرية ويغدق الأمير على المترجم أنواع الهبات ويشرع في ترقيته في المراتب إن كان ممن استعدوا للإدارة أو الجندية أو البحرية وإذا كان من الأساتذة يوسد إليه التدريس في بيوت العلم موسعًا عليه في الرزق ليتخرج به أبناء مصر. وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الإنعام على

المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة في الإسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الأمة بقدر ما يستكثر ما تم على يد محمد علي الأمي الألباني وعصره عصر شيخوخة الإسلام والمسلمين.

قال لي صديقي الدكتور عثمان باشا غالب أحد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي أختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركات العلمية في إبانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدها الآن في تجددها. لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير إلى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لإحلال اللغة الإنكليزية محل اللغة العربية في المدارس الأميرية زاعمًا بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى إلا إذا أتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لأبناء إنكلترا وقطعت الإرساليات العلمية إلى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل إذا عادوا إلى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنلوب وارتين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة أكداسًا في مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق إخوة يوسف ابن أبيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته.

قال غالب باشا كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الأستاذ درسه

بالفرنسوية والمترجم معه ينقله إلى العربية فيلقي على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الأستاذ بروجر بك الفرنسوي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي إن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ قد أصبح فيهم الكفاة الآن وإن مهمة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت.

نعم في ذاك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها وعادت فأضحت لغة علم بعد أن انقطع سد العلوم منها قرونًا وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدي والتباسي والههياوي والبحراوي وحماد وبهجت والفلكي وندى والبراوي والبقلي ألفاظًا من لغتنا كانت في حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة والفاطمية في مصر وأضافوا إلى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سلك عليها أجدادنا المعربون غالبًا حتى إن الأتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والإيرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنزًا حاضرًا ينتفع به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدمجوها في تضاعيف لغتهم.

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي إلى التخرج في أوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البلاد العربية كافة وأصبحت مصر ببيض

أياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الإفرنجية زهاء ألفي مجلد. والأثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قلمه أو عرب في قلم الترجمة برئاسته وما بثه من المبادىء في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس. وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل. خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الأثناء ومنها جريدة وادي النيل لأبي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك.

ورب معترض يقول أي علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها إلى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس إلا والجواب أنه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هذه المعارف فكما أن للعلوم ارتباطًا كليًا بعضها ببعض هكذا للغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل إن لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية إن لم تكن لغة علم قبل كل شيء.

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الأدبية وهي أنا إذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الإفرنج بالإمبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية وشارلمان كما لا يعزب عن عملكم كان من أعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي أنفذ إليه الرشيد العباسي رسولًا من قبله سنة ٨٠١م يحمل إليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي الملتجئين إليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة. كان شارلمان لأول أمره أميًا تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي إلا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروسًا فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين

والمتعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين والمشهور أستاذه وأمين سره وباذر الجراثيم الأولى من المعارف في هذه الأرض الفرنسوية وبمساعيه أنشئت المدارس في أكس لاشبل عاصمة البلاد إذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب.

ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ما حدث لنهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لأن من خلفوه على سرير الإمبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولأن الأعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالأفراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد ولم تدب روح التجديد فيها إلا بانتباه عقول الأمة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكلة في مهمتها على نفسها لا على الحكومة وبذلك جار لنا الاستنباط بأن كل إصلاح يقوم بالأمة في هذا الوجود يكون الأمل في بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزًا بين الأمة والحكومة. والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها إلى اليوم من يفضل الجهل على العلم. ولهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الأمة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع إلى عقل ولا إلى نقل.

كان الأدب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجمل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره

في الأماديح والأهاجي وإن ارتقى الشاعر انفتق لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال وما أظنكم اعز الله بكم دولة الأدب إلا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال [1] محمد عبده وعشرات غيرهم لا تحضرني الآن أسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشباننا. وقام من الشعراء محمود سامي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الأخيرة عملوا لخيرها في مصر والشام والعراق وتونس أعمالًا وخلف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المأدبون عليه وينسحون على منواله.

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الإمارة العلوية عز على الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الأفراد والجمعيات وذلك في أواسط القرن الماضي وكانت مدينة بيروت وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسلي الفرنسيس والأميركان وأنشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الأولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتور كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من أعظم مؤسسي الكلية الأميركية الإنجيلية في بيروت تعلما العربية وأتقناها وألفا بها التآليف العلمية النافعة والأول أميركي والثاني أرمني ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الإنكليزية بدل العربية قاوما ما وسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقالا من

(١) حذفنا في هذه الطبعة ما كنا أثبتناه من أسماء الكتاب والشعراء والخطباء في الطبعة الأولى لحكمة لا تخفى على الناقد.

وظيفتيهما لانهما أبت مروءتهما إلا أن يمحصا النصح للبلاد وللغتها. والدكتور كرنيليوس فانديك لامير كاني في سورية بفضله على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فانديك أعظم لأنه أميركي الجنس والمنشأ غار على لغة العرب أكثر من أهلها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لهما حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو أو كما رفعت مصر لمحمد علي وإبراهيم. والعلماء إن لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم.

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذاك الدور أيضًا بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الأسير وإبراهيم الأحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء. ولم تحرم الآستانة - والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله- من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح علي صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه.

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضبًا فقضى زمنًا طويلًا في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وإنكلترا وتعلم في خلال ذلك الإنكليزية والإفرنسية ثم دان بالإسلام وألف بعض الكتب ومنها اللفيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه

في أوربا كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠هـ. وضمنه ترجمة حياته وشؤونًا وشحونًا على أسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر أن تعده من الإنشاء المعروف عند الإفرنج بالأمورستيك (الجد في الهزل) أو الريالبست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبر أو الناتور اليست (الطبيعي) الذي تم على يد رولا وإنك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتانته في التحرير والتحبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات أحمد فارس فيها قاموس الفيروزابادي الذي ألف كتابًا مهمًا في نقده وسماه الجاسوس على القاموس. كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ويتفنن ما شاء بيانه وتبينانه. ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه (فارس) وآخر اسم أسرته (الشدياق) وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين حملة منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلمًا وتعصبًا جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتي [(١)].

هبط أحمد فارس مدينة الآستانة بعد أن خبر حال أوربا خبرة زائدة وأنشأ جريدة الجوائب التي طار صيتها في الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك بهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بأبي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس إلى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم أسرار الكتاب والسنة.

---

(١) هنا قرئت نموذجات من شعر أحمد فارس ونثره من كتابه الفارياق.

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها على نسقها وقل إن نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية اللهم إلا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لإبراهيم بك المويلحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لأن جريدته كانت كهاته أسبوعية وله فيها مساعدون في الأقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر أحبابه من العلماء في شمالي إفريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك بكلام تصقله الأنامل الفارسية فأحمد فارس هذا لو أنصفنا هو واضع أساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره. ومن أراد أن يطلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع إلى كنز الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وإن أحب الاطلاع على الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع إليها في خزائن الكتب في أوربا ومصر والآستانة.

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر الليال ورحلة له إلى أوربا جدية محضة وكتاب نحو اللغة الإنكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من أئمة الادب نشرها على أحسن أسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في أسلوبها. وما برحت مطبوعات الجوائب إلى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الأحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون.

ابتلي أحمد فارس بأناس حسدوه وأي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك

المناقشات اللغوية الأدبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم يزد فارسنا إلا جرأة على الجري في مضماره وقبولًا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد أرباب الأقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد ممّا دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قليلًا فيما يكتبونه وأخذت تخف أغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلمّا نقل الناقلون عن اللغات الإفرنجية ونحا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا أن نقول اليوم إن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الإفرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم.

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة نضرتها الأولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي أتانا به العماد الكاتب الأصفهاني من فارس- وفارس مورد بدع كثيرة في الإسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب- ونقله إلى العربية فأجاد في أكثره إلا أن ما جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه.

وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الأنفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الأدب لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي، ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية وأنشأت أبحث عن

كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقف تلك الأسفار المسجعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والإحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو في الحقيقة ونفس الأمر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق دباجتها كما كنت أعجب من أفيالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبي الطيب وأبي عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وأبي فراس الحمداني.

يرجع الفضل الأكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين أمثال دوزي ودساسي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المنقبة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت في أوقات مختلفة في مصر لإحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجميعة التي طبعت لنا المخصص لابن سيده أحسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الأميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس. كل هذه الأعمال أعانت العربية على تحسين آدابها وترقيها. ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم على مناحي الأوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بإيجاز وإعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم أفكار الغربيين في

سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الأدبي على ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء.

أنا لا أقدم لكم مثالًا من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أجلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والمحروسة في مصر وأن ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلًا وترجعوا إليها اليوم وإن كانت إلى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء. قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من أمثالها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجًا صالحًا منه بنصه وفصه. عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما نفيض به ألسن المحامين وأقلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفًا صالحًا منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء. استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها بأكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة. تدبروا لغة التمثيل اليوم وإن كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخرًا واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العرابية وتعدها مثلًا تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الأسلوب الرائق والإبداع في الأداء والإلقاء.

أليس مما يعد من نهوض اللغة ما نراه من أحكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة أحداثًا تخرجوا من دار

العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الأخير على غير حق أما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت إحاطة نبهاء الغربيين.

وإليكم أيضًا مثالًا صغيرًا أذكره لكم دليلًا على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لا تتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم. نعم إن مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على ؟؟ الآداب وأدخلت الغيرة على التعلم في ؟؟ أرباب الاستعداد.

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الأصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم ما زال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فإن مدينة فاس منذ القديم ما خلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فردًا يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك إلا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الأدوار سوق نافقة ولأن حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيًا في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم.

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فإن الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الأذكياء من الخلدونيين وغيرهم. أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقف ملكة العربية وأعني به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا. وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقي والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات إلى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر.

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في أحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق إلا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية وتعنى بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجر على الأفكار الذي داء في البلاد العثمانية إلى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي إذا قلنا إن ثلاثة أرباع ما تم للعربية من الارتقاء في القرن الأخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس. ومن الأسف أنا لا نزال ترى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الأغلاط في التركيب والتأليف والألفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطًا تلك الجرائد التي صدرت مؤخرًا في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية

الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجري سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق. ومع هذا فإن الآمال قويت بأن لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة إلا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصًا في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجدًا فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرنوا على العمل إذا تهيأت لهم الأسباب لأتي على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجى ذلك إلا متى انقطعت شافة الفتن من تلك الأقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرغوا أو أفراد منهم للدرس والاستنارة.

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الأخيرة ألقيته في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وأنتم تعلمون أني على أوفاز أستودعكم الله والسلام عليكم

كلية باريز
١٨

كلية باريز من أقدم كليات العالم في التاريخ إن لم نكن أول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مراء أشهر كلية وأكثرها إيواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال أحد الفضلاء ينظرون إليها بأنها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت إرثًا شرعيًا صحيحًا وكانت أول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس بينوي والمملكة الأشورية الأولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية

منفيس كلية آثينا وبعد هذه أنشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها أم القرى وتلك من أعمالها مثل مدرسة الإنكليز ومدرسة الأيكوسيين والألمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك إليها بأولادهم ليتخرجوا في المنطق ويتعلموا رقة الجانب وحسن الأدب والعشرة.

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر تربي معظم الرجال الذين يختلفون إلى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة . ومن مشاهير من تخرجوا فيها غليوم أوكام ورابمون لول وتوما داكين وبنوا دانانيي وبونبفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانتي وتوما موروس وإيراسم وغيرهم وجميع طلابهم على اختلاف أصقاعهم كانوا يرتاحون في حماها وكان مطمح أنظارهم حب الحقيقة وهي القاعدة الأصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه ولقد جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس إلا أن كلية باريز أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الأفكار الفرنسوية وكانت وحدها تكفي لإنارة العالم إلا قليلًا وكان رجال تلك الأزمان ينسبون العلوم إلى مواطنها ويرجعون الأمور إلى مصادرها فيقولون إن رومية مقر البابوبية وألمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم.

وكانت الأفكار الفرنسوية -كما قال أحدهم في المجلة الباريزية- هي أكبر معين في القرون الوسطى عصدت إلى النهاية الصليبيين في نشاطهم وهيأت أسباب الحماسة الدينية وفتحت لأمم المغرب ونشاطهم طرقًا جديدة في العمل ومن الأفكار الفرنسوية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجلية في صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووضعت أسس الوحدة الوطنية. والأفكار الفرنسوية هي التي

ظهرت رياح الإصلاح والنهضة وقادت الأفكار القديمة إلى التجديد وأنارت العالم بقبس أنوارها. والأفكار الفرنسوية هي التي حملت إلى العالم في عهد فولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الديني والعدل الاجتماعي والحق والإنسانية. والفكر الفرنسوي هو الذي سن المبادئ الخالدة في دساتير الأمم المتمدنة بأسرها. فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك وحرية اليونان وحرية إيطاليا وحرية العثمانية، وفرنسا مهد الأدب تنشر أنواره فتتناوله الأجانب وتتقبله بقبول حسن وهي البلاد التي اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريز اخترع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية. وفي كلية باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المحسن إلى الإنسانية في العالم أجمع وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة وفي كلية باريز اخترع كوري وقرينته الراديوم واهتزت في أيديهما ذراته. وفي معامل كلية باريز أوقد موسان للمرة الاولى التنور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالألوان.

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة أستاذ يفيضون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم ولا سيما على أميركا الجنوبية وبوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الدار رسول السلام بين الأنام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحي والإخاء العام. ولكم كان أساتذتها يسيحون في بث ما علمهم الله في البلاد التي يقل فيها العالمون ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم

رنت في غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء الأرض أتوها يحملون إليها نتائج أبحاثهم ودروسهم. فإن كانت كلية باريز أم كليات براغ والآستانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأميركا اللاتينية فهي تفاخر بأنها أم كليات إنكلترا وأيكوسيا.

ويؤخذ من إحصاء سنة ١٩٠٧-١٩٠٨ أنه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الأجانب فتيان وفتيات. ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و٥٢٠ يدرسون الطب و٧٧٣ العلوم و١٠٦٢ الآداب.

ولم تقصر كليات الولايات. وعددها اثنتان وعشرون كلية في بث روح التكافل الأخلاقي والعقلي فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسويين في أسبانيا وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الأسبانية العالية في مدريد وأنشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسة وكلية نانسي وهي على الحدود الألمانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم، وهكذا الحال في كلية مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد ليس بقليل يدل على تفردها في هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية.

هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريز التي ما زالت الحكومة الفرنسوية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن إعطائها المنائح الكبيرة فقد وهبها كارنجي المحسن الأميركي كثيرًا كما إن بعض الروسيين منحوها مالًا جزيلًا والفرنسيس يعطونها عن سعة. فحيا الله يومًا تقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس أبناءها علوم البشر بلغتهم وتكون مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب. كالبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتقال.

حدائق باريز ومتاحفها
١٩

يطول بنا نفس الكلام إذا أردنا الإفاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج إلى صفحات كبيرة وربما مل القارىء قبل أن يمل الكاتب. ولقد عنيت مدة مقامي في هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتي إلا في البحث عن جمعية أو إنسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الأيدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لأوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسماع.

في باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحي أو شارع صغير ويسمونها (سكار) وهي كلمة إنكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها أما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف في كل واحدة الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وأيدي البشر من مجالي الظرف والجمال.

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة كلوني وحديقة لوكسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفًا بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التي يتنزه فيها المتنزهون هي في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيرًا كان أو صغيرًا ما ينبغي له من هذه العلوم درسًا عمليًا لا يحتاج فيه

إلا إلى انتباه فكر قليل حتى إذا أسعده الحظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل.

ولقد رأيت في حديقتي الحيوان والنبات أشياء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها فلما وقع النظر عليها تبينت فصل عرضها وأن العلم النظري إذا لم يشفعه علم عملي يبقى كالسيف في غمده أو البندقية في معملها أو الكهربائية قبل توليدها وليس في البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق اللهم إلا أن تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الأمة وغيرها في الآستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريريون لأنفسهم وينظمه الإنكليز أو الطليان والنمسويون لنا. وما حك جسمك مثل ظفرك.

وإنك لترى في بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا إلى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمنًا وأصبح لهم في تاريخها ذكر يردد، ففي ساحات باريز وشوارعها ٦٨ مشهدًا Monument لمشاهير علمائهم ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرد دي موسه وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكي دي موباسان وجول سيمون ولافاييت وواشنطون ولافواريه وباستور وفيكتور هوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالًا اثنان منها لإسكندر دوماس الابن والأب وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلود برنار وكوندورسه ودانتي وديدرو وغار مبالدي وجورج ساند وجان جاك روسو. وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية.

هذا داخل العاصمة أما خارجها فلها من عامي فنسين وبولونيا أعظم فسحة ونزهة وغابة فنسين في شرقي باريز على بضعة كيلو مترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتارًا وفيها من أنواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ما هو العجب العجاب واعجب منها عامة بولونيا في غربي باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتارًا زرتها ثلاث مرات وإن كانت في الشتاء ليست منهما في الصف على أنها ما خلت من الأنبس والجليس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحبة والشمس طالعة مربضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كياسها تستنشق الهواء النقي. وهناك مطر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدري كيف يصوره الشاعر إذا كان الوقت ربيعًا أو صيفًا أو خريفًا. ولو كنت شاعرًا لحبرت في وصفه القصيد وإن زرتها في الفصل الميت كما يقول الفرنسيس.

أما المتاحف الباريزية فهي أيضًا قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفًا يحتوي كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر في الصناعات والفنون على اختلاف الأعصار زرت بعضها وقضيت أوقاتًا طويلة في متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريز. أما متحف اللوفر فهو من أجمل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أغسطس وما زالت أيدي الملوك تتعاوره بالإصلاح أو التدمير حتى إذا كان عهد فرنسيس الأول أصبح اللوفر متحفًا يقسم اليوم إلى سبعة متاحف في متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الأسياوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الإفريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والأواني الخزفية

القديمة ومتحف الفلز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة، ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الأقصى.

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفي النظر، فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل ما يقع عليه بصرك إذ تتمثل لك عظمة الإنسان وتفننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه.

أما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال. وكانت في القرن الحادي عشر للميلاد قرية فأصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لأنه أقام فيها قصرًا للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها أبنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفًا على عهد الثورة، وهكذا إذا أراد الملوك أن يعمروا بلدًا أحيوه وإذا شاءوا أن يخربوه أماتوه. واشتغل في إقامة قصر فرسال الذي جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون الف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة. وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخي.

أما مجموعة الصور البديعة التي فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير في العالم ومن يمعن النظر فيها كثيرًا يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر.

ومن جملة ما حواه أسلحة بيوت الشرف التي اشترك فرد أو أفراد منها في الحروب الصليبية. ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذي أهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ إلى لويز فيليب صاحب فرنسا. وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عيانًا وفيه صورة تمثل القائد

كليبر الفرنسوي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسوي في مصر.

أطلت الروية في كل هذا وأنعمت النظر في النفقات الطائلة التي أنفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسوية يريدون إنزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل إلى أيدي الأمة. نعم إن أقل نظرة إلى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولكن الحوادث كالحبالى لا تلد إلا بعد إتمام مدة الحمل أو كالثمر لا ينضج قبل إبانه.

ولم أتمكن يوم زيارتي لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة ولكني على الجملة أخذت منها صورة إجمالية كافية. شأني في كل ما زرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسر لي ان ألقي عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغريبة.

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الأرض تجعل حدائق قد لا يختلف إليها إلا أفراد في حين يهلك مئات الألوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي أو يرثى لبكائهم وتُسبل على النظر هذه التحف والعاديات التي لا تقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها. وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أهله المفكرة تحرر في الأجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الأقل على تعديل هذا

النظام الجائر الذي يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد.

مكاتب باريز ومكتباتها
٢٠

لو لم يكن في باريز إلا مكتبة الأمة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف مليون صورة مختومة وألوفًا من الأيقونات والأنواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالبًا للسائحين ولافتًا لأنظار أهل العالمين من العالمين.

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها وأشرافها يتبارون في أن يجعلوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى إذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الأمة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف.

اختلفت إليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة. وبلغني إن الكتب التي أهديت إلى مكتبة الأمة في العهد الأخير لم يتيسر إدخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الأمة الأميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فإن ما رأيته منها مطبوعًا إلى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسها ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الإجمالي.

ولو صرف طالب عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الأمة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتي إلا على قسم ضئيل جدًّا ممَّا حوته في بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الآستانة التي تتجاوز الأربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدي في الإسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الأدنى إذا جمعت كلها في صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة إلا جزءًا صغيرًا من ذاك الجسم الكبير. وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين في مكتبة الأمة بالنسبة لأمثالهم في البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالًا ونساءً شيوخًا وعجائز شبانًا وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الألف أحيانًا وتجد فيهم الغرباء من أمم أوربا وآسيا وأميركا وإفريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون في البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقودًا ثمينة وتعاويذ محلاة تقي البشر شر الجهل والخرافة.

ولعله يخطر ببال بعضهم أن هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيس فيها قواهم وجمعوا لها من أقطار الأرض كل غال ونفيس على عادة الإفرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن في باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضًا لكان منه مكتبة كمكتبة الأمة بكثرة أسفارها إلا أن هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات.

ولباريز عشر مكاتب أخرى في كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والمجامع فإن لكل واحدة منها ما يقتضي للمطالع من أسفار

المراجعة وغيرها أما خزائن كتب الأفراد فهذه لا يحيط بها إلا علام الغيوب أو من يدعي أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب.

ويقول العارفون إن قواعد بلاد الإنكليز السكسونيين كألمانيا وإنكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيس والطليان والأسبان وغيرهم إذ ثبت أن تلك الأمم العظمى الراقية أكثر إحسانًا للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسويين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وإن عرف عنهم أنهم أسبق الأمم إلى التجديد ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى.

والانتفاع من الكتب أيضًا لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا إن نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الأمة في عاصمة الفرنسيس أو نقلت إلى ليبسيك أو مونيخ أو برلين أو فينا أو إكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لانتفع بها وتيسر سبيل الوصول إليها لأنها تكون هناك فهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع. فإن كانت فرنسا في مقدمة شعوب الأرض من وجوه كثيرة ولا سيما في الأمور الدوقية وبدائع الصناعات والإصلاحات الدستورية والإنسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصري.

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فأنا نجد ألمانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيس فيما يدل على سلامة الذوق حتى إن

ليبسيك في ألمانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبية الألمان في نفس باريز تجدهم أمهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبية الباريزيين.

جاء في كتاب (ألمانيا الحديثة) أن ألمانيا أعظم البلاد إصدارًا للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فأصدرت سنة ١٩٠٥: ٢٨٨٨٦ كتابًا في حين أن فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتابًا فإذا قدر أنه يطبع في كل كتاب في ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد واحد فصناعة الكتب في ألمانيا رابحة جدًا. وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥: ٧١٥٢ محلًا تصدر إلى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك.

زرت في جملة الكتبية الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والأدبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتبية العالم إن لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون إن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الألمان أو الأميركان لأدهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم. فكأن دم الفرنسيس الذي غلى زمنًا قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدهش بحرارته. ومن مكتبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب إلى التجديد منها إلى الجمود على القديم.

مجامع باريز العلمية
٢١

على الشاطئ الأيسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى. وأراد أن تنفق بعده في الخيرات وحسن الأثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلًا سنويًا ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالبًا من أبناء الولايات الأربع التي أضيفت إلى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيللون.

وهذا القصر هو الذي نقل إليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخرًا من مفاخر الفرنسيس وحق لهم أن يفاخروا به وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمي الفرنسوي المعروف بالأكاديمي أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسوية وإدخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة أو إصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلًا ويقال لهم المخلدون على سبيل الدعابة لأنهم إذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء في الحال من يخلفه والمجمع الثاني مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كولير سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولير أيضًا سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الأخلاقية والسياسة أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضًا مدى العمر وينظرون في العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين

من المؤلفين والعاملين وبعضها لايستهان به. وفي باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمي مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوي ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم والبكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها وأكتفي فقط بوصف جلسة عامة حضرتها [1] من جلسات مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية.

في اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهي القبة التي تجتمع فيها المجامع الخمسة المعدودة فيما تقدم اجتماعها السنوي وقدر الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء. جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحد منهم ويرى وكان أكثر أعضاء هذا الجمع بلباسهم الرسمي فجلس على كرسي الرئاسة المسيو رني ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ إنشائه قائمة بأعمال المجمع منذ اثني عشر شهرًا وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها وأعمال قاموا بها لخدمة الإنسانية وتعليم البائسات وإطعام الجائعات واليتامى والعمي وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من

---

(١) هنا أرى من الواجب علي أن أشكر لصديقي العالم المسيو الفرد لشانليه أستاذ علم الاجتماع الإسلامي في كوليج دي فرانس ومدير مجلة العالم الإسلامي ومجلة السجلات المراكسية ومجلة الأفكار الحديثة لتفضله بتعريفي إلى كثير من أصدقائه من رجال العلم والأدب والسياسة في باريز وبهم تيسر لي أن أطلع من مدنية هذه الأمة في شهرين ما يتعذر على غيري أن يراه إلا في شهور وأشكر خاصة أمين سره الكاتب المسيو لوسين موري الناقد الأدبي في المجلة الزرقاء وأحد كتاب هذه العاصمة المجيدين الذي تفضل وأضاع من وقته كثيرًا ليقدمني إلى معارفه ومعارف المسيو لشالميه المشار إليه.

أثنى الرئيس على أياديهن البيضاء كالأم أرنستين التي أنشأت معملًا وملجأ في مدينة روان والعقيلة بيكوين التي أنشات في باريز ملجأ سمته معمل الجهاز والآنسة دي رشمون التي أنشأت في مدينة كرنيل منذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوي إليه أربعمائة ابنة من بنات العملة وأنفقت عليه ثروتها. ومن المعاهد التي أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذي منحته العقيلة كارنو امراة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتي بثمانية عشر ألف فرنك دخلًا سنويًا وقضت بأن تقسم إلى ٩٠ إعانة كل واحدة بمائتي فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن أولاد، ومن جملة الجوائز التي منحها المجمع للمؤلفين جائزة الإجادة لمن ألف كتاب (إفريقية للأوربيين) وكتبا (أوروبا والمملكة العثمانية).

ثم قرأ المسيو دي نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسلفه في هذه الوظيفة جورج بيكوفاثر في السامعين وأبكاهم، وتفنن ما شاء وشاء البيان في وصف حسنات المتوفي واقتداره. وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ في الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العالمون العاملون طربهم بنغمات الأوتار وتغريد الأطيار في الأسحار.

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمثلت لي أرواح أولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا أخلافهم سنن الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون، وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر بأجدادنا

نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في نهضتنا، ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون.

كنائس باريز ومعابدها ٢٢

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز أن يختلف إليها ولو مرة بيعها وكنائسها فإنها من الأماكن التي يقرأ فيها أنموذجًا من أنموذجات البناء في القرون الوسطى، ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيس الروحية خصوصًا والمأثور عنهم في الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير العقل وزنًا تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن إلى المعابد للإنابة إلى الله وتقديس يسوع وأمه عليهما السلام.

بيد أن من تعمق في البحث عن حال الفرنسويين الروحية يتجلى له أن جمهورًا عظيمًا لم يبرح متشبثًا بدينه متشبعًا بصحة يقينه، ولا سيما في القرى والبلدان الصغرى فأغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة دينًا وأغلب الطبقة السفلى يغلب عليها التدين، أما العامة في المدن كالسائمة لا تعرف غير الأكل والشرب واللهو واللذائذ وأكثر أهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسواد الأعظم من النساء متدينات. وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدة قليلًا إلا في المدن والحواضر. ولا أثر للتعليم الديني في المدارس الأميرية وهو على أشده في مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة على أن نزعة التعصب التي عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية في القرن الثالث للمسيح ما برحت لها في

نفوس أبنائها حتى في هذا القرن العشرين آثار راسخة وإن عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير ما مرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الإكليركية من كل ما يدخل في حوزتها.

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالًا يقدسونه ويمجدونه وفي ذاك اليوم تشهد في كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجًا من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة بأعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم. وأعيادها كثيرة هي صورة من صورتها في القرون الوسطى بل في القرون الحديثة قبل أن تنادي فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة علنًا نزعها ربقة الدين.

نعم إن زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية. ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاثوليك ما عدا بيع الروم والبروتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هي من أعظم الكنائس. وهي أجمل أنموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بأنها أنشئت في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم تزل تتعاورها الأيدي بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدي وتفننت فيه العقول ما يدهش ويبهر.

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقي عثمان غالب باشا. ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء: يعظهن واصفًا لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عيناها

بالدموع أو تجهش بالبكاء خصوصًا عندما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريز. فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو لناس إلى الزهادة ويحبب إليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون وأعمال دنيوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية.

إن ما رأيته من انتظام البيع الباريزية، وتفنن البانين في إبداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بلسان حاله على أن مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجمل مصانع تلك القرون، وكان أكثرها إلى الزوال لو لم تتدارك في القرون الحديثة ببلسم من إنارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدنية هذا العصر فلا أدل عليها إلا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافئ والمعامل والثكن والمستشفيات والمدارس والكليات ودور البائسين والحقول الأنموذجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل.

فهل يأتي على البشر عصر يا ترى يكون فيه ما ينم عن مدنيتهم غير ما ذكرنا قديمًا في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتًا تعظيم ما خلفته عصور التدين من المصانع والعبادات. التي انتقلت إلى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم، هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلًا بالإجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياها
٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة: مصرف فرنسا قصر الأليزة حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويلري وقصر العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكي، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدي.

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الأخيرة فقد كتبت لي زيارة مجلس نواب الأمة الفرنسوية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين، فلم أسر بمشهد أجمل ولا أفخم وقلمّا تمثل لي معنى النيابة عن الأمة إلا ذاك اليوم، ومجلسا النواب والأعيان هما مفخر من مفاخر هذه الأمة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففي مجلس الأمة الحركة والمضاء وفي مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالأول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة. وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همة الشباب وعدد الأعيان ثلثمائة تقرأ في وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة.

وما أنس لا أنس يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم إلا الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والسياسي والإداري.

وإن ما تلي في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الأعضاء لو جمع في كتاب برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعي اقتصادي عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ما هو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى.

أما المجلس البلدي فهو معيار العمران وبيده أسعار باريز وأشقاؤها يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى في باريز بطلب من الزائر يقدمه إلى أمين سر المعهد فيرسل هذا إليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذي يأتي فيه.

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسوي وعظمة هذه الأمة لكثة ما يقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة بنقوش وصور ورسوم من أجمل ما خطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والإشارات الحسنة.

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور أغاني شواطئ السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لأجمل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من ملوك الأرض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز. وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى

والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والأنغام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالإيماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والألعاب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب. ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم إلى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبري وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا ووافرن واللورين ونورمانديا وكونتية نيس. ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا وأوربا وأميركا وإفريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الأحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم وأربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه. ومنها رمز إلى ساعات الليل والنهار ومشاهد الأفراح والأعياد.

وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عرائس الشعر والإلهام والتفكر وتاريخ الكتابة وأعظم الأعمال الأدبية وأربع أيقونات لأربعة أدباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير إلى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الأفكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نائمان وهما يمثلان الأدب.

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تشير كل واحدة منها إلى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد وكلها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن في العالم ولا سيما من أهل

فرنسا جلعت هناك نموذجًا مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق.

وعلى الجملة فإن الشرقي الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريز تصغر بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة أبنائها.

أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها إلا أنها عظيمة جدًّا ويكفي أن المجلس طلب من الحكومة هذه الأيام أن تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليطهر بعض أحياء باريز فأذنت لأنه ثبت أن بعض الأمراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو يد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالي راكبًا وماشيًا في شوارع باريز وأحيائها موضعًا تحدثك النفس أنه محتاج للإصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء في مكانه وأن مدينة باريز تنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل.

تاريخ الحضارة الفرنسوية
٢٤

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما يهم عن معرفة باريز وها نحن أولاء نتوخي في هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة إلا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسوي بتصرف كثير وزيادات.

فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية يحدها المحيط الأطلانطيقي وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الألب والجورا والفوج ويفصل بينها وبين البلجيك وألمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموعة مساحتها ٥٣٦,٤٠٨ كيلو مترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليونًا أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥,٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسيس كجميع سكان أوربا أخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذو قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وإن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجمها ومع هذا فهي تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة في الأرض ويندر في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والأنتيموان والكبريت ولكن عندها ما يلزمها من الحديد والفحم الحجري.

وإنك لتدهش إذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءًا من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها في تربية المواشي والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحول وقد امتاز كل إقليم بصناعة وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لأنها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات.

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز إقليم الآردن بالجوخ وأعمال الحديد والألواح الحجرية وامتاز إقليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ وأعمال الحياكة والنسيج وإقليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة

لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني وفي ضواحي إنكولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولإقليم البروفانس بزهوره العطرة التي تستعمل في الطيب وعلى الجملة فإن صناعات فرنسا من أنفس ما تصنع صنع الأيدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهرية والبلور والأواني الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك أوربا.

تقسم فرنسا من حيث أمورها الإدارية إلى ٨٧ إيالة وهذه تقسم إلى ٣٦٢ ولاية و٢٨٩٩ كورة و٣٦١٧ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الأول كل أربع سنين وأعضاء الثاني كل تسع وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الإجرائية بيد الوزارة وهي المسؤلة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والأديان والبحرية والبرية إلى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايالات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد.

ومن نظر إلى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له أنها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨-٥١ق.م ولم تكن إذ ذاك إلا خليطًا من العناصر والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سلتبة وفي الجنوب والغربي أيبرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات إيطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس أعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب

لهم أوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوي ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه أحق بها.

وكانت المدن قليلة جدًّا في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاجئ لأوقات الغارات وهي مراكز الأسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلادًا زراعية وسكانها ثلاث طبقات الأشراف والمحاربون ومنهم ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الأراضي أحد ثم أصبحت ملكًا للأسرات الشريفة أما الحراثون فهم من توابع الأرض ويجيء بعدهم العبيد ويعدل من حال الأشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والأطباء والمنجمون والقضاة ولا سيما في أواسط البلاد.

ولما استقام أمر الرومانيين أقاموا زعيمًا عامًّا على البلاد ممتعًا بالسلطة المطلقة متصرفًا بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الإمبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحي والرئيس الروحي و الرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية الحقلية وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم وأخذت التجارة والصناعة ترتقي ولولا أنه كان من حق الممالك أن يبيع الأرض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون إلى الفرار.

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدها إلى الأرياف إلا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها أنها أعلنت بأن الأحرار والعبيد سواء أمام الله، هذه هي الفائدة الأخلاقة أمام الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي أخذوه

عن نظام الحكومة ولم يمض الأزمن قليل حتى أصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبي أموالًا من الناس ويغدق المؤمنون وأحيانًا الإمبراطورة عليها من المال ما تكونت منه ثروة طائلة وتعفى أملاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيرًا ما يحاكم الشعب نفسه في الكنيسة ولطالما كان الأسقف في ابرشيته خصمًا للحاكم السياسي ورقيبًا عتيدًا عليه.

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غاليا إلى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد إلى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزنًا ولئن كانوا يلبسون الثياب الأرجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كإمبراطور الرومان إلا أنهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة في الجباية كما أن اللغات في البلاد تعددت وكلها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الأشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الأعظم من الناس بالزعامة عليه إلا لهم ومنه يطلبون الإنصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والأديار إلى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الأمن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبدًا لسيده كما في سابق الأعصار وفي اليمين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الإفرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز.

وما زالت الملوك تتوالى عليها وتختلف في المبادئ والأطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسوي وزاد عدد المالكين من أبناء القرى زيادة مبهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما

كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والأنظمة المنوعة وارتقت الأدبيات وتحررت من قيودها القديمة وأخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية السياسية وإصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية أن الملك ملهم من الله وحقه إلهي على سكان الأرض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي.

نبهت مجالس النواب في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) أفكار وكلاء الشعب فبدأت الأمة ترفع صوتها وكان الملوك يخفتونه ولا يرون لها حقًّا في مطالبتها بحق واتفق إن وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الأمة ينظرون في حل ما أصابهم فنشأت بعد حين الثورة الأولى (١٧٨٩) وأعلن لويز الرابع أن الأمة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الإنسان والوطني أن مبدأ كل سلطة ينبعث من الأمة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع أن يحكم حكمًا لا يكون صادرًا عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الإلهي المزعوم وأتت الثورة على أعشار رجال الدين والإقطاعات والسخرات والأحكام التي يحكمها أرباب الإقطاع وساوت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد إليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطني من أكبر كبير إلى أصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته.

هذا موجز الأساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب أنواع الحكومات وقيام بعض الأدعياء بالملك إلى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع ألمانيا وعندها استقرت الحال على ما تراها إلى اليوم

أما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة إن اللغة الفرنسوية هي بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة إلى أن وصلت في عشرين قرنًا إلى حالتها الحاضرة وكانت أدبياتهم دينية لأول أمرها وبعضها شعري ونثري وأكثرها خرافي ولم تتخلص اللغة من القيود العائقة إلا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وتاريخ العلم ونشوؤه فيها طويل كتاريخ الأدب ويقال على الجملة ؟؟؟ كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كمااشتهرت كليات آثينا وكلية الإسكندرية وكان بيتياس أحد أبنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعاظم الفلكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية إلا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينا كان التمدن الإسلامي بالغًا أوجه كانت العلوم منحطة كل الانحطاط في أرض فرنسا. ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا إلا بمساعي أطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا بأسبانيا أولًا ثم بإقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جملتها مدرسة مونبليه وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الأرض فعن العرب أخذ الفرنسيس فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنها وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط.

الصحافة الباريزية
٢٥

نشأت الصحافة هنا في مبدأ أمرها بنشر أخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك إلى أن صارت تلم بمعظم الموضوعات التي تهم القراء وتعلمهم، وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء السياسية وإلى هذا العهد ظل الصحافي وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الأستاذ على منبره والواعظ في معبده لا يقصد إلا تثقيف عقل وتربية نفس.

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات والبرقيات وأخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد أن كانت هي خادمة التجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منهاإلا الربح وأول من أنزل أجور اشتراكاتها أميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكًا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكًا وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات إنزالها ليكثر قراؤها وإذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها بإعلانتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الأفراد والحكومة والأحزاب.

ولكن هذا الاستقلال وإن لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الإعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها أكثر من قبل بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلا أن يقبض العمالة من البائع والشاري وغدت الجريدة من مقالتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها

وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والأنباء المنوعة والمقالات الأدبية والاقتصادية والسياسية والإعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل أخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذي يهمه وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغًا معلومًا عنه وعند ذلك ينشر له من الأفكار والمحامد ما يشاء وتشاء الأهواء.

فإن كتبيًا أو طابعًا لا يقدر أن ينشر كتابًا طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير وهذا إذا فرض أنه رضي بأن يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الإدارة من ذلك. فمقالة في تقريظ كتاب قد تكلف الطابع ألفي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين [١] والموسيقين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات والأعاظم والأصاغر لا تدون أسماؤهم بالطبع قبل أن يرشوا إدارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الأزياء مع بائعات الزهور والجوهريين والخياصات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الأصناف بل إن أخبار الأعراس والأفراح وأخبار المناعي والأموات لا تكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها والأعمال الأدبية مهما بلغ من مكانتها لا تذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جعالة لقاء ذكر اسمه.

وهناك الماليون وأرباب التجارة يريدون أن يعبثوا بحوالة الأسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيرًا في أعمالهم فيعمدون إلى ابتياع الجرائد لتكتب في السياسة على هواهم فيرفعون الأسعار يوم يريدون الرفع

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة على ما جاء في كتاب (كيف تقرأ الجرائد) الذي صدر حديثًا في باريز لمؤلفه جورج فونكريف George Fonsegrive: Comment Lire les Journaux

ويخفضونها كذلك بما لهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الأفكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب في إمارة موناكو تدفع مشاهرات إلى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التي تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضًا في أوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها.

وإن أعظم علماء الاقتصاد لا تنشر له مقالة في موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوى الصحف الإفرنسية لم يعد يقدر الإنسان أن يقرأ سطرًا في شأن مالي في جرائدهم إلا ويشك فيه.

وهكذا أصبحت الصحافة الباريزية مقيدة في صورة حرة مطلقة ففي وسعها أن تضرب في كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل امرئ وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها إلا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الأسرار المالية فإذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة بأشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل الفلاني منذ سنين.

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذر شديد حتى مقالات الكيمياء أو التاريخ فإنها لا تنشرها إلا ولها منها مآرب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو في عدد تال، وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الأحزاب جهارًا فإن هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم

الحوادث أو تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسطة ما يضحك ويبكي.

فكأن الصحافة الباريزية جعلت لقلب الحقائق لا تقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد إلى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم وخطأهم أمورًا تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها ما يخضع للحكومة في كل ما يكتب ومنها ما يخضع للأحزاب وكلهم خاضعون لزبنهم وكثير منهم يقولون كل ما يريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطلوب منهم. فقد قيل إن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسوية تكرم الحقيقة من هذا النوع أي أنها هي الرذيلة.

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسوي في هذا الباب وصاحب الدار أدرى بالذي فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسوية كلها ترتشي وتلفق في أحاديثها وتكذب في رواياتها ما عدا جريدة (الأمانيته) أي الإنسانية وهي لجرويس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وإن الصحافة الإنكليزية أشرف غاية وأنبل قصدًا وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعللت هذا التصريح من أصدقائي الفرنسويين بأن إنكترا هي أرقى الأمم بأخلاقها والأخلاق هي معيار الأمم والجرائد مرآتها.

ومن الصحف الباريزية ما يصدر صباحًا وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالأمور المالية والحركة الأدبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتي باريزين والبتي جورنال

من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهي التي ينادي عليها المنادون في الشوارع بأعلى أصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح وسائق الأتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك كأكثر الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا والفيغارو وهذه لا ينادى عليها وتباع بثمن أغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة فلوس أو خمسة عشر سانتيما في حين تباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد وهي أكبر حجمًا وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم.

وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعني كثيرًا بأخبار هذا الشرق الأدنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تقدس كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطيها أخبارًا وربما أمدتها بمعونة مالية وهي لا تذيل المقالات السياسية والإخبارية بأسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها أن تؤيد اليوم في مقالتها الأولى فكرًا مخصوصًا ثم يجيء كاتب آخر من الغد في نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأي بعينه وينتقده وأعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هي هذه وربما كانت جريدة الأيكودي باري من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية إخبارية بدون تعليق على الحوادث ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب إلى الثقة والتعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الإفرنجية التي تقول الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيهات أن تقوله بدون عوض. ولقد كنت أظن جريدة الديبا وحدها ترتشي من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن علمت هنا أن الطان أيضًا على ما فيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لا تستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من أعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يومًا تعلم المخلوع بمكانة أقوالها في الأندية السياسية.

وأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومي الذي لا يكتب إلا في موضوع واحد مثل جريدة (كوميديا) وهي تبحث في دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة (الأوتو) وهي لنشر أخبار سباق الحوافل (الأتوموبيل) وغيرها من أنواع السباق ومن جرائدهم ما هو خاص بتأجير الأملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطالباته ومنها للأزياء وأخرى للعطور والطيوب ومنها للأخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سرًّا وتوزع كذلك وإذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها.

أما تنظيم إدارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الأمهات منها مثل (الماتين) وهي في أعظم جادة وبنايتها أجمل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة في الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلًا وامرأة رأيتهم سبقوني إلى زيارتها فما رأيت نظامًا أتم ولا استعدادًا استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته مما كتب فوق غرف المحررين (خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه) وزرت أيضًا إدارة البتي باريزين وهي دونها في الاستعداد وإن لم تكن دونها في الانتشار والنفاد.

الطباعة الباريزية
٢٦

ألمعنا مرات في الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين في الأمور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وإن كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة، وأجور الطبع هنا غالية لغلاء الأسعار وأجور الدور

والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات في يومه ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طبعها الذي لا يختلف عن المطابع الباريزية في شيء.

ومن جملة المطابع العظمى التي زرتها مطبعة الأمة أي مطبعة الحكومة التي أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت إلى قصر الكردينال روهان من أجمل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت أساقفة ستراسبورغ وقد أنشئت لها بناية هائلة في شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع.

تدخل من الباب فترى في فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الإنسانية معمولًا من البرونز فلا تتمالك من الدعاء له وذكر بيض أياديه على العالم ثم يأخذك الدليل في الوقت الذي تعينه لك إدارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف في ثمانين لغة واللغة العربية في مقدمة لغات الشرق رأيناهم في بعض الغرف كتبوا بيتًا من الشعر العربي ليمرن الأستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم.

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطي فرأينا كل شيء قد جعل في مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون في مكان واحد كتفًا إلى كتف وقد يتولى الأعمال الشاقة الرجال من دون النساء. وعدد العاملين والعاملات في المطبعة يناهز الألف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى في الغرب اليوم.

وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مسانهة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ما تطلب الحكومة طبعه وليس في وقتها متسع لطبع مطبوعات الأفراد وناهيك بمطبعة حوت من الأدوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجليد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التي تقع ميزانيتها وحدها في ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها في وقت قصير وهذا لا يتيسر إلا بمطبعة متقنة جدًّا.

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسي وطبع الصور والطبع المحفور المجوف والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر الناتيء على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة. وتسمح المطبعة بإعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الأجنبية ولا تطبع من الكتب إلا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون.

هذه جملة ما يقال في مطبعة الأمة ولو جمعت مطابع مصر كلها ما دانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الآستانة وأضفت إليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو أربعمائة وخمسين ألف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانية والمصرية أن تقوم بمثلها وهي لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فتأمل.

مدرسة فرنسا
٢٧

من المعاهد التي استغرقت شطرًا كبيرًا من وقتي في باريز دروس مدرسة فرنسا (كوليج دي فرانس) لسهولة التلقي فيها في كل علم يخطر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الإسلام أيام حضارتنا، وقد جعلوا العلم مباحًا لكل طالب يلقنونه إياه بلا عوض.

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه فرنسيس الأول ملك فرنسا حوالي سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثاني للعبرانية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية إذ ذاك أن قد استهين بها فأوعزت إلى مدرسة اللاهوت أن تتهم مدرسي مدرسة الملك بأنهما يدعوان إلى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما وأضاف إلى المدرسة درسًا في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الإلحاد، وما زال عدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف إليها هنري الثالث درس العربية ونابليون الأول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والإبدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة.

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التي تلقى على الناس مجانًا ٤٩ درسًا يصح أن يقال فيها إنها مجموعة علوم البشر يتولى تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا في البحث فيه شطرًا مهمًا من حياتهم ولم أر في هذه المدرسة أستاذًا تقل سنه عن ستين إلا بعض المعاونين ممن يتجاوزون الأربعين، وينتخبهم المجمع العلمي أو المجامع العلمية الخمسة، وأساتذة المدرسة ويقبض

الأستاذ عشرة آلاف فرنك في السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو في خلالها درسين في كل أسبوع فقط.

أما العلوم التي تلقى على جمهور المستمعين فهي ١- علم الأثقال التحليلي والسماوي. ٢- العلوم الرياضية. ٣- علم الطبيعة والرياضة. ٤- الطبيعة العامة والتجربية. ٥- الكيمياء المعدنية. ٦- الكيمياء العضوية. ٧- الطب. ٨- علم الحياة العامة. ٩- تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعي. ١٠- علم تكوين الجنين. ١١- التشريح العام. ١٢- علم النفس التجريبي. ١٣- تاريخ العلوم العام. ١٤- تاريخ تشريع المقابلة. ١٥- الاقتصاد السياسي. ١٦- الجغرافيا والتاريخ والإحصاء الاقتصادي. ١٧- تاريخ العمل. ١٨- جغرافية فرنسا التاريخية. ١٩- تاريخ الأديان. ٢٠- الفلسفة الاجتماعية. ٢١- علم الاجتماع الإسلامي. ٢٢- علم الجمال وتاريخ الفنون. ٢٣- علم الكتابات والعاديات الرومانية. ٢٤- الكتابات والعاديات اليونانية. ٢٥- الكتابات والعاديات السامية. ٢٦- الآثار المصرية وأصول لغاتها. ٢٧- الآثار الأشورية وأصول لغاتها. ٢٨- الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية وأصول لغاتها. ٢٩- الآداب العربية واللغة العربية. ٣٠- النقود القديمة ونقود القرون الوسطى. ٣١- آداب اللغات الصينية والترية والمنشوية ولغاتها. ٣٢- آداب اللغة السنسكريتية. ٣٣- آداب اللغة اليونانية. ٣٤- فقه اللغة اليونانية. ٣٥- تاريخ آداب اللاتينية. ٣٦- التاريخ الوطني والعاديات الوطنية. ٣٧- الفلسفة الحديثة. ٣٨- اللغة الفرنسوية وآدابها في القرون الوسطى. ٣٩- اللغة الفرنسوية الحديثة وآدابها. ٤٠- أصول اللغات الجرمانية وآدابها. ٤١- لغات أوربا الجنوبية وآدابها. ٤٢- اللغات والآداب السلتية. ٤٣- اللغة السلافية وآدابها. ٤٤- علم النحو المقابل. ٤٥- العادات الأميركية. ٤٦-

الرياضات. ٤٧- تاريخ فن الموسيقى. ٤٨- التاريخ العام والطريقة التاريخية. ٤٩- أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها.

هذه العلوم التي تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو في خلالها الأستاذ زبدة علمه وبحثه ولا يكثر المستمعون إلا في بعض الدروس التي رزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرباء أي غير فرنسويين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وإنكلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد إسبانيا وأميركا ليغترفن من مدارس باريز ويحكمن لغتها الجميلة. فكأن أهل هذه العاصمة زهدن في حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس في الرجل أهله وجيرانه، وإن دروسًا يعد من جملة أساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الأثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجسون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الأئمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق العلم.

وإن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفًا ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف والأخذ بأيدي القائمين عليها وينادي بلسان الحال والمقال على توالي العصور والأجيال إن فرنسا إذا هرمت في سياستها وأخلاقها فهي على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها.

التجارة الباريزية

٢٨

لم يكتف الفرنسويون بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلدًا آخر أو

مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التي هي من أعظم عوامل الارتقاء قد تجسمت في صدر الكبير والصغير من الإفرنج فكان من آثارها ما يبهرنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة.

رأيت روح الاجتماع مستحكمة في أعمال الأوربيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الأمم نتائج الاشتراك جماعة ظهورًا لا ينكره إلا من يكابر حسه ويغش نفسه فأنشأ من كانوا إلى الإنفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلا يدري بهم أحد عدلوا عن سالف طريقتهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الإنكليزية السكسونية.

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فإنك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الأفراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعًا أو كرهًا إلى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة، دخلت كثيرًا من مخازن باريز فكنت أشهد على قلة إلمامي بفن التجارة روح الجماعة مرفوفة عليها وتعدد القوى زائدة في نمائها وحسن الذوق وسلامة الإبداع تتخلل أرجاءها وتزيد بهاءها.

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متجارها ولا تفوقها في ذلك إلا لندرا، وقد بلغ عدد ما في باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء ألفي محل توشك أن تكون كلها لشركات وأعظم

متاجر باريز بل فرنسا تجارة الأطعمة المحضرة والأمتعة والثياب والأزياء وكلها مهمة جدًّا لا بكثرة عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام أعمالها.

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه واللوفر ولافاييت ودوفاييل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطرًا واسعًا من أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم عارفًا بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالمئات ففي مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور وما يلزم لها من الأثاث والخرثي والرياش والأواني والسرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسي وأدوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من أغرب غرائب الغرب. ولا يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يلقي نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة وهو قصر فخيم جدًّا لم أر أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدي الباريزي وفي مخزن دوفاييل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل للألعاب السينماتوغراف يختلف إليها الزائرون باجور معتدلة جدًّا والغرض منها أن يمروا ببعض مخازن ذاك المحل الكبير فيكون مرورهم بها وإلقاء أنظارهم عليها بمثابة إعلان عما فيها من الأعلاق النفيسة وببركة الإعلان يشتري من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء.

ومن الغريب أن هذا المكان الذي لا يشبهه في الفخامة إلا أرقى قصور الملوك والأمم كما قلنا آخذ الآن في توسعة مخازنه لأنها ضاقت به على سعتها وما أدري ما هو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو في سعته

وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف الكريدي ليونيه في القاهرة لا في باريز فإنه هناك العجب العجاب بعينه.

وقرأت في إحصاء أخير إن مخزن لافاييت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر مساهموه أن يزيدوه اثنين وعشرين مليونًا ونصف مليون من الفرنكات فإذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون أصل رأس المال.

ومما هو حري بالنظر في المسائل الاقتصادية أن أهل باريز على شدة كرههم للألمان يبتاعون في بلدهم البضائع الألمانية لرخص أسعارها والتفنن في إبداعها حتى كادت بضائع الألمان تأتي على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها وأصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الألمان وغيرهم ومثل ذلك قل على ما قرأته في إحدى المجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فإن القسم المهم منها بيد الألمان يصرفون على الإنكليز والأميركان سلعهم وحكومة إنكلترا وأميركا مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطيعا بالتعاريف الجمركية ولا بغيرها أن تقيما سدًّا منيعًا دون تسرب البضائع الألمانية إليهم. ولكن ألمانيا أو العنصر الجرماني ومن لف لفه تحارب هذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة.

ذكر الإحصائيون أن مدارس ألمانيا تخرج كل سنة أربعين ألف طالب وبيدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد؟ وهل لهم إلا أن يصرفوا متاجرهم في مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة، فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن في المعارف التجارية وكم طالب أتقن اللغة الألمانية منّا حتى أصبح

يكتب فيها ويترجم منها وإليها كما يكتب الفرنسوية أو الإنكليزية ويترجم بها ومنها.

قال لي أحد علماء الألمان أتدري بأي شيء غلبنا الفرنسيس في حرب السبعين قلت لا أعلم قال غلبناهم لأننا كنا عارفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون ما عندنا وأنا أقول إن اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسوية في الأكثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حربًا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيس مع جيرانهم الألمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فخسروا في مادياتهم ومعنوياتهم.

نعم نتوفر على الأخذ من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن إلى جرمانيا لنتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن إنكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن إيطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الألمانية والإيطالية حظًا من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة أن نعامل الدول كلهن بوئام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ما عندها حتى لا نكون من الجامدين على أمة بعينها والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع.

الإعلان أساس التجارة
٢٩

تقدم في الفصل السالف أن البيوت التجارية في باريز تبيع ما تبيع ببركة الإعلان عن نفسها وهنا مجال لأن أفصل ذاك الكلام المجمل فأقول: كل من زار مدينة أوربية أو أميركية من أبناء هذا الشرق الأقرب يأخذه العجب من وفرة الإعلانات وتفننهم في نشرها والفرنسيس في الإعلانات مقلدون لا مجتهدون قلدوا الأميركان والإنكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين [1] فيربانك وشركاؤه الذي كان ينفق على الإعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانهة أخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقد كان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للإعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف ألف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تبيع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال في السنة لنشر إعلاناتها في الصحف وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم بإعلاناتهم وقد أنفق أحد أصحاب المخازن لإرسال طبعة واحدة من الإعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل في أميركا إلا ويصرف خمسة في المئة من أرباحه على الإعلانات وقد أنفق أحدهم ٧٥٠ ألف ريال للإعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبه فصرف للإعلان عنها مليوني جنيه.

فاشتهار اسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي وترداده في أفواه أرقى الأمم وأوحشها موقوف على كثرة التفنن

---

(١) المقتبس م٢ ص٢١٦.

في الإعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الأميركان: إذا أردت أن تبيع قبعة بريال فإنك تستطيع أن تبيعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لأنك تفهم الناس بأن لاسمك بعض القيمة.

وذكروا [١] أن شركة ولن سي الأميركية وهي شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معملًا رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموعة أرباحها سنة ١٩٠٢: ١٨٧,٥٠٠,٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها مليارًا و٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا أنها توصلت بفضل التفنن في الإعلان عن نفسها إلى أن كادت تلتهم جزءًا عظيمًا آخر من أرباح الشركات الأخرى إن لم تكن التهمتها حتى الآن.

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الإعلانات الإعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحسة في الصفحة السابعة أو الثامنة أي الأخيرة وإعلانات في شبك ودس الإعلانات في أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والأزياء وإدماجها في المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي أماكن النزهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجلات الحوافل والتراموای والسكك الحديدية تحت الأرض وفوق الأرض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الأماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الإعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارومتر وكتب التقاويم وورق النشاف

(١) كتاب الإعلان الرابح المعقول لارين J.Areen: La pulieie lueartive et raisonnee

وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها. وتبدو في المساء بألوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره.

ومن غريب تفننهم في الإعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية في ليفربول أخذ يعلن في جرائدها بأنه يقدم مفتاحًا بلا ثمن لكل من يضيع مفتاح بابه أو خزانته فبهذه الواسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلًا كاملًا ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلا ثمن ولكن النصح يفعل في أكثرهم. واخترع أحد البدالين من بائعي المأكولات المحضرة في لندرا طريقة للإعلان عن محله بأن اغتنم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله أدخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالإعلان عن نفسه. ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات في بلتيمور في أميركا أعلن في الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى إليها وأعطاها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة: (كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل مستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين) ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل.

والأمثلة على ذلك كثيرة ويكفي إلقاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة لتعرف مبلغ تفنن الغربيين في الإعلان والأساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدي وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسي والأدبي والعلمي وقد جعل الإنكليز السكسونيون للإعلانات قواعد حتى صارت علمًا من العلوم لا يبرز فيه إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملمًّا

بالاقتصاد السياسي وعلم النفس ومحيطًا بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذاهبة بالتفنن والأدب والخطابة حاسبًا كاتبًا مقنعًا يعرف التفنن في المسائل الحاضرة أو يحسن علم الحال.

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا بأجور إعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة (لادي هوم جورنال) بلغت ألف جنيه ويؤخذ من إحصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن في الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع ما يطبع من أعدادها من كل نسخة ١١٤,٢٩٩,٣٣٤ ومجموعة ما تطبعه في السنة ٨,١٦٨,١٤٨,٧٤٩ وبلغ مجموع إيرادها تلك السنة ٨٧٨,٩٤٨,٢٥٠ فرنكًا منها ٤٧٩,٣٠٥,٦٣٥ فرنكًا من أجور الإعلانات أي ٥٤٠٥ في المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخًا خاصة بنشر الإعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما يطبع غير الإعلانات وتوزع مجانًا: ويصرف أحد بيوت الثياب في فيلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة أجرة صفحة واحدة من إحدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها لروكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد. ومن كتاب الإعلانات من يرزق ألف ليرة في السنة.

ومن الإعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون إعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤون من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضًا وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لأن ثلاثة أرباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لابتياع ما يشاؤون وبهذه الواسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم في أعمالهم وناهيك بما في هذه

الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشاري وفي شيكاغو وحدها تبيع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة في طلب ما يلزم أصحابها. وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالي الولايات المتحدة يبتاعون حاجياتهم على هذه الكيفية.

وإن لأحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبنًا يبلغون مليوني نسمة يتناول منهم في السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل إلى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قمسه وكل طلب مع ما يضارعه وتجعل في لوالب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وترسل في أسرع ما يمكن إلى البيوت التي تقدم للمحل طلباته وهي لا تقل عن ٧٧ ألف نوع فتأتي كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنيًا عن الأيدي الكثيرة على أن محلًا واحدًا من هذه المحال التجارية التي تبيع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطلبون إلى محله وإلى غيره من المحال التي على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته.

وعلى الجملة فإنك لا ترى في ديار الغرب محلًا تجاريًا أو معملًا أو مشتغلًا بالفنون الجميلة بل ولا عالمًا ولا كاتبًا ولا صانعًا إلا وينفق جزءًا من ماله على الإعلانات ليربح المئة مئات وللإعلان يد طولى في عامة الأعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب في هذا السبيل فيعلن خصوصًا عن أصقاعه الجميلة ليجذب السياح إليها ويربح منهم مئات الألوف من الليرات كما فعلت سويسرا واغتنت بعد

فقرها بكثرة تشويق العالم إلى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأميركا مثل مدينة دالاس في ولاية التكساس في الولايات المتحدة فإن أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فأزمع بعضهم أن يؤسسوا ناديًا سموه نادي المئة والخمسين ألفًا أي مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ :٨٣ ألفًا وتوصلوا إلى أن قال الرئيس روزفلت في خطاب له أن شمالي التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب ويحق لها ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة.

نعم إن الإعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الأسباب المعقولة المشروعة وأثره في الإعلان عن الأشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر بتحدث الناس في أمره ومن آخر خمل ذكره لأنه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدر به أحد فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين.

دور التمثيل والأنس والاجتماع في باريز
٣٠

إن ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جدًّا في الديار المصرية والشامية زهدني في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف إلى دار تمثيل إلا متكارهًا وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائه وانقطاع الرغبة فيه وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعهده العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة أيام عزتها ولذلك قلمَّا مال أبناء العرب إليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها.

ولما حللت باريز كان من أوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة التمثيل في الغرب والسر في توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل، وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونهما وكذلك التمثيل لا حياة روحية بدون الاختلاف إلى دوره ولو مرة في الشهر إن لم يكن مرة أو مرتين في الأسبوع.

والتمثيل في باريز من أعظم ملاهيها وقل أن تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنفق من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغًا تستعين به على تحسين حالها فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتياتر والفرنسوية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطي الأوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وتعطي الأوديون ١٠٠ ألف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت إلى أشهرها مثل الأوبرا والتياترو الفرنسوية والأوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها.

وكنت كلمًا ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لي سر تغالي الغربيين بالتمثيل وأنه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح فلا عجب إذا عدوه من أكبر العوامل في نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم. وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته.

أما دور التمثيل فهي قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يعرض فيها من المشاهد والمناظر. وكفى بأن دار الأوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر، وأقل دار تمثيل

تساوي عشرات الألوف وبعضها مئات الألوف من الليرات وأن مما يبهج جوق الموسيقى في الأوبرا وقد حزرته بمائتي شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وما أظن جمهرته تقل عن خمسمائة.

وإذا عرفت أن الأوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أي ١٢٨ ألفًا عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفًا إلى ٣٠ ألفًا. وعن كل ليلة يغني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا أن نستقل إعانة الحكومة للأوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها.

ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي إلى مسمعي أصوات الممثلين والممثلات. وتنفتق ألسنتم بكلمات الحكمة والأدب. ويشخصون الفضيلة في أبهى مظاهرها كأنك تراها فلا أتمالك من توقير الممثلين والممثلات وأكبار فائدة التمثيل المدارس لتنشئة الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابًا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة.

حضرت رواية (مثل الأوراق) في الأوديون ورواية (الباريكاد) لبول بورجه في الفودفيل ورواية (جان دارك) في تياترو ساره برنارد. ورواية الجندي الصغير في الشاتليه فكان يحيل لي وأنا أسمع وأرى أن الأمر واقعي. وأن هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت إلى جمال الوجوه إلى جمال الكلام إلى جمال الهندام إلى جمال المكان إلى جمال النظار. وأقل هذا مما يستهوي النفس فلا تدري أي شيء ترى ولا أي فائدة نعي.

وما أظن أكبر متنطع لو حضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمى يستطيع أن يعيب شيئًا ممَّا يشهد. واي عين لا تقع على ساره برنادر أشهر ممثلة فرنسوية وهي في الخاسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة عشة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأي أذن تسمع الحكمة في رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم (إن الطبقات الاجتماعية كالأمم يضيع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه) ولا يفكر طويلًا.

ولقد رايت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئًا من الخلاعة مثل (مولن روج) إن الأدب يغلب على السامعين والناظرين. وإن قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى إلا من يغض الطرف حياءً وأدبًا. والغالب أن النساء يلبسن لليالي التمثيل أجمل ثيابهن وأزيائهن كأنهن في بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن. وقلمَّا تراهن في الشوارع إلا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه.

أما سائر أماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جدًا في باريز وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب، وموسيقى الإفرنج وعزفهم وزفتهم يستحسنها الشرقي مع طول الألفة لها والأنسة بها. ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محرومًا من لذائذ الدنيا ساقطًا من رسوم الهيئة الاجتماعية. ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيرًا ولا يرى فيها حرجًا ولا نكيرًا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

من باريز إلى الآستانة

٣١

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهي من الطعام ووصلت السير بالسري وعمل الليل بعمل النهار، ورأيت العملة في حاناتهم ومطاعمهم وواكت الأغنياء في مقاصفهم وشاركتهم في نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستطلعًا طلع خلق جاريًا من الاختبار فيه على عرق فكانت عيني تمل النظر وأذني تسأم السماع وذهني يتأفف من التفكر وقلبي يتخوف كثرة الوعي. ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما أماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجاري العاصمة تحت الارض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة كقصور الأحياء ومقطعة إلى طرق ومناطق.

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشئوم الذي طغى على السدود والسكور فدكها وبثقها وأودى بالأموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر إلى الحدود الألمانية فكان نهر الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والأودية ولم يصل القطار إلى نانسي على الحدود. ويبلغ ستاسبورغ في أرض الألمان وقاعدة الإلزاس إلا وقد انقلبت تلك الأمطار ثلوجًا وذاك الهدير سكونًا. ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الأبيض الناصع وبلغنا مونبخ عاصمة مملكة بافيرا الألمانية صباح الغد، فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت أن لا أضيع الفرصة

فأخذت أطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أر منها إلا واجهات الأبنية ورؤوسها وهنا تمثل لي النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا التفت عن يميني وشمالي فلا أسمع إلا الألمانية التي لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لي في القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالإفرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى إذا عدت آخذ مكاني من القطار اجتاز بنا بعد قليل في أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثاني إلى فينا عاصمة النمسا.

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول أنني يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفتي بلسان أهلها واطلاعي على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنني داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطرًا من الأقطار العربية في غربي آسيا أو شمالي إفريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذي يزور بلدًا لا يعرف لغة أهله كالأصم والأعمى وهذا ما عافني في الأكثر عن زيارة إنكلترا وألمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفي بحضارة هاتين الأمتين لأنني أستصعب أن أرى غيري بعيون غير عيني وآذان غير أذني.

قضيت في فينا يومين استرحت فيهما من وعثاء السفر واطلعت على بعض معاهدها إلا أن الثلوج التي بلغت نحو ذراع عاقتني عن إتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصدًا بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست في الليل ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن في خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا إلى قطارنا حتى تخطينا من الغد أرض الإمبراطورية إلى أرض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل أمام خيالي تاريخ هذه البلاد، وبينا كنت أذكر وقائع العثمانيين في سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب. وأذكر تلك الدماء العزيزة التي

أهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من أول محطة في بلاد الصرب فتاتان صربيتان في الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سيماء الحشمة والأدب فسألت الرفيقة رفيقتها أن تغني شيئًا فالتفتت إلينا. وكان معنا رفيق بلغاري يعرف التركية فاستأذن في ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفتاة تغني بنغمة على إيقاع غريب فأصت له نفسي بالدموع خصوصًا وقد جاءها الغناء وهي تفكر فيما أصابنا في هذه الديار من الشقاء. فعجب رفيقي البلغاري وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطني الصربي قلت لم أفهم، وإنما تأثرت من النغمة ومن أمور أخرى فسألني ما هي فلم يسعني إلا أن بحت له بذات نفسي. ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثماني وسماؤها عثماني. وأكثر عاداتها عثمانية عذرني على شعوري بما فيه من فضل أدب.

ووقف القطار ساعتين في بلغراد عاصمة الصرب فاغتنمت الوقت لزيارتها وهي نظيفة لطيفة صغيرة حرية بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التي يقطعها القطار طولًا بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيًا عاصمة بلغاريا وهي أجمل وأضخم منظمة على مثال المدن الأوربية ويغلب الأدب أهلها وكثير منهم يعرفون التركية. وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها وحدائقها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهي أقرب إلى أن تكون مدينة شرقية منها إلى أن تكون مدينة غربية ويقال إنها ترتقي سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الأوربيون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الألفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها عضوًا أثريًا يذكرهم بأيام حكم الأتراك عليهم.

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا إلى جسر مصطفى باشا في ولاية أدرنة أول التخوم العثمانية عند العشاء وهناك

جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون ويبرقون ويرعدون يحكمون على هذا بالجزاء النقدي ويعفون عن ذاك ويطلبون من هذا جوازًا ومن الثاني أن ينبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الأعلى إلى الأدنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط باديًا عليها في كل شيء وإدارتها هي تلك الإدارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها وما زلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الآستانة عاصمة سلطنتنا العثمانية.

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٢

صقع جميل، وسواحل بديعة ومناظر رائقة، وسماء صافية، ورفاهية مفرطة، وأنس دائم، فمن المضيق إلى الخليج، إلى جزر البحر، إلى متنزهات منقطعة القرين إلى غابات ملتفة، وجبال مكسوة، وعيون خرارة. وكل ذلك بهجة النفس والخاطر وهذه هي الآستانة وأحياؤها وضاحيتها.

أما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لا نظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للمقيم والنازل وغاية ما فيها من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشأوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا وبعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء.

والآستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية ويغلب على الأتراك الاتكال لأنهم ما زالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد. أكثر من

بقية العناصر ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم ولذلك قلمّا ترى بينهم تاجرًا معتبرًا أو زارعًا كبيرًا أو ماليًا دراكة يعيشون كلهم إلا المرتزقة والباعة عالة على الأمة لايعرفون غير تقلد الوظائف الإدارية والعلمية والقلمية والعسكرية.

فالآستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المجسم يعيش أهلها كالحلمة الطفيلية على عنق الولايات، ولكن خربت ولاية أو لواء أو قضاء ليعمر بها أحدهم مصيفًا له على ضفاف الخليج أو في جزيرة الأمراء ويقتني من الجواري والسراري والعبيد بقدر ما تطيب له نفسه.

ولأهل الآستانة فضل أدب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملك بأقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفي باطنه على الأغلب يسرلك غير ذلك وهذا الخلق عام في عمال النظارات والإدارات الكبرى ولولا ذلك ما انصرفت وجوه أرباب الأشغال من سكان الولايات إلى الآستانة يقصدونها لكشف ظلامة ونيل رتبة ومرتبة وراتب.

صرفت في هذه العاصمة عشرين يومًا قابلت في خلالها كثيرًا من أهل العلم والسياسة وكنت اتكاره في الاختلاف إلى المعاهد والناس إذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التي رأيت فيها من كل شيء أحسنه ومن العالم أرقاهم ولطالما اسودت عاصمة بلادي في عيني ووددت على الأقل لو كتب لي أن أزورها قبل الرحيل إلى الغرب وإمتاع النظر والحواس بحضارته البهجة حتى لا أرى الانحطاط بعد الرقي ولا الظلام بعد النور.

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية مناي من زيارة الآستانة مجلسنا النيابي زرته خمس مرات وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين

نائبًا من جميع عناصر الدولة وأصقاعها تجد فيهم ذا العمامة البيضاء أو الخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة أرباعهم من لابسي الطرابيش ولقد سمعت من أرباب العمائم مناقشات راقية لم أكد أسمعها إلا من النواب الذين صرفوا شطرًا من أعمارهم في أوربا يتعلمون ويتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها فإن أرباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل في كل طائفة. خصوصًا ومجلسنا ما برح طفلًا ويرجى أن يكون في الانتخابات المقبلة أرقى ممَّا هو الآن.

رأيت النظام قليلًا في المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر في قانون كذا وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل أن يكمله ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى القانون أو اللائحة الأولى وذلك لأنهم وسدوا رئاسته لرئيس اشتهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب. وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد إلى أناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى إذا جاء الآن دور العمل أبانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم وا لعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلًا معنويًا لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكأس أو السلام على الناس.

وكل أولياء الأمر إذا حدثتهم في نقصنا والسعي لإصلاحنا شاركوك في حديثك وربما تظاهروا بأكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك فإذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه إن لم نقل يزيدون الحال أعضالًا وأشكالًا. فهم فلاسفة قول لا عملة عمل وجربذتهم في أساليب لهم يتقنونها لا في ظلامة يرفعونها وولاية يرقونها وإصلاح يدخلونه.

ولا أغالي إذا قلت إن عمال الآستانة الآن صورة من صور العهد الحميدي إلا أنهم يدعون الحرية وهم مضطرون إلى الإسراع بمصالح العباد بأقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه في العهد الماضي أما الإصلاح الحقيقي فأظن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفي من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على أدب النفس وأدب الدرس وينشأ بعيدًا عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب واللحم والدم والعظم.

المتحف السلطاني [1]

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا أمام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي إلى ساحة كبيرة بني على أطرافها رواق ذو قباب أشبه ببنيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والأمراء للمذاكرة والمشاورة وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متواريًا عن الأعين.

ثم خرجنا من هذه الغرفة وصعدنا إلى قصر شامخ يصعد إليه بسلم من رخام جدرانه مزينة بالقيشاني بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هارون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر بني على الطرز الشرقي بشكل مثمن منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضيقة

---

(١)لم تتيسر لنا زيارة هذا المتحف فعهدنا إلى صديقنا شاكر بك الحنبلي أن يزوره عنا فكتب لنا هذا الفصل في وصفه ففعل وأنا أشكره لفضله وعنايته.

ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرة وقسم من البوسفور وأحياء القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقة الشريفة) وفيها الرداء النبوي وبقية المخلفات والآثار النبوية.

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصرًا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعًا وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعًا يقال إنها من بناء السلطان مصطفى الرابع، وفي الجهة القبلية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ويسمونه (سلطان مجيد كوشكي) مبني على الطراز الإيطالي وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر في هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى إنك تظن النافذة مفتوحة لا بلور فيها لشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخولها دائرة الخرقة الشريفة

ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد في هذه الزيارة وهنا لا يتمالك الإنسان من الدهشة عندما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التي لا تقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية دخلنا هذه الدائرة وهي مؤلفة من ثلاث غرف تحتية وثلاث أخرى فوقية وأول شيء وقع نظرنا عليه تخت كسرى الذي غنمه السلطان سليم الأول من الشاه إسماعيل الصفوي في حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب في وسط المتحف يوحي إلى الرائي بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سليم الأول ممتطيًا جواده مستلًّا سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الأكاسرة ويشتبك مع صاحب العجم في حرب عوان فيهزم جيشه ويستولي على عرشه وخزائنه.

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يصعد إليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد ممًّا يبهر الناظر.

شاهدنا في هذا المتحف سيف قسطنطين بالثوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية. وشاهدنا مهد السلطان محمود الثاني وهو على شكل السرر التي تصنع في دمشق من الخشب مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالأحجار الكريمة. وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد الأولى بقدر جوزة الهند وزنها ثمانمائة درهم والثانية على شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك أوان من النجف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطي من الصيني ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة ممَّا لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة. وإلى جانبيها دُوي قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والأخرى مرصعة بالياقوت والماس في وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالأحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الأرضية.

ومما أمتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالأحجار الثمينة، رأينا أغطية مناضد من الأطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماسٍ حجرته الوسطى بقدر البيضة ويقال إن هذه الحجرة هي رابع حجرة في الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد أمتعنا الطرف برسم السلطان عبد العزيز مجسمًا معمولًا من النحاس الأصفر ممتطيًا جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم إسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الأول عاهل الألمان

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الأصفر تدور فيها الأرض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يدار باليد كل ذلك بل أكثره موضوع في خزائن من البلور لا تمسه الأيدي رأينا مسميات لا نعرف أسماءها ممَّا يحار لها العقل ويدهش لها الفكر وأنى لنا بابن المعتز يقف في هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلي والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة في هذا الكنز الكبير ليس شيء أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها اسمًا فهو إذا أراد وصفها عصته الألفاظ وضاقت به التعابير. رأينا في هذا المتحف شيئًا كثيرًا كله من النادر الغريب الذي لا يوجد إلا في خزائن الملوك ولو أردنا أن نصف كل ما رأيناه لطال بنا البحث واحتجنا إلى سفر كبير ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الأدبية.

فمن ذلك درع مرصعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضًا مكتوب عليهما هذه العبارة (هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثماني وأربعين هجرية) وتخت معمول من الباغا مرصع بالفيروز والزمرد وهو تخت السلطان أحمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفي وسطه فراش من الأطلس. مرصع باللآلئ بنقوش لطيفة يصعد إليه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق أهدتها فيكتوريا ملكة الإنكليز للسطان عبد العزيز ومكتب (قنصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الأحجار الكريمة أهدتها كاترينة قيصرة الروس للوزير الأعظم محمد باشا البلطه جي يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من أثمن ما شاهدناه في هذه الخزينة لما فيه من الأحجار الكريمة وحلل ملوك بني عثمان

وعمائهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل إنسان بالهيئة التي كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغوري عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من أصبعه يوم استشهاده، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوربا للسلاطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية.

وفي الجملة فإن هذه الخزينة هي أعظم خزينة على وجه الارض لأنها جمعت بين خزائن الأكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الإسلام وكانت في الدور القديم تجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لأوقات الحروب، وتسمى (أيج خزينة) أي الخزينة الداخلية يروى أن السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية ويقدر ما صرفه في ذلك الوقت باثني عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان.

أما بناء الدائرة فليس من الأبنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جدًا على طرز التكايا وليس فيه ما يستحق الذكر سوى ما ذكرناه آنفًا من القصور الحديثة التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح وإنما هي تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف في فنائها أو في أحد قصورها يمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره في غابرها وحاضرها ويهتز طربًا وتتجلى له عظمة آل عثمان وسلطانهم، ويرى الفاتح يسوق أسطوله على اليابسة على صورة لم يسبق لها نظير، ويفتح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنهم كما افتتح أجداده بلاد الأكاسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الأمير الذي امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش.

وفي الحقيقة إن هذا البناء اللطيف من أجمل ما يتصوره الفكر، وألطف ما تشعر به النفوس فهو يحتاج إلى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتب مجيد يصف ما تشعر به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية، هذا ولا يسعني هنا إلا أن أثني الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما أبداه من المجاملة والملاطفة في زيارتنا هذه، كما أني أشكر للأستاذ الزهراوي وعبد العزيز أفندي قولجه لي عنايتهما في هذه الزيارة التي هي من أثمن الزيارات التاريخية.

المتحف العثماني (١)

٣٤

ليس بين معاهد الآستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد، ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الأوربيين وأحسنا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة، ولا غرو فقد ضم عاديات الأمم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمصريين والحتيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتماثيل وأوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيد الله أركانها.

ومن أجمل ما يشاهد فيه مسلتان عثروا على الأولى في صامسون والأخرى في إزنيق واسد وجد في هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه إلى أربعة قرون ق.م وبجانبه ناووس روماني استخرج من دراج

(١) اعتمدنا على كتاب (موزهء همايون عثماني يه مخصوص رهنما أثر وحيد).

في ولاية أشقودرة ومن ألطف عاديات هذه الدار النواويس التي عثر عليها في صيداء وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووسًا ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس إسكندر المقدوني لأن الإسكندر توفي في العراق وجيء به إلى سورية على أن روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه. ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقي، وناووس الإسكندر من أغرب ما نقش الناقشون تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة في قاعات متحفنا أهل العاديات والآثار ويبذلون لنا لو أردنا في الحصول عليها مئات الألوف من النضار ونواويس المتحف البريطاني واللوفر ليست بأعظم منها.

ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم (صدراب) أحد ولاة فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة. ومنه يستدل على ما وصلت إليه هذه الصناعة من تلوين الرخام في ايونيا في الساحل الغربي من بلاد الأناضول من الارتقاء في القرن الخامس ق.م وهناك تمثال ثماني عشرة امراة من أعجب ما نقش الناقشون جعلن على أشكال منوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة. وبالقرب منهن ١٩ قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت.

ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا أي البلاد المعروفة اليوم بسواحل اضالية من أعمال قونية وهو رومي الصنعة محلي الأسلوب، وعلى مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لأبي الهول عثر عليهما في مدينة أورله أو ميناء قلازومن من أزمير.

قلنا إن الناووس المعروف بناووس الإسكندر هو من أبدع ما صنعت الأيدي، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأميركا يعجبون بصنعه، وفيه

كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة، عليها وقائع الإسكندر المشهورة، ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفي المصري، ومنها بالخط الفينيقي.

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة ما يرجح أنه رسم الحرب التي نشبت بين الإسكندر في أيسوس أو أربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ق.م

ومما يقع نظرك عليه في القاعة الرابعة بعض عاديات حيثية مثل أسود وجدت في زنجيرلي وقصورها وتمثال يمثل أحد ملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لأبي الهول وتمثال من الحجر الأسود اسمه (أسد مرعش) كتبت عليه كتابات حيثية وهو أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن.

والحيثيون أمم مختلفة كانت في القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل في جبال الأكراد في سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهر قيزل أيرمق وكديز وأصولهم كثيرة متباينة بل إن البلاد التي كانوا مستولين عليها هي كما يقول المحققون في شمالي سورية أي في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الأكبر إلى جبال طوروس، وقد أنشأوا على الفرات قلعة قارغاميش المعروفة الآن بجرابلس وأخذوا يهددون مدينة نينوي القديمة (الموصل) إلى أواخر القرن الثامن ق.م وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق.م وقد استولى على هذه القلعة صاراغون ملك أشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها محي اسم الحيثيين من عالم الوجود على أن تاريخ هذه الأمة مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شيء يدل على عظمتها لأن خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى أن يكتشف كما اكتشف الخط

المصري القديم بواسطة حجر وجد في رشيد كتب بالخط المصري مترجمًا إلى اليونانية.

ومن العاديات المهمة في المتحف الأواني الزجاجية والخزفية وأحسن الزجاج ما جاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عثر فيه عليها. ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها في استانكوي أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومي ويرد تاريخها إلى الدور اليوناني وآثار معبد أشمرن في صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بلاد الأناضول وأكثرها يوناني. وفي قاعة أخرى أوان وجدت بالقرب من صور ويج في ولاية مناستر في بعض المدافن وأوان في ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ما عثر عليه في لابسكي من أعمال كليبولي.

ومن الآثار المهمة في القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين ومنها ما عثروا عليه في جوار القدر ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق.م وما عثر عليه في بحيرة حمص في الجزيرة التي حفر فيها من القدور والأسرجة وقد اعتبروا القسم الأعظم منها من عهد الزمن النحاسي. وفيه قطعتان من المرمر وجدتا بالقرب من المسجد الأقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليمان وإلا فيعاقبون بالموت. وهناك حجر كلسي عثروا عليه في القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الأرض في قناة حفرت في الصخور من نبع جيحون إلى سور القدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان وينسبونه إلى الملك حزقيا أحد من ورد ذكرهم في سفر الملوك من التوراة.

وليست العاديات المصرية كثيرة في المتحف ومنها صور أبي الهول وفي ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والآشورية وأكثرها ألواح وأوان وأكواب وعظام كتبت بالخط المسماري.

ومنها ناووس من الخزف يرد إلى عهد بابل أي إلى نحو ٦٠٠ سنة ق.م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب في وقائعه مع السيتيين. ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من أعمال بغداد ومنها ما وجد في تللو من أعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه في سيبارا أوابي الحبة من أعمال الجزيرة.

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحميرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صناعهم وإن كانت تشبه الصناعات اليونانية لأن مملكة تدمر وإن كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لأن الآشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الإسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وإن كانت لغتها الآرامية أو السريانية، أما الآثار الحميرية فهي آثار أهل سبأ ومعين في الجوف وعاصمة سبأ مأرب وأهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حمير اليمانية إنما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين واستدلوا من ذلك على أن الخط الحميري يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وإبدال كثير.

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هركول وآفروديت وأوان خزفية ونذور، ومنها حلي أشورية وفينيقية وحلي وجواهر وأقراط وأساور وقلائد وجدت في مدينة ترواده أي في محل اسمه الآن حصارلق

من أعمال لواء بيغا شمالي جون أدرميد وكان اسمه في القديم إيدا وهو بين جبل قار وهللسبون أي بين جناق قلعة وبحر الأرخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة ومنها ما وجدوه في ترال من أزمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وآخر في برغمة وفي نابلس.

هذه جملة أشرنا بها إلى ما حواه المتحف وله قسم آخر إسلامي جعلوه في قصر الصيني أمام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها إلى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربي. وقصر الصيني هذا مما أمر بإنشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار أيامه إلا أثر ضئيل جدًّا مثل الآثار التي يحويها وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط أي القرون الخمسة الأخيرة ومنها بعض الصيني الذي كان يعمل في دمشق ورودس وأزنيق وكوتاهية وبعض الكاشاني المكتب بالكوفي ومنها ما عثر عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما نعمل الطنافس البديعة في معامل دمشق وتوقاد وأصفهان وغيرها.

ومن عاديات قصر الصيني درفنان من صنع قره مان وقونية ومنها دكات وقماقم وطنافس ومصابيح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر من صنع الرها (أورفة) وأوان خزفية وجدت في الرقة من أعمال حلب وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك وأصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال إنها أموية عثر عليها في القدس وبعض نقوش حيوانات رسمت على الزجاج من الأدوار التركمانية والأرتقية وملوك بني آرتق من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب إلى سنة ٨١١هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة إلى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضوه عود طرب أو طنبورة وهي من صنع عصور الظلمة أيضًا.

وبالجملة فإن العاديات القديمة التي جعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها لما قاسته من أهاويل الدهر أما العاديات التركية والعربية الأخيرة فتافهة على الأكثر. وفي الآستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الإنكشارية مجسمة من الجبس صنع النمسا وهم يلبسون ألبستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية.

خطابنا[1] في التربية الأوربية

٣٥

سادتي الإخوان الأعزة:

أوعز إلى أعضاء هذا المنتدى الكريم أن أحدثكم بما رأيت في رحلتي الأخيرة إلى أوربا فلم تسعني مخالفتهم لأن الطلاب أعزة وتبادل الأفكار معهم من أشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لا يتسع وقتي الآن للإحاطة بأطرافه كله ولا أوقات الحضور الكرام إلى وعيه وسماعه ولذلك أقتصر منه في هذه الليلة على الإشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الأوربية في أماكنها واستطلاع طلعها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة. ولذا استميح عفوكم إذا لحظتم في أقوالي شيئًا ممّا لم يعتد بعضكم سماعه فأنا أقص عليكم شعوري ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء.

(١) ألقيناه في المنتدى الأدبي في الأستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية.

أول ما يقع عليه نظر الداخل إلى أرض أوربية ذاك الانتظام الغريب في مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لأول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم في عينه وذهنه ما سعت إليه ولا تزال تسعى تلك الأمم الراقية من الأخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكمل العلمي والنشوء الاجتماعي والعملي.

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم في نظر السائح كلمَّا طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والدساكر والحواضر والقواعد. وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه إلى مجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلي وما راء كمن سمع.

ماذا أذكر لكم أيها الإخوان من حال أوربا ومدنية الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل؟ أأحدثكم بصناعاتها التي تبهر النفس؟ أو باتساع متاجرها التي لا يحصيها العد؟ أو بارتقاء زراعتها التي تنادي بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية؟ أم أذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية أم المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والأنس؟

كل هذه المشاهد كنت أختلف إليها في أوقاتها وأجتمع برجال العلم والأدب والسياسة منذ الصباح إلى ما بعد منتصف الليل ونفسي تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك على مشاعري فلا أستطيع التفريق في الحسنات كأنني ابتليت بداء الاستحسان لا تقع عيني على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصور ذهني أقل شيء إلا وأخذ به جملة وتغرق النفس في استحسانه وتحار في وصفه.

ولقد كنت عزمت أن أدون في مفكرتي ما يعرض لي من المظاهر والمناظر ويتردد في صدري من الأفكار والخواطر وأحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت على الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت إنك يا هذا تكتفي متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق في ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية.

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصدق فيّ قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

لولا أن اليأس من أعظم الأمراض في الأفراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاراة الغرب ولولا أنني أعتقد بأن النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وأن الأجسام تتكون من الذرات وأن من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بأن قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتثاقلة البطيئة التي نشهدها أمر متعذر إلا بعد قرون إن كتبت له الحياة ولكن أمامي مثال الدولة اليابانية مملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية في ثلاثين سنة وفاقت من كانت تعمل منذ ثلثمائة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة.

نعم إن اليأس يجب أن لا يتطرق إلينا، وإن كنا ويا للأسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده أو جاهل مع عالم.

حضرت دروسًا كثيرة في الكوليج دي فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء أربعين عالمًا من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل أسبوع في العلم الذي أخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد فتدل على كرم الفرنسويين في العلم وحضرت دروسًا في مدارس أخرى ووفقت إلى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم أر في أكثرها إلا تعصبًا على الشرق وغمطًا لحقوقه.

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت إليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم أبنائه عليها ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها أو تبكون.

فالمحاضرة الأولى كانت في قاعة السوربون الكبرى أي كلية باريز، وهي المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسويين فأقامت جمعية آسيا الفرنسوية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو إلى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسوي ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو أستاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسوية في الشرق الأقصى، شرح في محاضرته ما لاقاه في رحلته التي بدأت في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت ف الصيف الماضي وأتى على ما وفق إليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال إن التعصب انتشر هناك بانتشار الإسلام في القرن الحادي عشر للمسيح فكان من ذاك التعصب أن أتى على الآثار بجملتها وقد قرّع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقريع، أما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها

الغربيون إلى آسيا وإفريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديمًا كان الشاعر يقول (السيف أصدق أنباء من الكتب) فإذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل إليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف أما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد أولًا. ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد ادعى بليو صاحب البعثة. والغالب أنه على حق فيما ادعاه أن ما وفق إلى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأمة في باريز بألوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما أغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فأصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في أوربا ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية، ولا سيما في مقاطعات قاشار وأرومشي البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الإسلامي إلى هناك، وأنه رأى جميع أهل التركستان من أهل الإسلام، وإذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة إذ كانت تعبث بها أيدي المتعصبين منهم.

وقال إنه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه إلى ارتياد تلك الأصقاع أناس من الألمان والإنكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق إلى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالًا بوذيًا صغيرًا بين الصناعة اليونانية و البوذية حري بأن يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة والغربية وظفر في قاشار تحت أنقاض أحد المعابد في طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع في تلك المغاور ووصف تلك البقاع به لا شجر فيها ولا عشب مع أنك تمشي فيها ألوفًا من الكيلو مترات اللهم إلا في بعض الواحات، وأكثر تلك

الأصقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل إلى الاربعين درجة، وفي الشتاء إلى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الحبر يجمد في أيدي اعضاء البعثة متى أرادوا أن يقيدوا آثار بعثتهم وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغني المتحف الطبيعي وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بأنفسهم إلى تلك الأصقاع النائية.

هذه المحاضرة الأولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفي وسمعت بها مهانة أمتي بأذني. والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسويين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية فهو أول أخصائي في سياسة الشرق، ولا سيما دولتنا يقلب القلم بين أصبعه كما تشاء حكومته. حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحية، ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا إلى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من العجم أبلغ منه لم يتمتم ولم يعطس ولم يكرر، وقلمًا رأيت إنسانًا درس موضوعه وأعد له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبي بتحامله على هذه الدولة أكثر من عجبي بذلاقة لسانه، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال إن فرنسا صاحبة الفكر الأول في الحروب الصليبية قد أتى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية أيام قوتها لتستخدمها لأغراضها وقد جنى الفرنسيس ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم تر خيرًا لها من

تلك المخالفة نزعت يدها من يد حليفتها ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها إلى القريم ليحاربوا مع الإنكليز والعثمانيين جيوش الروس، لأن مصلحتها اقتضت ذلك إذ ذاك وأفاض في نشاة الامتيازات الأجنبية في البلاد المصرية والعثمانية، وقال إن فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وأن لها اليد الطولى في المسألة الشرقية أي استقلال بلاد البلقان واليونان. وأنها لا تقصر كل حين في بتر عضو من أعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى.

فيا إخواني ويا سادتي أيسمع عثماني هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمدًا وحسرة وتسود الدنيا في عينيه؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب؟

نحن يا قوم لا نحفظ كياننا ولا نحتفظ بلغتنا وديننا وآدابنا إلا إذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاتلوننا به، وأعني به سيف العلم، نحن يقضى علينا أن نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمنًا لتستفيد ونعرف الطرق التي يجب علينا سلوكها.

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس أوربا ولا سيما في مدارس باريز فقدرت عددهم قليلًا جدًا بالنسبة لمجموع هذه الأمة. وإني لأخجل أن أقول لكم إن عدد الطلبة البلغاريين في روسيا وألمانيا والنمسا وفرنسا والبلجيك وإنكلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين وإياكم أن تظنوا أن جميع طلبة الأجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل إن لهمم الأفراد شأنًا عظيمًا في هذا الباب وكثيرًا ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه إلا وقد أتى على آخر فلس مما عنده وهو مغتبط بما صنع لأنه

أحرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمته وبلاده.

نحن مقصرون كل القصور في إرسال أبنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون درر العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب في هذا المعنى أكثر العثمانيين قصورًا ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سورية في أوربا على نفقة الحكومة أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم إلى ثلاثين طالبًا أكثرهم يدرسون على نفقتهم فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين هذا من سورية أرقى البلاد العربية وما أظن أحدًا من أبناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الأقاليم العربية يدرس في مدارس أوروبا فيكون هؤلاء الثلاثون طالبًا لخمسة عشر مليونًا من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما أعظم ذلك من قصور وتقصير.

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وجمودهم كاد يصدق به علينا حكم الغريب وإني لأرجو أن لا تكون أقوالنا أكثر من أفعالنا فإن الكلام لا أثر له بقدر الفعل، نريد معاشر العرب أن نجاري الأمم الراقية بل سائر العناصر من إخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الأقل في مضمار التعلم.

نتناغى بالوطنية ونندب حظ اللغة العربية ونحن أبناؤها الذين نعقها ولا نتعلمها. أليس ممَّا يزعج أن يخاطب العربي أباه وأمه وأخاه وصديقه بغير لغته الأصلية؟ يعمل ذلك ليتمرن على تثقف غير لغته بل لأنه لا يعرف أن يتكلم ويكتب بلسان أبيه وأمه وقد يكون في الأكثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته.

أنا إن كنت عربيًا وأحب العرب وأريد نهوضهم ليتيسر لي كل ما أريد إذا لم أخاطبهم وأخطبهم وأكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها، أنا إن كنت

أريد الاطلاع على مجد آبائي وأجدادي أأتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من آثارهم وهل يتيسر لي هذا إلا باللغة التي كتبوا بها؟ أقول هذا وأنا آسف كل الأسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصورًا لا أبالي إذا قلت إن فيه العار والشنار.

أيزهد سلالة العرب الأكارم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون أكثر من علماء العرب أنفسهم؟ أيزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل أعجمي في الستين من عمره. وأعني به الكنت دي سارديج الفرنسوي. هذا الرجل من أهل الطبقة العالية في غناه كان والده سفيرًا في طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفًا في السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد ثم استقال وهو يسكن في الصيف في قصر له في لوزان في سويسرا وفي الشتاء في باريز وقد قام في ذهنه منذ أشهر أن يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له أستاذًا صديقنا ووطنينا ميشيل أفندي بيطار وأنشأ يتحرج به فقطع شوطًا في التعلم وإذ كانت الدواعي تضطره إلى المقام في قصره في سويسرا أكثر من باريز وكان أستاذه لا يستطيع أن يلحق به إلى سويسرا كتب إليه يلتمس منه التماس التلميذ من أستاذه أن يبعث إليه بدروس عشرين يومًا حتى لا يضيع وقته مدة مقامه في سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فإذا آب إلى العاصمة يعاود ما بدأ به.

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة وهو في هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لا عهد له بمعرفتها. أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدنية أهله وشبان العرب أنفهسم يترفعون عن أن يقصوا ولو بعض أوقات فراغهم في إحكام لغتهم. هذا هو مثال صغير من أمثلة الهمم في الشرق وأمثلتها في الغرب فهل فيكم ياشباب المستقبل وقرة عيون العثمانية

العربية من يمشي على أقدام الشيخ الفرنسوي حتى لا يجيء علينا وقت نضطر فيه أن نأخذ لغتنا بل ديننا عن أوربا ونكون تحت وصايتها حتى في أمس الأمور بنا وأعلقها بقلوبنا؟

كل ما نراه من همم الغربيين ومناتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فأنتم وأمثالكم شباب هذه الأمة في أيدي اقتداركم أن تجددوا لها شبابها إذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب إلى الغرب وقضاء سنين في الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا وسعادتهم ليعلم أنني لا أغالي فيما أوردته لكم بل إنني عاجز عن الوصف والتعريف ولا يقعن في أذهانكم أن الذهاب إلى أوربا بعيد المنال وأنه لا يتيسر إلا لكبار الأغنياء. فالعيش في معظم البلاد الأوربية أرخص من الآستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة أجورها أو لا يكاد يكون لها أجور. ومنها ما أجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكًا في الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب أن يعده أو يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده.

يا أبناء قومي ويا زهرات أمتي! أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش إلا بالزراعة ولا تحيا إلا بالزراعة، خالية من عارفين بها على الأصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منَّا هذا الفن في أوربا سوى طالبين اثنين. أحدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من أعمال البلجيك وهو رفيق بك بيصون من بيروت والآخر في كرنيون من أعمال باريز في مدرسة كرنبون الزراعية واسمه مصطفى أفندي الكيلاني من حماة. كلاهما من أبناء الأعيان، ولهما أرض ومزارع فنعما عملًا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في أبناء سورية بل البلاد العربية أحد من أبناء الأعيان يملك أراضي وقرى غير هذين الشابين، بل إن

المالكين كثار ولكن محبي الدرس قلائل! هذا في فن الزراعة فمتى يقوم منّا أناس لتعلم الكهربائية ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة، وغير ذلك ممّا نحن فيه عيال على الأوربيين.

زرت مدرسة كرنيون الزراعية، وهي على مسافة ساعة من باريز، فرأيت شعارها مكتوبًا بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه: (الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه) ولكن قومي غفر الله لي ولهم يحتقرون هذا الفن فيما أرى. فإن كنا نختلف في البديهيات فمتى نتفق في غيرها؟

زرت كرنيون ورأيت بها أن عبد القادر الكيلاني يلبس مشلح الزراع ويدرس كما يدرس أبناء الأعيان في فرنسا ويجاريهم في ذكائه وأطلعني على ما في مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية. وحدائق لغرس النبات والبقول، وغابات للنزهة والانتفاع، وأدوات للعمل وحرث الأرض وكرثها.

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت في نفسي لو حذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيس فيها وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لاغتنينا غنًى يغنينا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية. فقد ذكروا لي أن خروفًا علفته إدارة المدرسة سنتين على الطريقة العلمية فبيع في أحد المعارض بسبعين ليرة. فأين خرفاننا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهلنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيح والقيصوم والعرار والعرعر.

ولكن الآمال معقودة بأن نعلف خرفاننا على طريقتهم ونستثمر تربتنا على أصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع دوابنا وماشيتنا بحسب

سنتهم فيكون إذ ذاك أبناء عبد القادر في التوفر على زكاء التربة في نفعهم لهذه الأمة على مستوى جدهم الذي زكى النفوس في عصره، وتزكية التربة لا تقل عن تزكية التربية والمآل واحد.

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي أوصي أبناء الأعيان وغيرهم إلى التخرج فيها لتخصب بهم تربتنا بعد إجدابها وتملأ جيوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادي وأدبي.

نحن لا نرقى الرقي المطلوب إلا إذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلًا في شقشقة الألسن والنظريات المجردة. ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت أيضًا بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز. زرتها بدعوة من صديقي مرسي أفندي محمود أحد كتاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كرنيون من أسعد الأيام التي قضيتها في ارض الفرنسيس وإني أحب أن أقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فأقول: قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه اديمون ديمولانس ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند الألمان والإنكليز والأميركان وقابل بين طرائقهم وأخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيس منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وأنشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الإنكليز السكسونيين الذي نقل إلى العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الإفرنج.

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بأن التف حوله أناس من أرباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيس على الطريقة الإنكلوسكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى

عقب دعوت الأولى مدرسة روش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى في إقليم نور مانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى في ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهي التي أريد أن أحدثكم عنها.

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وستمائة وهي على نحو ساعة من باريز إلى الشمال في مقاطعة الواز وفيها ما في سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الفنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفي قصر الدوك دي لاروشفوكولد في أرض مساحتها مائتا هكتار أي نحو ثلثمائة فدان لم يبق منها إلى دائرة حشمه أما دائرة قصره فقد أتى عليها رجال الثورة الأخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها.

في هذه البقعة الجميلة الواسعة بل المزرعة الكبيرة والحانوت الفخم التي حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الإنكليزية وفيهم الفرنسويون وأكثرهم من أبناء الباريزيين وعدد قليل من الأميركان والإنكليز والبرتقاليين والأميركيين والمصريين. يعيشون في هذا البيت كأنهم في أسرة لا في مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التي تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته في المدرسة أو في حجر الدروس وأن يلعب في الأماكن التي هي ممر لإخوانه وأن لا يخرج من المدرسة ولا يركب في قارب الغدير بدون رخصة أولًا وأن لا يبتاع أي شيء كان من المدينة بدون استئذان وأن لا يدخل جرائد ولا كتبًا إلا إذا وقع عليها المدير ولا يدخن وأن يلبس ثياب اللعب عندما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته إلا يومي الخميس والأحد وأن لا يعبث

بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها وأن لا يتكلم بعد أن يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل ان يستيقظ رفاقه صباحًا وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعب الذي يختاره في الأوقات التي خصصت لذلك منذ الظهر إلى حوالي الساعة الرابعة بعده.

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لأنه يعرف أنه لابد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة إلا كذلك والمدرسة تقسم إلى ثمانية صفوف أسسها الأستاذان الإنكليزيان هو كنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسوي لأن قانون فرنسا يحظر على الأجانب إنشاء مدارس بأسمائهم في البلاد، وفي المدرسة نحو عشرين معلمًا ومعلمة وناظرة ورئيسة المدرسة الآنسة باري من أقرباء ادمون ديمولانس صاحب الدعوة إلى الأخذ بطريقة الإنكليز السكسونيين في التربية ومن أولئك المعلمين معلمان إنكليزيان واثنان ألمانيان.

ويقسم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار إلا في بعض أوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا أو العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العملي بمعزل. فالمدرسة تربي الإرادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تربي الذهن والذاكرة.

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين في التعليم ويلاحظون الدروس أيضًا ولا يراجعون التلامذة فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية لأن النهار يكفي لذلك ويتولى الأولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق أكثر الأولاد هذه الطريقة خصوصًا وأكثر من فيها من أبناء الأغنياء والأمراء

اعتادوا أن يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خدودهم كبرًا من القيام به.

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والعرق إلى بيوت مختلفة وكل بيت يديره أستاذ ويعهد إلى النساء بالإدارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الأحداث من الطلبة وهن يعشن في المدرسة نفسها، وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات في الأسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة أساتذة في هذه الألعاب. وفي المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف، ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية أكثر منها نظرية.

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي أحب إلى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه. فإذا عاد إلى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملًا من مثل ذلك، فلا يكون فرق بين ما عمله في المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى أكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته فإن الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة أم ركبانًا على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار إلى تسع للكبار ليستريحوا من أتعاب النهار.

وتمتاز هذه المدرسة بأن يرحل تلامذتها بمراقبة أساتذتهم أو بعضهم إلى البلاد المجاورة كالبلجيك وهولاندة أو غيرهما من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل الأحوال التي كثيرًا ما تصادف الإنسان في حياته وذلك أيضًا ليحتملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام وتتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تنقسم المدرسة إلى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة أيام وكل من حسنت أخلاقه ودروسه يرحل به أيضًا كل ثلاثة أشهر مرة أومرتين يومًا أو بعض يوم إلى مكان بعيد، وللمدرسة في الصيف شهران أيضًا عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموعة ثمانين يومًا وتستوفي المدرسة أجرة من كل طالب إلى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فإذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك أكثر حاجاته ما عدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فإنه يدفع أجرتها على حدة، وهو مبلغ كثير بالنسبة لأهل بلادنا. ولكنه لا يستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الأساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربي الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة.

حدثني أحد أساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولانس أن تكون على الطريقة الإنكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقلبت أوضاع الدروس والرياضات إلى ما يشبه الأوضاع الفرنسوية لأن ما توهمه ديمولانس من أنه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيرًا ولو كان حيًا -مات منذ نحو سنتين- لرجع عن كثير ممَّا نعاه على قومه وعد عدمه نقصًا في تربيتها وسببًا في ضعفها، وهو قول حق سديد، لأن ما يوافق أمة لا يطبق بالحرف على أخرى وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في أوضاع الأمة على أن هذه النغمة قد أفادت فرنسا وغيرها بلا شك

وأطلعت الشرق على أن التربية الفرنسوية مع ما هي عليه من الحسن هي في رقيها دون التربية الإنكليزية السكسونية من وجوه. وإن كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة.

تقدم أن تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيس وخليط من البرتقاليين والأميركان والإنكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولا سيما كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الإناث وإني لا أذكر أنني حضرت خطبة أو درسًا أو مجلسًا علميًا. ولا زرت متحفًا ولا مطبعة ولا إدارة جريدة إلا ورأيت الفتيات سبقتني إلى تلك الأمكنة ومعظمهن روسيات وإنكليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات والبولونيات [1] أكثر الفتيات الأجنبيات في فرنسا وأكثرهن عناية بتعلم اللغات الأجنبية حتى إن الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها لا فرنسوية لكثرة إتقانها للغة الفرنسوية وإجادتها النطق بها ممّا لا يكاد يتيسر مثله لغريبة ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا

---

(١) شارك النساء الرجال في أوربا في كل عمل من أعمال الحياة وفي فرنسا شاركن الرجال في الأمور الذهنية أيضًا وثلث ما ينشر في فرنسا من الكتب هو من أقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويجدن كالرجال مثل مارسل تيابر مؤلفة كتاب دار الخطيئة والكونتس دي نوايل والعقيلة دي ريبه امراة الشاعر المشهور وهي شاعرة مثله ومريم هاري صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات أمثالهن من المشهورات، والمنافسة الأدبية بين الجنسين النشيط واللطيف على أتمها في فرنسا حتى قال لي أحد كتابهم أنه سيجيء يوم على فرنسا لا يبقى لكتابها وجه للمعاش إلا أن يطيروا في مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدلنا. ولعل من يسيح في أوروبا بعد عشرين سنة يشاهد ما لم نشهده الآن من الارتقاء المادي والأدبي فقد ساح الشيخ رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن الماضي ولم يكن من مرسيليا إلى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فأغتبط بما رأى وساح أحمد زكي باشا في أوائل هذا القرن فركب القطارات في أوربا جمعاء. وسحنا نحن اليوم فرأينا ما لم يكن يعهد من السيارات الهوائية والمؤلفات في العلوم والصناعات الأدبية فماذا يشهد أولادنا وأحفادنا بعدنا يا ترى؟

أكثر النساء الأوربيات تفانيًا في إحكام ملكة لغتهن وحرصًا على آدابها وتلقينها.

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم أولادها لغتهم في الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم إلى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجعلهم روسًا مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب إنشاء مجلس النواب كان من البولونيين أن فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلامذة.

فالمرأة البولونية وإن عنيت بتعلم اللغات الأجنبية عنها تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظًا أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه حتى أنها إذا تزوجت من أجنبي لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغتها بحيث اضطر بسمرك أن يسن في عهده قانونًا يحظر فيه على الضباط الألمان أن يتزوجوا من البولونيات إذا تبت له أن الوطنية الألمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذي أصاب مملكة بروسيا من إرث صاحب بولونيا.

فيا ليت شعري متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن إن أنصفنا لا ننزع يدنا من الجماعة لأن يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والألمانية والأميركية يدرك سر الاجتماع

والتعاضد ويعرف أن المركب الكبير يستحيل أن تأتي عليه الأنواء بقدر ما تضر بالصغير فقد يغرق هذا أو يستغرق في غيره ولا من يسمع به.

تعلمنا أوربا وأميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية. فإن كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم إلى إنشاء جامعة أوربية واحدة وبعضهم إلى إنشاء جامعة أميركية واحدة وبعضهم إلى إنشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحدة أفلسنا نحن يا أبناء العثمانية أحرياء بأن نزيد في تكاتفنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعي العقلاء منَّا.

طال المقال وبت أخشى عليكم الملال فهل تأذنون بأن أختمه بجمله واحدة للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين وهي الأخلاق التي كانت من أعظم الوسائط في ارتقائهم كما كان نقيضها واسطة في انحطاط وذلك أنني تبينت بالاختبار أن الإفرنج أكثر تفكرًا منَّا في مصادر الأحوال ومواردها فهم لا يقدمون مثلنا على أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه، فالصانع في الغالب لا يتطال إلى أن يكون سياسيًّا والمحامي لا يعمل في الزراعة، وهكذا اختص أهل كل طبقة بطبقتهم وتفرد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص أو الإحصاء هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق.

الغربي يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه ف مدرسته وحصله من حرفته، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية. أما نحن فنسارع في الهبوب كما نسارع إلى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك.

الغربي يهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لأمته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم فخمة

خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر أعمالنا مختلة معتلة لا تدوم إلا بدوام من عمل لها أول مرة فإذا ما ذهب تذهب بذهابه.

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لأن من عادته أن يحسن الانتفاع بكل شيء. ونحن من عادتنا أن نهزأ في الأكثر بكل شيء.

الغربي يدخل الإصلاح إلى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سنة النشوء في عالم الكون والفساد، ونحن نحب أن نظفر طفرة في إصلاحنا والطفرة محال لأن سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند. الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم. الغربي معتدل على الأكثر في عامة أحواله ونحن أميل إلى الإفراط أو التفريط. الغربي عبد الواجب ونحن قلمّا نقوم بفرض أو واجب فالغربي كما أحسن تقسيم الأعمال والإخصاء فيها أحسن استخدام الوقت إحسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جد ولكن في أوقات الجد وهزله هزل ولكن في أوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن في أوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن في زمن العمل والشرقي ويا للأسف ليس كذلك.

أحسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماد على النفس وإنكار النفس فهو يعتمد على كفاءته أولًا ثم على محيطه وأمته وقد يهتم في الأكثر بمصلحة أمته اهتمامه أو أعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راق أمة برأسه وأمة تتألف من أفراد هذا حال سوادهم الأعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الأرض سلطانها، فالله أسأل أن يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا إلا بتكثير سواد أمثالكم يا طلاب المدارس العالية: فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم أهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التي تعلقها عليكم أمتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا.

الرحلة الثانية
دواعي الرحيل وجهلنا ببلادنا
٣٦

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الأقطار الراقية، يدرك لأول وهلة أننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء، وأنهم إذا قطعوا عنَّا أقل صادراتهم نعود أدراجنا على النحو الذي كنَّا عليه منذ بضعة قرون. وهذا ممَّا يصدق علينا في عامة شؤوننا. والعلم هو أول بضاعة يجب علينا أن نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات، وبدونه الممات.

وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع (خطط الشام) إننا كلما أوغلنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا. وإننا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة إلى أن نقصد إلى مكاتب أوربا نأخذ منها ما فاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط مما كتب لنا الإطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة.

أي غضاضة على الشرقي أن يرحل باحث في شؤونه حبًا بإتقان عمله إلى غير أهله وبلده، وأن يتسقط الفوائد من الغريب، والقريب في معزل. بيد أن يومًا طويلًا امتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منَّا بحكم تنازع البقاء وبقاء الأنسب. تراث أجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنَّا غير آسف إذ لم يعرف لها الأخلاف قيمتها الحقيقية. والأسفار في كل الأعصار. هي

هي مفتاح فتح الامصار، والعلة الأولى في سعادة البشر، ونقل المدنيات من النظريات إلى العمليات.

هاجت الخواطر في النفس خصوصًا عندما ذكرت أن أميرًا واحدًا من أمراء إيطاليا وهو البرنس لبوني كايتاني مؤلف تاريخ الإسلام الكبير هو الذي جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه فيها كل ما يحتاجه باحث في تاريخ الإسلام والعرب وبلادهم فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوربا وأميركا وآسيا وإفريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل وما لم يقدر على نقله أخذ له بالتصوير الشمسي فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب.

شبهتني وأنا أشد الرحال قاصدًا إلى رومية للبحث في مكتبة الأمير الإيطالي بطلاب العلم في أوربا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الإسرائيليين يقصدون بلاد الأندلس ليقرأو على علماء العرب علومهم ويرجعوا من كتب المسلمين بلة تروي غلة جهلهم، فسبحلت وحوقلت. قائلًا: ما أغرب تبدل الأمم والبلاد. وما أهنأ الغرب بما صار إليه من دواعي المنعة وأسباب العلم وما أشقانا بما فعل السفهاء منا.

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقوامًا بأقوام

وليت شعري أيعود ذاك العهد السعيد بالعلم على العرب ويصبح أبناء اليوم يفاخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق وبيروت وحلب وبغداد والموصل وصنعاء ومكة كما يفاخرون بغرناطة وإشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن في الأندلس وصقلية التي استعمرها العرب بالعقل والعلم وأضاعها بعد ذلك جهل أبنائهم وغرورهم

أيظل الشرقي يا ترى يعتقد في نفسه الكفاءة والغناء ويقلع عن القول بأن الغربي يغمطه حقه باستباحته حماه واكتساحه دياره الحين بعد الآخر؟ أم يهب باحثًا عن جميع علل هذاالارتقاء عندهم والتدلي عندنا ويتعلم ما جهل مع الشكر لكل من يعلمه وينعشه من سقطته.

حكوماتنا هي السبب الرئيسي في إظلام العقول واشتغالها بالفضول وأهل الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرك جيلًا من الناس يقوم إعوجاج حكومات الشرق ونتمتع على الأقل بمعرفتنا بأنفسنا ومن عرف نفسه عرف به.

دار الدعوة والإرشاد في القاهرة
٣٧

اغتنمت فرصة مقامي بضعة أيام في القاهرة لقضاء بعض المشاكل أثناء شخوصي إلى إيطاليا لأزور دار الدعوة والإرشاد التي أنشأها صديقي السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار في السنة الماضية وكان ينوي إنشاءها في الآستانة أولًا لو صادف من القابضين على زمام الأمر تنشيطًا على مشروعه وغرضه الأول من إنشائها إيجاد هيئة صالحة بالعمل من رجال الدين يجمعون إلى معرفة الدين النقي وأسراره وحكمه المطابقة لأحوال الزمن معرفة أحوال العصر حتى تحل هذه الطبقة محل الهيئة القديمة التي كادت الأمة تنزع ثقتها منها.

أنشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف أو (جماعة الدعوة والإرشاد) وهي جمعية مؤلفة من أهل الفضل والعقل والتدين (لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والإرشاد الصحيح وإرسالهم إلى البلاد الشديدة الحاجة إليهم) و(يرسل الدعاة إلى البلاد

الوثنية والكتابية التي فيها حرية دينية ولا يرسلون إلى بلاد الإسلام إلا حيث يدعى المسلمون جهرًا إلى ترك دينهم والدخول في غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الإسلام ويبينون حقيقته لأهله).

وقد جاء في النظام الأساسي لجماعة الدعوة والإرشاد أنه (تتكون أموال الجمعية من الاشتراكات الموقوتة والإعانات والتبرعات والهدايا والوصاية والأوقاف التي توقف عليها أو ما تناله من ريع أوقاف أخرى ومن ريع رأس مالها) و(يضاف ربع دخل الجمعية السنوي إلى رأس المال للاستغلال وهذا ما عدا المبلغ الاحتياطي) وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الأجواد من العرب وفي مقدمتهم الشيخ قاسم آل إبراهيم من كرماء جزيرة العرب بألفي جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة.

في جزيرة الروضة [1] المشهورة الآن بالنيل حيث قام في جنوبها مقياس النيل المبارك بين جسر (كوبري) عباس وجسر الملك الصالح أو بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والإرشاد في أحد مصايف أبناء شريف باشا الوزير المثري المشهور وقد ضمت في حجرها إلى الآن صنفين عدد طلبتهما الداخليين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ إلى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم أناس من رجال الدين وآخرون أساتذة علوم صرف وطعام الطلبة ونظافتهم ونظامهم في قيامهم ومنامهم ممَّا لم يعهده طلبة العلوم الدينية اللهم إلا أن يكون طلبة مدرسة القضاء الشرعي في مصر لأن مؤسس مدرسة الدعوة والإرشاد أفراد

---

(١) هذه الجزيرة هي التي ورد ذكرها كثيرًا في شعر المصريين منذ القديم وتع؟؟ بمحاسنها وللسيوطي كتاب في تاريخها اسمه (كوكب الروضة) من جملة مخطوطات الحزانة التيمورية ومجموعة أحمد تيمور باشا من علماء القاهرة وأعيانها.

ومؤسس مدرسة القضاء الشرعي الحكومة والحكومة أقدر على البذل من الأفراد.

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه أنها تدرس العلوم والفنون التي تدرس عادة في الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الإسلامية تنشأ أقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة إلى الإسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربي ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الأوربية ويجوز أن تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولا سيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والأوردية والملاوية. ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار طلابه من متخرجي صنف المرشدين يمكثون ثلاث سنين أ يضًا وذلك ما عدا السنة التمهيدية الأولى.

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجاني والمدرسة تنفق على الطلاب الداخلين فيها وتكفيهم كل ما يحتاجون إليه فيها وتعطيهم إعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهذيب لاتقل عن ريال مصري في الشهر وأما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئًا.

وممَّا يشترط في قبول الطلبة الداخليين أن تثق المدرسة بأن طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و٢٥ وأن يكون حافظًا لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه إتمام حفظه قبل إتمام دراسة الصنف الأول وأن يكون قد حصل قدرًا صالحًا من النحو والصرف والفقه وعرف القواعد الأربع من الحساب على الأقل وأن يكون صحيح الإملاء حسن الخط في الجملة جيد المطالعة في الكتب العربية ومن أصل قديم في الإسلام وتتحرى المدرسة أن يكون طلابها من الأقطار المختلفة وتمرنهم

على القيام بالفرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحى داخل المدرسة وخارجها.

وإذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التي تدرس فيها حق التطبيق يجيء ولا شك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكثلكة والأرثوذكسية والبرتستانتية في علمهم واستعدادهم خصوصًا ومن غرض المدرسة في باب تربية الأخلاق أن يعلم الطالب (الفرق بين زماننا وزمان القرون الأولى من المسلمين في الحاجة إلى سعة الثروة وتوقف حياة الأمة عليها الآن وعدم توقفها في ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لا يناهيان تحصيل الثروة وعمارة الدنيا لأنهما من صفات القلب وفائدتهما أن يجعل الإنسان فصل ماله لنفع أمته ومجد ملته وأنه لا ينبغي تعمد ترك تحصيل الثروة إلا لعمل أنفع للأمة والملة). ويعلمون في باب انتقال الأمم والدول من حال إلى حال مثل قوله سبحانه {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} وقوله {وتلك الأيام نداولها بين الناس}.

هذا ما أمكنني التقاطه ممَّا عساه يفيد وإني لأرجو لرئيس جماعة الدعوة والإرشاد محمود بك سالم أحد علماء مصر العاملين وسائر مؤازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل أن يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الأستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وأن يكون أساسه على صخر متين سداه الماديات ولحمته المعنويات فيكون من مادياته مخرجًا إلى معنوياته والسلام.

في طريق رومية
٣٨

أول ما يلاحظ المسافر من الأرض العثمانية إلى الديار الأوربية أن كل ما يقع نظره عليه هو غريب عنه ليس له منه إلا النظر. فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين.

ركبت هذه المرة القطار من دمشق إلى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم أبحرت من ثغر الشام على باخرة إيطالية (تيفرا) حتى إذا بلغت الإسكندرية وأردت الركوب منها إلى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة (البرنس هنري) من بواخر شركة نوردتش لويد الألمانية وهكذا كنت عالة في تنقلي على الفرنساوي والإيطالي والألماني ولو قصدت وجهة أخرى لكنت في ضيافة الروسي والنمساوي والإنكليزي والروماني!

حالة يأسف لها وأيم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لأنها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظنه بنفسه انحطت عن كل عمل. نعم يتألم الفؤاد من هذه الحركة الاقتصادية المباركة لأن العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربي يذكرون به ما ينهضهم من كبوتهم ولا مضاؤه ليتمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا أسبابه المادية التي تبعثهم على تقليد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر.

نحن ويا للأسف نريد أن نعيش في القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا أن مجدنا القديم يكفي تذكره وحده ليحيينا إلى الأبد حرة طيبة رشيدة ونتطاول إلى أن نقنع العالم بل أنفسنا بأننا شعب

راق بمجرد إيراد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقي على ضعيف في قوته ومعرفته ومادته وحكومته. هي تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاؤها قارة إفريقية وتوشك أن تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين.

مدنية أوربا هي التي حملتنا في البحر المتوسط من بيروت إلى الإسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الإسكندرية إلى نابل في ٧٠ ساعة ومن نابل إلى رومية في أربع ساعات على السكة الحديدية. والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الأوربي بل المثال الحي من هذه المدنية الحية التي سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الأرض شاء أهلها أم أبوا فتحيا الأمم التي تقوم بما قامت به أمم الحضارة الحديثة وتموت لا محالة الأمم التي لها من حكومتها أو من تقاليدها أو من ضعفها ما يعوقها عن الانبعاث والحركة.

تهتز نفس الشرقي وأي اهتزاز عندما يدوس أرض الغرب وتتوارد الخواطر عليه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات. هكذا كان حالي يوم أزعجني القدر منذ أربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا أنا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان. وليس في هذه الفرضة من جديد فإن حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة إجمالًا تكاد تتشابه لأنها قائمة بالعمل قوامها انتظام أحوال تلك الحكومات وتناغي سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق واللطف.

من أجل هذا كانت نابل مثالًا مصغرًا من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المكبر والفرع يدل على أصله والكتاب يقرأ من

عنوانه. لم يتسع لي الوقت وقد قضيت يومًا في نابل أن أزور معالمها وكليتها وآثار بومبي الرومانية خصوصًا وهي على مقربة منها لأنني في صدد البحث عن تاريخ أجدادي وبلادي لا تهمني أولًا إلا الغاية التي أنا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى إذا كان في الزمن متسع أزور من معاهد هذه الديار ومصانعها ما نستفيد منه عبرة لنا ولأمتنا وينفعنا في الأخذ بمذاهب الرقي إن صحت نياتنا عليه.

إلى ساعة كتابة هذه السطور لم أتمكن من معرفة شيء من أحوال إيطاليا اللهم إلا ما هو معروض في الأزقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات وهذا لا يبنى عليه حكم ومع أن الطبقة الراقية تكلمك باللغة الإفرنسية وكذلك تتخاطب مع أهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الأماكن العمومية فإنك تجد صعوبة في التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية. هذا مع تقارب اللغتين الإفرنسية والإيطالية إحداهما من الأخرى واللغات اللاتينية أي الإفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتقالية متشابهة لأنها من أصل واحد كما أن اللغتين الألمانية والإنكليزية متشابهتان لأنهما من أصل سكسوني واللغة الروسية والرومانية والبلغارية والصربية متشابهة لأنها من أصل سلافي.

ومع أن جليسك تنقبض نفسه منك في العادة إذا لم تكن لك معه لغة مشتركة لا تجد فيما تسمعه في المحال العامة ودور التمثيل والموسيقى هنا ثقلًا على سمعك من لغة الطليان وإن كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتها صماخ أذنك كأنها أوتار موسيقار تتكلم ألحانها أكثر من ألفاظها. ولا عجب فإيطاليا مهد الصناعات النفيسة بل هي بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ اوائل عهد الإسلام وباعت من الغرب بل ومن الشرق موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهي بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت إلى فرنسا وأوربا كلها وطليان الجنوب يشبهون

السوريين في كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد المدنية ويفخم العمران.

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بأن يعرف القارىء إن البلاد الأوربيّة كلما قربت من سمت الشمال كانت أقرب في الجملة إلى الأخذ بأسباب الرقي والحضارة وهذا مشاهد محسوس. فإنك تجد شمالي إيطاليا أرقى وأعمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل إن ألمانيا في جنوبها أحط منها في شمالها وهو سر غريب من أسرار هذا الكون ولعل الباحثين في طبائع الأقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لا يعدمون تعليلًا لذلك. أما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لأنها معدودة من أواسط إيطاليا على ما سنذكره.

الأمير كيتاني
٣٩

كان الأغنياء والأمراء في الغرب قبل أن تتقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وأرجحية القدم. أما الآن فإن أمثال هذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألغتها القوانين الدستورية في الأمم الحرة النيابية فلم يبق من أسباب الفخر إلا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لا تسمع بأمثال هؤلاء الناس إلا إذا أتوا عملًا ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرقيها درجة أخرى.

وممن جمع بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فعد عصاميًا عظاميًا الأمير ليوني كايتاني من كبار الأسر القديمة في رومية التي يرد تاريخها إلى زهاء ألف سنة ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف

العصور والمنازع فكان منها الباباوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من أمراء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذ صغره فدرس في كلية رومية الآداب وأتقن من اللغات الإيطالية والإفرنسية والإنكليزية والألمانية واللاتينية والفارسية والعربية.

ولما أحرز حظًا وافرًا من العلم والآداب سمت به همته وهو قبيل الخامسة والعشرين أي منذ زهاء عشرين سنة أن يضع لأمته كتابًا في التاريخ الإسلامي بلغتها يغنيها عن أكثر الكتب ويرفع كثيرًا من المشاكل في تاريخ العرب الذي أدهش العالم. فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ وأخذ بالتصوير الشمسي كل ماعرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثرًا في مكاتب أوربا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة في الشرق والغرب في موضوع التاريخ الإسلامي خاصة ومن رآها فكأنما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم.

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الإسلام وهو يرجو أن يفسح الله في أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للإسلام فيقع في خمسة وعشرين مجلدًا [١] ولا يطبع من تاريخه أكثر من مائتين وخمسين نسخة يوزعها على المجامع العلمية في بلاده وفي الغرب وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربي:

---

(١) عجيب صبر الإيطاليين على تآليفهم فإن المستشرق ميشل اماري قد تعلم اللغة العربية وأتقنها خاصة ليكتب كتابًا في تاريخ صقلية فكتب مطولًا لم يسبق إليها عند قومه وهو المرجع اليوم في تاريخ هذه الجزيرة الإيطالية التي دانت للعرب قرنين ونصفًا وقد نشر اماري جميع ما كتبه مؤرخو العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية في كتب ورسائل كثيرة.

كفــاف عــيش كفــاني ذل مــسألة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

يقول كفاف عيش وثروته وثروة أبه فيما بلغني تقدر بمئة مليون فرنك دع ثروة حليلته الأميرة وهي غنية أيضًا ولهم المزارع الواسعة في ضواحي رومية إذا استثمرت حق الاستثمار على أحدث الطرق تزيد ثروتهم أضعافًا والأمير مع هذا تفرغ إلى العمل في مزارعه ويتعهدها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف على إتقان عمله الذي صرف شبابه وها هو يصرف الآن فيه سن الكهولة وسيصرف فيه أيضًا سن الشيخوخة بحول الله شطرًا ليس بقليل من المال فعنده ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابه من المواد ما عدا ما ينفقه في الكتب وطبع كتابه ولكن كل ما ينفقه في سنة لا يعادل ما ينفقه غني واحد من فساق أغنياء الأميركان أو الروس مثلًا في ليلة واحدة في باريز أو مونت كارلو فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله.

طاف الأمير كثيرًا من بلاد الشرق ولا سيما الهند وفارس والشام ومصر ودرس أحوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فإذا تكلم في تاريخنا صدر عن علم نظري وعملي. ولقد ذهب منذ ست سنين إلى بلاد الشام ليرى بعينه المكان الذي كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم في اليرموك. وهذا قلمَّا يتيسر إلا لمن أوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب في سبيل تحقيق رغائبه.

وما زال منذ بدأ في التأليف وهو يدأب وراء منضدته في مكتبته كأنه عامل بسيط فإنه يبدأ في عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحًا على الغالب ولا يزال أكثر النهار يعمل ويطالع لا تعرو همته ملل ولا ينظر في سفاسف الأمور. ولقد كان نائبًا في الانتخاب الماضي في مجلس النواب

فأضاع في النيابة شيئًا من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لأنه توفر بجملته على خدمتهما.

وعدم انتخابه ناشيء من أن خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الأمير في مسالة فتح إيطاليا لطرابلس وبرقة حجة أناروا بها الراي العام حتى لا يعودوا إلى انتخابه وذلك أن الأمير أحب أن يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لأمته عن أن يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد إن هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لا يليق بأمة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح في المجلس وكتبه في الصحف الإيطالية وغيرها بالتصريح فحنق عليه من حنق وأثاروا الخواطر من جهته وقد بذل مالًا كثيرًا للنيابة عن أمته قيل إنه عشرون ألف ليرة ولكن خصمه بذل خمسة وثلاثين ألف ليرة ففاز عليه.

والأمير على ما رزق من الشهرة العلمية لجمعه بين المجد التالد والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لأول مرة حاملًا إليه من صديقه أحمد زكي باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلني للبحث في مكتبته اعتذر عن كونه قابلني بثياب عمله وقال إن عنده شيئًا من المخطوطات العربية أخذت بالتصوير الشمسي ولا يدري إن كان فيها حاجتي على أنه تفضل ودلني على مظانها وما برح اليوم بعد الآخر يشير علي بالرجوع إلى كتاب كذا ففيه مادة لكتابي وهو يبش ويقول في الأحايين إنه مسرور لعثوري على شذرات تهمني كل هذا وهو لا يضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارتفاع أسعار الأوقات في الغرب ولا سيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم أرباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلًا.

لئن امتازت الخزانة التيمورية في مصر بأنها تحوي أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الإسلام في علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكية بالقاهرة بجمعها أنفس المطبوعات العربية في العرب فإن الخزانة الكايتانية في رومية تحوي على الغالب أهم كتب التاريخ الإسلامي أو ماله علاقة فيه وذلك باللغات المختلفة ولا سيما العربية مما هو جدير أن يرحل إليه من الصين لا من دمشق.

وقديمًا كان أمراء المسلمين وعلماؤهم يفتحون خزائنهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب و السعة كما فتح منصور بن نوح الساماني خزانة كتبه لأبي منصور الثعالبي فألف فقه اللغة وكما فتح علي بن يحيى المنجم من أهل القرن الثالث في قرية له نفيسة بكركر من ضواحي القفص خزانة كتب عظيمة في قصره الجليل وسماها خزانة الحكمة فأخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى وكما وقع من غيرهما كثير أما اليوم فإن هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وأمراؤه وأصبح الشرق بلقعًا حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة إلى من أحسن تعهده واستثماره سنة الله في خلقه.

نساء الإفرنج

٤٠

الإنكليز أعجب أمم الحضارة في أخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد إلا بشق الأنفس ولكنهم إذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقهم.

والغالب إن كل الحاجيات تمت أو كادت في هذه المدنية -الغربية حتى قامت بعض نساء الأمم وطالبت بإشراكهن في حقوق المدنية فأصبحن ينتخبن نائبات في المجالس النيابية ويشركن الرجل في أعمال السياسة ومن الفائزات السابقات في هذا السبيل نساء فنلندا وأوستراليا وزيلاندة الجديدة والنروج.

رأى النساء الراقيات من الإنكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع الرجل وغرن -والغيرة من خصائصهن- من اللاتي سبقنهن من بنات جنسهن وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلنر احتجاجًا في لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على وتيرة واحدة من السعي وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن.

خطبت إذ ذاك العقيلة ميلنر وقالت إنها أزمعت أن لا تدفع الخراج الذي عليها للجابي بحيث تضطره إلى أن يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة وكل سنة تزيد قسوة وإملالًا. فضحكت الصحف من هذا القول إذ ذاك ومن الغد أرسل إليها من جميع أطراف إنكلترا إبر للخياطة. إشارة إلى أن المرأة هذا شأنها ولا يليق بها أن تخرج عن هذا الحد.

ولكن المطالبات بهذا الحق ظللن يجمعن قواهن هذا وهن على عهد الملكة فيكتوريا التي سنت للملكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوقة سنة توفر النساء على تربية أولادهن وتدبير منازلهن والقيام على أسراتهن وبيوتهن حتى قالت في مفكرتها إن أحسن امرأة هي التي تبدو صالحة لزوجها وأولادها.

ولقد ربت ملكة إنكلترا وإمبراطورة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية حتى إن الأميرة أليس دي هيس درامستاد كتبت إلى أمها تقول: ها قد صنعت الفساطين اللازمة لبناتي الصغيرات في الشتاء فعملت منها سبعة ولم أطرزها فقط بل فصلتها وخطتها وعملت أيضًا رداء من الصوف للطفل الذي ننتظر قدومه وأنا التي أتولى حسابات الدار ولذلك تريني مستغرقة في العمل. إن أسرتنا الصغيرة تزداد بسرعة وستقضي علينا الحال بعد بضع سنين أن نعيش باقتصاد زائد.

في مثل هذه الأمة التي ملكتها وأميراتها على هذا الطراز من حب الانصراف إلى الأعمال البيتية يقوم ربات الحجال في أقصى بلاد الشمال ويعمدن إلى القسوة في المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجان كما قالت جريدة الماتين من مقالة افتتاحية إلى استعمال القوة في مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الأيدي اللطيفة التي يجب أن تكون رباتها ملكية الأخلاق بلطفها ودعتها هي التي تتهمها (التيمس) بأنها تشعل الحريق في بعض بلاد الإنكليز لتحمل الحكومة على إجابة تلك المطالب وأنه قد حرق في شهر تشرين الأول الماضي في بريطانيا من الأملاك ما يقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف ونبت بالتحقيق أن للمطالبات بحقوق النساء يدًا في نحو عشر حرائق منها وأن النساء المتحمسات لهذه الفكرة يطلبن شيئًا من المال فلا يلبث أن يحمل إليهن فقد طلبن مرة مئة ألف جنيه وأخرى ربع مليون جنيه وكلما طلبن مالًا يأتيهن عفوًا ويقدر ما يصرف النساء الإنكليزيات في الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن.

هذه هي أعمال النساء الإنكليزيات ومعظم البشر لا يوافقونهن على استعمال القوة في مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا أثر لها في الشرق وكيف تكون حال نساءنا مرضية وهن راضيات عن

تقهقرهن فرحات بجهلهن. العاقل لا يطلب لنساء الشرق أن يشاركن الرجال كما هن في الغرب فإن تقاليدنا وأدياننا وعاداتنا لا تنطبق مع هذا ولكن كل ما تتقيد به من قديم لا يحول بين نسائنا وبين التعلم وليت شعري كم مدرسة فتحت لتربية البنات في عهد الدستور في القطر السوري وكم رجل فكر أن يعلم بناته فن تدبير المنزل كما يعلم في الغرب.

القشور التي يتلقفها بعض بناتنا في مدارس الأميركان والفرنسيس والألمان ومدارس الحكومة لا ترقى أمة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه في صدور كبرائها فما بالك بالصغار. إن ما يراه السائح في أوربا من مظاهر تربية المرأة ومضاهاتها الرجال في جلائل الأعمال يبكيه على الشرق ولا سيما الشرق الإسلامي الذي تأتيه العبر عن أيمانه وشمائله ولا يعتبر.

تسعى إيطاليا اليوم لإعطاء المرأة حقها في التصرف بمالها كما تحب دون أن تكون مقيدة بإرادة زوجها أو وليها كما كانت حتى الآن وفي الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا في شيء لإنهاض المرأة من كبوتها فما أبعد الفرق بين الجنوب والشمال في تربية الرجال وربات الحجال.

وبعد فإنا نشاهد كل آن العجب العجاب في هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة في أعمال الحياة مشاركة هي على غير الطريقة التي جرى عليها الشرقي الأقرب الذي جعل المرأة في منزلة يصح أن يقال إنها أقصى دركات الانحطاط وهيهات أن تنجح أمة نصفها عاطل لا يعمل ولا

يفكر ينظر إليه بغير العين التي يجب أن ينظر إليه بها وينزل منازل الجهل والخمول.

قلنا إن العاقل لا يطلب لبلادنا أن تكون المرأة فيها كما هي في الغرب فإن هذا أشبه بمريض يحتاج إلى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلًا وبذلك تقتله لا محالة. نعم لا نريد لنسائنا الآن أن يكون لهن حق المشاركة في السياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا أن يكن منقطعات إلى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقي الذي يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة أم تحسن التوفر على تعهد بنيها وبيتها وتدخل السرور على قلب بعلها ومحارمها وأن نقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكن من الدارسات العلوم العالية بالطبع.

قرأت الآن في (الجورنال) مقالة افتتاحية لأحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكري الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين إن فرنسا استاقت ألفًا وستمائة معلم في سن القرعة للخدمة العسكرية وأنها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب إنه ساح في أوقات مختلفة في عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معًا على نحو ما تقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب فرأى أن ذلك لا يضر بالآداب بل ينفعها فإن الرجال لما كان شأنهم أن يعيشوا مع النساء فمن السخف أن يفصل بعضهم عن بعض عشرًا وخمس عشرة سنة وأن يعود كل جنس أن يعتبر الجنس الآخر دخيلًا وخطرًا فإن التعليم المشترك يغرس في الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياء بدون أن يكشرن عن أنيابهن. فإنا نجد في البيوت التي يكون للبنات فيها إخوة وللإخوة أخوات يحرزن صفات

ليست أصلًا لغيرهم من الأولاد ونحن لا نريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم أزمة التعليم فيها للنساء.

المرأة تحب الأولاد وتعرف مراميهم فإن فطرة الأمومة التي تتنبه في الفتاة تحبب إليها الأولاد وتعرفها بهم ويكون الأولاد في الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت أو عجوزًا في حين أن شبان المعلمين لا يتيسر لهم أن يحبوا الأولاد وذلك لأن المتزوج رب الأسرة ربما توسع في حبه أولاده فأحب أولاد غيره على ما يوحي إليه العقل ولكن معلمًا في العشرين لم يتزوج لا يحب الأطفال بل يضربهم ولا يبالي بهم لأنه يعتقد نفسه بأنه أشبه بالمرضعة وأن درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والأولاد معًا أن يوسد أمر التعليم في مدارس الأطفال إلى النساء بدون استثناء فإن الطفل الذي يبدو شيطانًا أمام معلمه يحاول أن يرضي معلمته كما هو الحال في المقاطعات المتوحشة في غربي الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم لا يحسن التصرف مع الأولاد فيعود نظام المدرسة إلى أحسن ممَّا كان.

قال إن للمرأة أسرارًا في اللطف والصبر والثبات الممزوج بحب وحسن النظر يجهلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمبتدئ بالتعليم. المرأة تعلم وتفهم ألف أمر لا يستطيع الرجل أن يفهمها ولا يحرزها. إنها رزقت جميع أسباب اللطف التي ترافق الإحسان.

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فمتى تنشأ لنا مدرسة في كل حاضرة من حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات أولًا وإن أمكن للصبيان أيضًا وريثما تتم هذه الأمنية يكتفي اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين أو المدارس الطائفية ويوسد إليهن تعليم البنات والبنين.

وما أظن إلا القليلات من المتعلمات في بعض المدن العربية والقليل من المتعلمين يفكرون في هذا المطلب الجليل الذي هواهم الأدواء القتالة في جسم مجتمعنا وهيهات أن يحصل على شيء من البرء إلا بتعليم البنين والبنات بل إنه بدون العناية أولًا بتعليم البنات لا تستقيم لنا مدنية وتكون تعليمها الأمور النافعة بحسب ما تقضي به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربي بإنهاض شأن المراة وبدون ذلك لا أمل لنا بإصلاح بيوتنا.

المدنية لا تشفق

٤١

أحببت أن أخدر أفكاري موقتًا عن النظر في أخبار بلادي فأخذت أطالع بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما باريز منها وأعني عناية خاصة بالحوادث الداخلية مما لا يتيسر للصحافي الشرقي كل حين فأتلو كل يوم مرات أخبار القتل والانتحار والاعتداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربي بالحياة جريًا على ما ورد في المثل العربي (احرص على الموت توهب لك الحياة).

لا ينكر أن من الحوادث الطارئة هنا ما يسوق إليه اختلال الشعور من الإكثار من الخمور وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منها ما يدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجد والشهرة. وبينا نجد ابن البادية عندنا يقتل عابر سبيل ليذهب ببندقيته أو فرسه أو كيسه أو ثوبه ترى الغربي ينتحر هو وزوجه أو ولده تخلصًا من شقاء الحياة أو تفاديًا من الوقوع في فضيحة أو لسائق غضب أو غير ذلك من الأسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة.

قرأت الآن في (البتي جورنال) أن العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض أجناس من الحيوان كادت تضمحل بسوء تدبير الإنسان وظلمه وقسوته وأن المجمع العلمي الباريزي قد حصر جلسته الأخيرة في البحث عن أسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التي تكثر في البلاد الحارة وتصاد بلا شفقة ليتزين نساء الغرب بريشها وإذا لم ينظر في طريقة تحفظ بها أنسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بعض سنين لا محالة فيكون الناس أشبه حالًا بحكاية من قتل الدجاجة اعتقادًا منه أن في بطنها بيضة ذهب.

قال صاحب المقالة: منذ عرف العالم ما زال الإنسان يظلم ويطمع في القضاء على الحيوانات ويسيء استعمال الأسباب التي جعلتها الفطرة أمامه فلأجل نفع معجل بل وربما كان لجلب سرور بربري يقتل بدون خشية أنواعًا من الحيوانات النافعة التي يحدث من فقدها اختلال في ميزانية هذا الوجود. هو يقتل الفيل لأن العاج ثمين جدًّا ويذبح كلب البحر لأن جلده يباع بثمن غال ويصيد الجوارح والطيور لأن ريشها تزدان به رؤوس النساء المتبرجات إلخ.

وبينا أتصفح هذا وأعجب من رقة شعور القائمين بهذا الأمر وعطفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة أن يحدث منه خلل في ميزانية عالم الكون والفساد، إذا بي أرى في الصفحة الثانية أخبارًا من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة أيام في الغرب لأن مدنيته لا تشفق بل لا تقوم إلا ببذل بعضهم أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة العلم.

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون في الصحاري القفار أو في القطبين وتجشم أخطار البحار أما اليوم فبعد أن

اكتشفوا العالم الأرضي أصبحوا يريدون أن يكتشفوا العالم السماوي كانوا بالأمس يعملون في البسيطة وهم اليوم يريدون أن يسخروا الجو وما ندري غدًا ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التي تباع في تحقيقها الأرواح بيع السماح.

كنا بالأمس نقول إذا تلونا سياحة أحد أرباب الرحلات من الغربيين إن كاتب الرحلة في حلم يملى من عالم الخيال ليرى أنه لقي أهوالًا من سفره ويشتهر بين جيله وقبيله ونرجح أن معظمها أشبه بقصة السندباد البحري وحكاية ألف ليلة وليلة بيد أن ما نقرأه اليوم بل نشاهده عيانًا من أخبار الطيارين في طيارات السماء كاد يدعونا إلى تحسين الظن بأكثر ما أورده أرباب الرحلات وأن هذه المدنية التي نتمتع بها إن هي إلا ثمرة الاستهانة بالحياة في سبيل الأغراض الشريفة.

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الإنسان بل تقتل الإنسان لفائدة الإنسان وهذه التجارب التي خص الغربي بطول الروح عليها هي التي نشأت منها أكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسناتها للبشر اليوم منادية بأن الأمم التي قام أبناؤها بشيء من هذه الأعمال حرية بأن تنال ذروة المجد لأن من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لا يعسر عليه أن يسخر الإنسان للإنسان.

مدنية الغرب لا ترحم أحدًا ومتى رحم من لا يرحم نفسه. والغرب لا يحزن لفقد ألف أو ألوف من أبنائه قذفًا من الجو وهم يطيرون لأنه موقن بأن هذه التجارب تنجلي في النتيجة عن خير لهذا المجموع فمتى نرى أناسًا من الشرقيين ينهجون هذا المنهج ويقلدون الغرب في صالح أعماله فإن ممّا يخجل الشرق أن يعمل الغرب كل هذه الأعمال المدهشة وهو

نائم باهت وأن يقتل الشرقي أخاه في غرض تافه ولا يقتل نفسه في تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثل:

وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء أن يعطي مناه ويأبى الله إلا ما يشاء
وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها رخاء
ولا يعطي الحريض غنى لحرص وقد ينمي على الجود الثراء
وبعض الداء ملتمس شفاه وداء النوك ليس له شفاء

تكريم الرجال
٤٢

عرف الغربيون حسن الانتفاع من كل شيء فصاروا إلى زمن هم في العالم كل شيء لأقول إلا قولهم ولا مدنية إلا مدنيتهم التي هي خلاصة مدنيات العالم بأسره فيها اندمجت مدنية رومية وأثينة وبابل وأشور ومصر وفينيقية والأندلس وبغداد وفارس.

إن هذه المدنية التي تتمثل لنا كل يوم في صور شتَّى قامت بعقول الرجال وأعمال الأبطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذي كان عليه المعوّل في نبث المدفون واختراع المعدوم.

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرقي أنهم على شيء من المبالغة وأكثر الأمم إيغالًا في ذلك الفرنسيس على ما رأيت فإن رجالهم لقوا من التكريم والتنويه ما لا يكاد يراه أمثالهم في الأمم الغربية نفسها. وإن المرء ليعجب كل العجب من تغنيهم حتى اليوم بجان دارك إحدى فتيات القرون الوسطى التي بزت الرجال بشجاعتها ودافعت عن وطنها

أمام جيوش الفاتحين من الإنكليز وإلى اليوم هي المهماز الأعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها في وصف سيرتها.

ولا بدع فإن الفرنسيس كما قال برزبابين -أشهر رجال الصحافة الأميركية- ورثوا عن اليونان والرومان نبوغًا كانوا به أدلة وموحدين بالأفكار للعالم منذ عند شارلمان فقد كانوا الأولين في الحركة العقلية السابقين في شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين في فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة في إنشاء السيارات والطيارات وفي عامة الأعمال التي تحتاج إلى عقول لا تخاف وتتطلب إقدامًا عليها لساعتها.

قرأت أمس في (الماتين) مقالة جاء فيها إن الفرنسويين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتيه (يوم ١٣ كانون الأول سنة ١٩١٣) وربمًا يقل في قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته ليذكنوا على الأقل من هو الذي يعاد ذكره بعد أن نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفائح التذكارية وأنشئت الجواد والشوارع بل أنشئت قرية باسمه في الجزائر.

بامانتيه هو مخترع البطاطا في فرنسا أو مدخلها إليها على صورة عمَّ استعمالها جميع طبقات الناس فخدمتهم في اقتصادهم وبيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضي. كان هذا الرجل من أبناء العامة سافر من بلده مونتيديه إلى باريز ليسابق في وظيفة صيدلي في الجيش فقبل وأرسل مرات إلى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى أعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضو في مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلي أول في الجيش الفرنسوي وفي خلال حرب السبع سنين أخذ أسيرًا وفي

أسره تسنى له أن يدرك ما في البطاطا من المواد المغذية وكانت في معظم الأوقات الغذاء الوحيد له ولأصحابه الأسرى.

حملت البطاطا من أميركا إلى أوربا من سنة ١٥٨٠ إلى ١٥٨٥ نقلها الإسبانيون أولًا ثم الإنكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيرًا في فرنسا وينظر إليها في الجملة نظر ازدراء. وما زال بارمانتيه منذ استقر أمره في صيدلية (الانفاليد) بباريز يكرر في منشورات منوعة فوائدها ويدفع اعتراض المعترضين بشدة لأنهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلًا إن رأي الناس في البطاطا أنها غير صالحة لغذاء الإنسان ساقط لا يؤبه له وكذلك دعواهم أنها تضعف الجسم وتحوي الأخطار وعلى العكس فهي لذة للأغنياء ومعوان للفقراء وسلوى في الشدائد.

وكان هذا المحسن مدفوعًا إلى ذلك بالعامل الذي وضعه بعضهم بقوله: لا يكفي من أراد أن يكون نافعًا لأبناء جنسه أن يقول لهم مرة واحدة ما رآه وما عمله وما يجب أن يعمل بل يجب عليه أن لا يمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق منوعة اللهم إلا القوة فإنها لا تستحب. ولا تنفع العلوم إلا إذا عمت الطبقات كلها. هكذا كان شأن بارمانتيه حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة وأصبحت تزرع في أرض تبلغ مساحتها مليونًا وستمائة ألف هكتار في وطنه.

ولم يقتصر بارمانتيه على الدعوة إلى البطاطا وتحبيبها إلى الناس بل كان له أثر محمود في الخبز والخبازة ودرس الأغذية الرئيسة عند هذه الأمة وله العمل المهم في تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية إلى غير ذلك من أعماله في تنشيط الأشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم وطبخ الأحسية الاقتصادية هذا إلى جمعيات البيطرة والإحسان والمآوى التي كان عضوًا فيها أو

مديرًا لأعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه أحد واصفيه السابق إلى كل مكان يمكن العمل فيه كثيرًا وأن يخدم بدون عوض ويجتمع لعمل الخير ويتأتى لمن يدعوه أن يكون على ثقة من أنه بإشراكه بارمانتيه في العمل يتسلط على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء.

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القارىء وكيف وجد من قلبه متسعًا للقيام بكل هذه الأعمال التي تحتاج إلى بضعة رجال والجواب أن بارمانتيه كان يصحو باكرًا ويجلس إلى منضدة عمله في الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحًا. قالت (الماتين) وما أحق مدارسنا الابتدائية أن تتخذ من هذا الولد ابن الشعب مثالًا يبعث الهمم على العمل فإنه قد خرج من مسقط رأسه مستخدمًا صغيرًا في الصيدلية لا سند له ولا مال بل ولا تعليم إلا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ المناصب العالية وجلس في الصف الأول بين المحسنين إلى الإنسانية.

أبعد هذا نلوم الفرنسيس إذا غالوا بحمد رجالهم؟ وهل نشأ لنا نحن يا ترى معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتيه منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله حريًا بأن نحتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه في سجلات الأزمان.

صناعة الفنادق

٤٣

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل أصبحت الفنادق والإنزال صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق في الغرب ولا سيما في البلاد التي يكثر إليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثلًا يهون عليه أن يتصور معنى الفنادق فيرى قصورًا شاهقة ذات حدائق

غناء مجهزة بأجهزة قصور الملوك أو أكثر وفيها من التحف والألطاف وبدائع الصناعات ما يلفت عقل البليد دع الحساس الذكي.

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل إلا لعين من كثرت سياحاته إلى الأقطار المختلفة وهناك يدرك خطرها كما يدرك قدر الصحف فيرى إدارة كل نزل أشبه بديوان كبير من دواوين الدول أو مصرف عظيم أو جريدة منتشرة. وإتقان تلك الصناعة متوقف على العلم الحديث فكلمًا تأصل في الشرق والغرب وكثر الترف والنعيم زاد رواءً وإتقانًا.

إن ما نراه في مصر والشام من إتقان بعض الفنادق إن هو إلا جزء ممًا أوجده العلم في القارة الأوربية والأميركية وفي مقدمة الأمم التي استفادت من فنادقها وأحسنت القيام عليها الأمة السويسرية حتى سمى بعض الفرنسيس أهل سويسرا (الفندقيين) تحقيرًا لهم مع أن هذه الصناعة كغيرها ممًا لا يثلم الشرف ولا يعبث بالمروءة شريفة في ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وعارًا. وكفى السويسريين بأن أهم الفنادق في إيطاليا وغيرها هي بأيديهم يديرونها ولايفوقهم أحد في هذا الشأن. ليس الفندق أو النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن بعض الشيء فانه قد يوجد في الفنادق الحديثة من أسباب الرفاهية والنعيم مالا يوجد مثله في قصور العظماء. الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة أمور تحتاج حسن سيرها إلى عناية وملاحظة، خذ لك فندقًا متوسط الكبر تجد فيه بحسب طبقته ومساحته أعمال الكهربائية (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة والتهوية وأدوات لاستخراج الجليد وحجرًا مبردة وأفرانًا للخبز والحلويات وآلات للتصعيد ومطبعة ومكتبًا للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات والسيارات وعقودًا وقد يساوي ما يحويه الفندق من المواد مئات الألوف من الفرنكات تكفي النزل الشهرين

والثلاثة ومعملًا للتصليح ومحل نجارة وحدادة إلى آخر ما هنالك ممَّا لا مقابل له بالعربية للتعبير عنه.

وللفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتنزهاته وطرقاته وسواق تامة أدواتهم لنقل الأمتعة والأثقال منه وإليه على الخيل أو السيارات. ورجال إداراته أكثر من رجال وزارة فمنهم المستقبلون والقائمون على إعطاء التعليمات لمن يطلبها ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك.

فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم أقسامًا قد يختلف عدد القائمين بأعماله من ١٠٠ إلى ٣٥٠ شخصًا. ومدير الفندق سواء كان مالكه أو مديره مسؤول عن كل ما فيه يديره ويعنى به ويمونه ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله العاملون بإشارته أو النازلون عنده. والقانون يسأله وحده فقط عن كل ما يحدث.

ولذا لا يكون صاحب الفندق في الغرب رجلًا عاديًا يكتفي منه أن يكون حسن البزة عارفًا بالقراءة والكتابة والحساب بشوشًا مؤنسًا بل هو رجل متعلم من الدرجة الأولى يحسن إدراك ألوف من التفاصيل في إدارة تحتوي غرائب معقدة بحيث يكون أهلًا لأن يتصرف في الحوادث اليومية التي قد تقع اضطرارًا في عمل يحوي في جملته أعمالًا صناعية وتجارية مختلفة وليست الأدوات التي يقوم بها الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلا بدع إذا طلب هنا من صاحب الفندق أن يكون مهندسًا نقاشًا سياسيًا تاجرًا بل طبيبًا للأرواح والأشباح.

عرفت الأمم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الأول في حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعية وفتحت المدارس لتعلمها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذي تتوقف عليه حياة البيوت وسعادتها

وغبطتها. ولقد كانت النفس تحدثني وأنا أشهد من لذاذة الحياة في فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحذاقة طهاتها ونظافة خدامها وخادماتها بأن يأتي أناس من الطبقة المستنيرة المثرية من أبناء بلادي ليروا شاهدًا عيانيًا محسوسًا على ترقي الغرب وتدني الشرق ويفاضلوا إذا رجعوا إلى أهلهم بين حالنا وحال غيرنا وينقلوا بعض ما يمكن نقله من أسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخزائن والمغاسل والحمامات وأماكن الاطمئنان وغير ذلك من أساليب الراحة والنعيم الذي لم يظفر ببعض بعضه أغني الأغنياء فينا اللهم إلا بعض عقلاء الكبراء في الحواضر الكبرى وخصوصًا في مصر.

ولكم كنت أشتهي أن يأتي بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة أو النظر في فنادق مصر والشام واختلطوا بالإفرنج وعرفوا خصائصهم وتأنقهم في مطعمهم ومنامهم وملبسهم أن يقضوا ولو شهرًا في الفنادق الكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل في سويسرا وأظن أن من يفتح فندقًا ويحسن النظر فيه بحيث يضاهي به أو يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وأمته في اقتصادياتها أكثر من ألف موظف في الحكومة متوسط المعارف لا يهمه إلا رضا من سبقه في الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب.

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ في السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لأنها عرفت من أين تؤكل الكتف في خدمة الناس وتوفير أسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء أن يكون في النفدق سعيدًا كما هو في بيته وزيادة. وإن اتهم بعضهم الدماشقة بألا يفكروا في غير الأكل والنوم وأن هذه العادة غالبة عليهم ولكن يشفع في ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه الشؤون

الحيوية أيضًا وأن يكن الفرق بيننا وبين غيرنا أننا نكثر التفكر في ذلك وهم يجعلون له وقتًا لا يبحثون فيه بغيره والسلام.

رجال الكثلكة
٤٤

يجدر بنا ونحن في مهد انتشار الدين المسيحي وكل ساعة يقع نظرنا على قساوسته ورهبانه ونرى بيعه ونسمع أجراسه أن نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتفانيهم في واجبهم.

من يمر في شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمرًا زمرًا ويجدهم على الجملة يحلقون شواربهم ولحاهم ويلبسون لباسًا أسود في الأكثر على عادتهم في الشرق ويختلف هذا اللباس فالألمان والمجريون منهم يلبسون أردية حمراء فقط والفرنسيس والإنكليز يلبسونها سودًا والايكوسيون سودًا مع زنانير زرقاء وياقات سوداء والبلجيكيون يلبسون سودًا فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسون السواد وغيارًا أخضر والبوهميون سوادًا وغيارًا ممزوجًا بزرقة فاتحة واليونان والروتنيون يلبسون زرقة وزنانيرحمراء مبقعة بزرقة وقسوس أميركا الجنوبية يلبسون الأسود مع غيار أزرق وبطانة زرقاء والأميركان يلبسون لباسًا أسود واسع الأكمام والأردان وغيارًا أحمر وأعضاء الدعوة إلى الدين يلبسون أردية سوداء مع غيار وبطانة هما إلى الحمرة.

هذا هو الشكل الظاهر في طلاب المدارس الأكليريكية الذين يأتون من أنحاء العالم الكاثوليكي ليدرسوا ويتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا إلى بلادهم أو غيرها يعلمون ويرشدون. وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون في مدارسهم وبعد الدرس يذهبون إلى منازلهم وقد

يعيش بعضهم بين أهله وذوي قرباه فمن هؤلاء لا يطلب إلا أن يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم أحرار فيما عدا ذلك أما الرهبان فدائرتهم أضيق لأنهم يعيشون في مدرسة واحدة مع أقرانهم ويطعمون طعامًا واحدًا ويكون في الأكثر طعام تقشف ولا يخرجون إلا برخصة أي أن هؤلاء مقيدون كثيرًا ولا قيد صغار الطلبة في المدارس الداخلية.

والرهبنات أقسام منها الفرنسيسكانيون والدومينيكيون واليسوعيون والعازريون وغيرهم ولهم أنظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وأفادوا النصرانية بنشرها في البلاد التي لم تدخلها ولا سيما في الصين والهند واليابان وأواسط إفريقية وغيرها من البلاد النائية.

وكان لليسوعيين يد طولى في هذا الشان وهم بين الرهبان والقسوس أي أنهم يترفهون ويأكلون ما يشاؤون لكنهم يأوون إلى بيت خاص خلافًا للرهبان الذين يأكلون أكلًا معينًا وخلافًا للقساوسة الذين يأوون إلى بيوتهم واليسوعيون أشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة ما نالهم من اضطهاد الحكومات في الأزمان السالفة.

قال الأمير بورغزه في كتابه (إيطاليا الحديثة): إن تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقي فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لإدارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وإرادته. ويتراءى للناظر في نظامهم أن واضعه جندي فإن كل شيء فيه يشعر بالنظام. وقال إن نظام هذه الرهبنة ربما جرى في وضعه أغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الإسلامية التي كانت مشهورة في الأندلس فبنى نظام رهبنته على طاعة لا نهاية لها فتوصل بهذه

الصورة أن يؤلف جيشًا يتصرف به رؤساؤه تصرفًا مطلقًا وتفنى إرادة صغيرهم في كبيرهم.

ولمعظم الرهبان والقسوس أعمال علمية وغيرها يتعاطونها ويبرزون فيها فإذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم وإذا أخذوا بالتأليف قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس في إيطاليا وفي غيرها كثيرًا ما يفضلون أن يربى أولادهم على أيدي القسوس وإن كان آباؤهم ملاحدة مارقين من دينهم.

ترى الرهبان إذا أخذوا بالزراعة والصناعة ربما سبقوا من تخرجوا فيها أعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتبًا للحبر الأعظم منذ يوم أخذت حكومة الوحدة الإيطالية أزمة الأمر بيدها واستولت على أموال الرهبنات وكنائسهم وأوقافهم سنة ١٨٧٠ لأن جميع مرافق البلاد المهمة كانت بأيديهم إذ ذاك فغيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكنًا للجند وغير ذلك وحظرت على أي جمعية دينية امتلاك ملك إلا أن لرئيس الجمعية أن يملك ما يشاء وقد عادت الملة النصرانية فأخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحدة الجديدة ولذا تراهم يعيشون عيشًا حسنًا وأديارهم وكنائسهم منظمة وارداتهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع إلى المتدينين من أغنياء الكاثوليك في العالم.

قلنا إن الحكومة الإيطالية عينت منذ زهاء أربعين سنة راتبًا لإمام الأحبار ولكنه لم يقبله بعد أن نزعت منه السلطة الزمنية وكانت بيده هي والسلطة الروحية بيد أن الحكومة وضعت المبلغ تحت أمره في المصارف وفي كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقي رأس المال بحاله الذي يزيد كل سنة حتى بلغ فيما بلغني (١٨٠) مليون فرنك

وحضرة البابا لا يريد أن يتناوله وهكذا عف هو وأسلافه وسيتعفف أخلافه عن أخذ مال ممن يرونهم غاصبين حقهم معتدين على سلطتهم.

إن انشقاق ألمانيا وإنكلترا وغيرهما عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام أمثال جان هوس وكلفن ولوثيروس في أوائل القرون الحديثة وتلك الأزمنة التي دخل فيها المقام البابوي إذ ذاك لم تؤثر كثيرًا في سلطته على الأرواح والأشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية في إيطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيرًا فبقي مقام حضرته مقدمًا وكذلك الكرادلة والأساقفة والقسس والرهبان وذلك لأن عمل هؤلاء الرجال قائم على أنظمة وقواعد معينة لا تغيرها الطواريء والرزايا ولأن هذه السلاسل في مراتب الكهنوت لا يصل إليها المريد إلا بالتعلم والتهذيب على الأصول المنبعة وكل ما جعلت التربية والتعليم أساسه يثبت ويعم أثره ويوفق الناهضون به.

ولقد لاحظنا أن الفتن الدينية التي أثارها التعصب الديني في القرون الوسطى كانت في إيطاليا أقل مما هي في فرنسا وإسبانيا حتى إن الإسرائيليين في أسبانيا لما ذاقوا العذاب الأليم جلوا عن بلادهم فكان من إيطاليا أن قبلتهم وهذا ناشئ من لين أخلاق الشعب هنا ويرجح أن كل ما وقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته.

ولو رجعنا إلى تراجم أكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء أساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكر كانوا كذلك يوم كانوا ملوكًا زمنيين وروحيين ويوم أمسوا روحيين فقط فقد حدثنا التاريخ أن البابا ليون العاشر في القرن الثالث عشر للميلاد وهو من أسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبي وكان يبسط جناح حمايته

للمصورين والنقاشين والمهندسين والأدباء ويفضل عليهم وبالطبع إن من يأتي بعده في الدرجة يحاول أن يقلده في محامده. والله أعلم

العرب والطليان
٤٥

وصل العرب إلى بلاد الأمة التي هي وارثة الرومان منذ القدم أوائل عهد فتح إفريقية وما برح العرب يطمعون في فتح جزيرة صقلية [1] لقربها

---

(١) وصف ابن جبير الأندلسي في عودته من الشرق ما قاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يغرقون وقال إن قد وقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن العجب أن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء المسلمين يتطامون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا الناس في تخليصهم فسأل عنهم فأعلم بقصتهم وأمر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام. ووصف مدينة مسينة فقال إن أسواقها نافقة حفيلة وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وإن كنت غريب لوجه واليد واللسان وقال إن مرساها أمين عجيب لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب فيها إلى البر خشية يتصرف عليها. ووصف مدينة برية ووصف بلارمة قاعدة جزيرة صقلية وما فيها من المساجد وسرقوسة. وقال إن شان ملك صقلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاد الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لحالته متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخه من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ومأمنهم الأمن له الماشية والخيول والاتباع قال وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جدًا وله الأطباء والمنجمون هو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذكر له أن طبيبًا ومنجمًا اجتاز بلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ومن

من الشاطئ المقابل لإفريقية حتى تم لأسد بن الفرات فتحها سنة ٢١٢هـ قال المؤرخون كان ابتداء حصار بلرم عاصمة صقلية في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام إلى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالأمان وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرصه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب ومرنا وغير ذلك.

عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكر الأنعمه وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن. ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طرازا الملك إن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير أمور عجيبة وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة ولا زل مرجعة دعر لها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرًا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحتقهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن ندين به تسكينًا لهم وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم إلا شهر تطوعًا وتأجر أو يتصدق تقربًا إلى الله وتزلفًا ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع.

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من جزيرة صقلية فقال في ثرمة سرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسوننا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل. وكانوا يكلمونه بالعربية وقال إن زي النصرانيات في مدينة صقلية زي نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات خرجن في العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة والتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعاية الأدبية قول الشاعر

إن من يدخل الكنيسة يومًا ... يلق فيها جآزرًا وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدي إلى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي إلى تفنيد أنه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة اهـ.

وهذه القلاع ما زال بعضها إلى اليوم أسماء مدن تبدأ بلفظة (قلتا) أي قلعة فيقولون قلتا جيرونة وقلتا بلونة وقلتا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت أسماؤها كما بقيت أسماء كثيرة عربية في لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلًا (منديللو) للمنديل وغير ذلك مما يشهد بأن العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفًا وأثرت في أهلها مدنيتهم ولسانهم وعاداتهم كما هي عادتهم في كل ما ملكوه.

راجت حضارة العرب زمنًا في صقلية ومنها تسربت إلى البلاد المجاورة فكان يرشح منها شيء كثير إلى الأقرب فالأقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت أيضًا في جزيرة قورسقة وأهلها يتكلمون بالإيطالية أيضًا وهم اليوم تحت حكم فرنسا. وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة (المقتبس م٧ ص٦١٩) وكانوا يغزون شطوط أسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك إذا دخلت كلمات عربية كثيرة في لغات الفرنسيس والطليان والأسبان والبرتقال.

ومن يعلم أن تلك الجزائر ممًا راتفع عليه علم الإسلام وأن اقريطش (كريت) وقبرص وردوس ومالطة كان حظها كذلك يعرف أن العرب كانوا رجالًا في البحر كما هم رجال في البر وأنه لا سبيل إلى الأمن من الداخل إذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والمواني والفرض ولطالما كانت الحكومات تمتلك الساحل فلاتلبث أن تبسط سلطانها على الداخل.

كان الأدارسة حكام تونس هم المتكلفين بغزو جزيرتي سردانيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب أخذوا على عهدتهم غزو منورقة وميورقة فاستولوا عليهما وعامل العرب الإيطاليين والأسبانيين بالحسنى على نحو ما يأمر به دينهم ولما رأى الإيطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا أن يغيروا شيئًا من مصطلحاتهم حتى إن الملك رجار

الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربية وهو الذي أفضل كثيرًا على الشريف الإدريسي الجغرافي الذي وضع كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الإفرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التي أهداها أمير المؤمنين الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا.

قال الإدريسي في رجار هو الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية وانكبردة وقلورية أمام رومية الناصر للملة الناصرية إذ هو خير من ملك الروم بسطًا وقبضًا.

ولقد كان أهل الشرق على صعوبة ركوب البحر في أيامهم يرحلون إلى بلاد إيطاليا كما يرحلون إلى الأندلس فيكتبون عليها في رحلاتهم ماتقع عليه أنظارهم وممن زار بعض إيطاليا الجغرافي ابن حوقل فقد قال إن مدينة ملف (ويقال لها الآن ملفى) تتصل بأرض نابل وهي مدينة صالحة بحال دون ملف في كثير من الأحوال وأكثر أموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال إنه رأى بها ثيابًا لم ير في سائر أقطار الأرض لها شبيهًا ولا يستطيعها صانع في جميع طرز الأرض وهو ثوب يعمل مائة ذراع في خمسة عشر إلى عشرة ويباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعي وزائد وناقص.

ووصف ابن حوقل صقلية فقال إن طولها سبعة أيام في أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وجميع أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم وهي قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهي خمس جادات محدودة غير متباينة ببعيد مسافة وإن كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينة الكبرى التي تسمى بلرم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد

الجامع الأكبر وكان بيعة للروم وفيه هيكل عظيم ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور أيضًا من حجارة وليس كالسور الأول يسكنها السلطان وأتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان.

وبعد أن وصف أسواقها وباعتها استطرد إلى كثرة مساجدها وقال إن فيها نيفًا وثلاثمائة مسجد وفي قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم أر مثل هذه العدة في بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق قال وسألت عن ذلك فقيل لي إن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يحب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته وربما كان أخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجدًا لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لا غير. قال وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالبطالين والفساق ووصف أبواب بلرمة التسعة وقال إن هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقيها إلى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله إلى آخره بضروب التجارة.

ووصف الشريف الإدريسي جزيرة سردانية فقال إنها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلًا وعرضها من المغرب إلى المشرق مائة وثمانون ميلًا وطولها مارًا من الجنوب إلى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن منها الفيطنة وهي ممّا يلي جنوبها وهي مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمرة وهي رأس المجاز إلى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشتالة وأهل جزيرة سردانية في الأصل روم أفارقة متبربرون متوحشون من أجناس الروم وهم أهل نجدة وحرم لا يفارقون

السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضلة الجيدة ومنها تخرج الفضة إلى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلًا.

ثم وصف جزيرة قرسقة وجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرة وشكلة وبنت برة ومونسة وبونسة واسترنجو وجزيرة البركان وليبر ودندمة وفيكوذة واركوذة واشتقة وجزيرة الراهب واليابسة وغيرها وقال في وصف مدينة بلرم: وبها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهي على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة فالسماط الأول يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسماطان الباقيان فيهما أيضًا قصور سامية ومبان فاخرة عالية.

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مدينة رومية فقال إنها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهي في شمالي غربي القسطنطينية وبينهما مسيرة خمسين يومًا وهي في يد الإفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذي تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الإمام الذي يكون واجب الطاعة ومدينة رومية من عجائب الدنيا لعظم عمارتها وكثرة خلقها ذكر الوليد بن مسلم الدمشقي أن استدارة رومية أربعون ميلًا في كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب الأول يرى سوق البياطرة ثم يصعد درجًا فيرى سوق الصيارفة والبزازين وذكر أن بين يدي السوق سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعًا وبين هذه الأعمدة نقير من نحاس في طول السوق من أوله إلى آخره فيه لسان من البحر تجري فيه السفن فتجيء السفينة في هذه

النقرة وفيه الأمتعة حتى تجتاز على السوق بين يدي التجار فتقف على تاجر تاجر فتختار منها ما تريد ثم ترجع إلى البحر.

وذكر أشياء عجيبة عن كنيستها وقال إن فيها عشرة آلاف دير للرجال والنساء وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم والحكمة والهندسة وغير ذلك قالوا إنها مائة وعشرون موضعًا قال وقد مثل في الكنيسة صورة كل نبي بعث من وقت آدم إلى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليها السلام كأن الناظر إليهم يحسبهم أحياء وحكى أن أهل رومية يحلقون لحاهم ووسط هاماتهم فسئلوا عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم إلى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلمّا ظهر لهم صدق قولهم ندموا على ما فعلوا وحلقوا لحى أنفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك.

وممن رحل إلى إيطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة بحماة وكان إمامًا مبرزًا بالعلوم العقلية عارفًا بالمنطق والهندسة والأصول والفقه والهيئة والتاريخ توفي سنة ٦٩٧ ذهب هذا رسولًا إلى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحي وذكر أنه أقام عنه وفي مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالأندلس من مدينة أنبولية واجتمع به مرارًا ووجده متميزًا ومحبًّا للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس قال وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تسمى لوحارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الإسلام.

وفي هذا القرن كان الإيطاليون هم رجال التجارة والأساطيل في البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من إقليم طوسكانيا تجارات واسعة في الشام وقال ياقوت إن السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزة

وجنوة والبندقية هي أكثر البلاد الإيطالية في القديم والحديث اختلاطًا بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية امم أوربا غائصة في مفاوز الجهالة.

نشر المستشرق ميشيل اماري في مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (بيزة) وفلورنته (فلورنسة) أو أفلورنسا وبين ملوك المسلمين في تونس والغرب الأقصى ومنها عقد من الملك قايتباي للفلورنتيين ذكر في شروط البنادقة أن تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة أصنافًا من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسعمائة هجرية وأولها في منتصف القرن السادس.

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على أتمه بين الأمتين ولا سيما عندما تضع الحرب أوزارها وكثيرًا ما كان رسل ملوك الإسلام يأتون إيطاليا فقد ذكروا أن ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولًا من قبل صاحب تونس وصوره الطليان إذ ذاك على الحجر وجاءها في القرن الحادي عشر الأمير فخر الدين المعني صاحب لبنان وأقام بها عدة سنين ملتجئًا ووصف عمرانها بالضخامة وتفنن أهلها في النقش والرسم والبناء.

ولا يتسع المجال هنا إلى ذكر كل من زاروا إيطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا إلى هذا العصر. ولقد كانت اللغة الإيطالية في مصر والشام معروفة أكثر من الإفرنسية والإنكليزية إلى منتصف القرن الماضي ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان.

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون إلى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم أكثر من أن يحصوا وفي

مقدمتهم السمعاني اللبناني المشهور واللبنانيون الموارنة على ما يظهر أشد الكاثوليك رغبة في المهاجرة إلى رومية وتاريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك.

لذائذ الغربيين
٤٦

قرأت في الصحف الباريزية إن إمبراطور ألمانيا منع ضباط مملكته من رقص (التانغو) (وألوان ستب) في الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الإنكليز وهما رقصتان قيل إنهما من أصل أميركي في أقصى ما يكون من الخلاعة خلافًا للرقص الذي اعتاده الأوربيون في حفلاتهم الراقصة خاصة كانت أو عامة.

ولعل الآن بعضهم يقول وأنت الآن تحدثنا عن الرقص وأمامك محيط أوربا وكله ممَّا يستملي القرائح مهما كانت كليلة للكتابة والتأمل. نعم إن البحث في الرقص هو ممَّا يجب البحث فيه أيضًا لشرقي يبحث في مدنية الغربيين.

إننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادي ننكر الرقص ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لا تكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأة إلا ويعتادون الرقص على أنواعه من غير نكير اللهم إلا رقص التانغو وألوان ستب فإن العقلاء أنكروه لأنه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عمَّا وضع له.

والرقص [١] في الغالب يكون على إيقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما أشفع بغناء. فالرقص والموسيقى والغناء هي من المستحبات وربما تجوزنا وقلنا من الواجبات في بلاد الغرب لا يعد الفتى ولا الفتاة من أهل الظرف بدون الأخذ بحظ وافر منها فكأن الغربيين رجعوا في مدنيتهم إلى الفطرة الأولى وذلك لأنا نرى سكان البوادي في الشرق أيضًا يرقصون ويغنون ويضربون بطبل أو ينفخون بمزمار. أمور يأتونها على الفطرة وعلى حالة أولية ولكنها على كل حال تدل على أن سكان غير المدن في شرقنا أقرب إلى الفطرة من المتحضرين.

كانت الطبقة العالية من رجالنا أيام رقي العرب في الأندلس ومصر والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التي تأصلت فيها الحضارة لا تستنكف من الضرب بالعود أو غيره من أدوات الطرب أو ترفع أصواتها بالغناء ولا من ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال.

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ما تستعيده الأمة الناهضة وأول ما تفقده المنحطة وما الغناء والموسيقى إلا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء والموسيقى في أمة دليل ارتقائها فهما

---

(١) قال طاش كبرى في مفتاح السعادة: علم الرقص وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والأغنياء والأمراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ويعلمونها الغلمان الحسان والجواري الفائقات ليلتذ السمع والبصر معًا بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور وأهل الهند ماهرون في أنواع الرقص ولهم فيها يد طولى إلا أن هذا العلم محرم في شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اهـ.

محركان عظيمان لأرواح أبنائها ومهمازان قويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يصرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب.

تصدر هذه العجالة من بلاد هي مهد الرقص والغناء والموسيقى، من أرض أين اتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنى، من بلد قام فيها من الموسيقيين القدماء أمثال روسيني وبلليني ودونيزيتي ومن المحدثين أمثال فردي وبوتنشيني وماسكانيه وليون كافاللو ومن المغنيين في المحدثين بونشي وماركوني وكاروسو وديللوكا وباتستيني وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن أعظمت الأمة منزلتهم وأحلتهم في منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها.

وكل ما نراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب (النوتة) بأدوار وتقاطيع مخصوصة وهو ما لم يتم حتى الآن عند العرب اللهم إلا الموسيقى الوترية في مصر ولما يعم استعمالها فإذا أصبحت موسيقانا وغنانا ضمن دائرة القانون يكون قد وضع الحجر الأول في أساس نهضة هذه الفنون الجميلة في شرقنا العربي على نحو ما جرى عليه سكان الآستانة وأفلحوا فيه من تقليد الأوربيين في موسيقاهم وغنائهم.

الموسيقى والغناء هما مثال من حالة النفس ومن لا يريد أن تكون نفسه شفافة وبراقة حساسة ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الامة الأخرى وتعده منكرًا ولكنه يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الإسكندري من سياح القرون الوسطى في وصف أهل شلشويق (أي أهل شلزويك هولستاين في شمال ألمانيا) وقال إن لهم نوعًا من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذي يقوله اليوم أيضًا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناءه ومراميهما

اللذائذ الثلاث هما من أول ما تدور عليها الحياة الغربية اليوم ولا تضر بالوقار بل تعد من أدوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذى في الموسيقى والغناء حذو الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت أو الأصحاب آونة الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء أنفع ألف مرة من لغو الحديث وانتقاص بعضهم بعضًا والحط من أقدار أنفسهم والسلام.

نهضة إيطاليا
إيطاليا القديمة
٤٧

كنت أحب أن أسطر قبل الآن ما أعرفه وعرفته عن النهضة الإيطالية إلا أنني انتظرت ريثما قضيت شهرًا في هذه الشبه الجزيرة ورأيتها إجمالًا من جنوبها إلى شمالها.

وقد اعتمدت فيما أكتب على من وقعت لي معهم صلة تعارف من خاصة الطليان أو ما قرأته بأقلام الطليان بالإفرنسية أو ما كتبه الفرنسيس عن الطليان وهو وإن لم يكن مجموعًا صحيحًا من كل الوجوه لكنه أقرب إلى الصحة من كثير من الأحكام التي يصدرها صاحبها عفو القريحة باديء الرأي.

وكنت أود لو سمح لي الزمان بتعلم مباديء من لغة الطليان الرقيقة لأخاطب العامة كما أخاطب الخاصة بلغتهم نفسها وأسمع تصوراتهم وألقي عليهم الأسئلة وأدرس أحوالهم بالنفس ولكن المدة التي قضيتها لا تكفي لأن يتعلم المرء القدر الكافي للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جدًّا من

الإفرنسية ولولا الخوف من علماء أصول اللغات لقلت إن الإيطالية تحريف الإفرنسية أو هذه تحريف تلك.

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة إلى إيطاليا أن مسألة اللغة من أهم المعضلات الاجتماعية التي يصعب حلها إلا بأن يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وإن العامة أيضًا لا غنية لهم عن تعلم ولو مباديء طفيفة من لغة راقية منتشرة وأن من كان يبيع منًا أفكاره الصائبة بأن الموظف يستطيع أن يحكم في بلد لا يفهم لغة أهله وأن التاجر يستطيع بواسطة الترجمان أن ينفق سلعة ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن أفكاره أرقى من أنفه إذ لم يستند فيها إلى تجارب ولا إلى تاريخ واجتماع.

وها نحن نتكلم على نهضة إيطاليا فنقول: قضى مركز إيطاليا الجغرافي أن تكون في الأزمنة القديمة مركزًا عظيمًا من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الأول وأخذوا يدوخون الأمم والشعوب لسلطانهم. ولمَّا وضع الشعب اللاتيني أول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن أكبر أنهر إيطاليا أصبحت رومية مطمح الأنظار وصار هذا الجسر الذي كان بناؤه أقرب إلى الفطرة ممَّا يستهوي قلوب شعوب الشمال للإغارة عليه لأن منه يخلص المرء إلى ساحل البحر المتوسط على أيسر سبيل ولمَّا دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الأتروسكيين واليونان أصبح مقدسًا ومن ملكه كان هو الزعيم بلا مدافع.

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب أساسية للمرء والمجتمع وهي ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الأدبية والصعود إلى الحياة

العقلية بمعنى أن المرء يعيش ويحب ويعرف وأن يكون في المجتمع قانون ودين وعلم.

قارب الرومان القدماء هذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت أتم عندهم لأنهم محاطون بأعداء إن لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لا محالة. وكانت الحياة العقلية في كثير من أدهارهم نامة بالنسبة لتلك الأيام ونظام الأسرة ثابت الدعائم وحب الجندية مغروسًا فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية في السادسة عشرة ليعفى منها في السادسة و الأربعين وعلى قلة عدد السكان إذ ذاك وهو كما قال المؤرخون (١٥٠) ألف نسمة في رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون في أرض ذرعها ٤٥٠ ميلًا مربعًا كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة يخرجون به من فتح إلى فتح.

وكان الرومان إذا فتحوا بلادًا يقبلون في الحال ما يتراءى لهم حسنًا من عادات أهلها وصناعاتهم وأسلحتهم وهذا سر وضع القانون الروماني الذي هو ابن الأوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة ألف في قرون وتعاورته الأيدي بالشرح والتذييل والإنقاص حتى أصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الإنسانية التي لا تتغير. وكانت تلك الحروب الرومانية من مجددات حياتها وحماستها الوطنية حتى لقد قال ليكورك الخطيب اللاتيني ليس أحسن عاملًا من الحرب في تقوية الشعب لأنها تعلمه احتقار الأخطار والإخلاص لسلامة غيره ولأسرته ووطنه.

ولما تخلص الرومان من السيزيليين كاد القرطاجنيون أن يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت رومية مجد قرطاجنة التي سقطت بعد الحروب البونيكية وقضت رومية على أنيبال القرطاجي الذي جاء وهددها في عقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير من أقطار آسيا ومنها الشام من أكبر

دواعي قوتهم فجلبوا به ثروة وأعلاقًا نفيسة وكان من أكبر المشوقات للعسكر الذي أخذت رومية تستخدمه بالأجرة إن كان يعطى له شيء من الأنفال والغنائم لا كما كان في القديم يستأثر بها الزعيم أو رب الأسرة.

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولاية رومانية أخذت عنها الذوق في الفنون الجميلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآتينة أثرًا من آثار الهندسة والنقش والجواهر كانت تتربي أذواقهم ولم يكتفوا بالآثار بل جلبوا معها مؤثريها من مثل الخطباء والسفسطائيين من الحكماء فأصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب (الفوروم) المشهور الباقية إلى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتناقشون وأخذوا يبعثون بفتيانهم إلى أثينة يتعلمون على حكماء الوقت إذ ذاك ما ينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الأتينيين إلى رومية وأنشاؤا يعلمون كل طالب وبلغت هذه النهضة أشدها على عهد الإمبراطور أغسطوس وسقطت بعده بقليل شأن أكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم أو أمير أو بضعة حكام ثم يتناسى الأمر ويزهد فيه.

جاءت أزمان أدخل فيها اليونان على الرومان أمورًا أضعفت من سلطة الوالد على أولاده وتركت الحياة الجندية وأخذت الشبه والشكوك تسري إلى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرفاهية فكان بذلك انهيار ذاك البناء وخراب العالم الروماني فقضى على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت في النفوس آثار الوثنية وأخذ الاضطراب يدخل في نظام تلك الحضارة ويبعثرها وكثر الانتحار واليأس من الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس في الطبقة الممتازة والأغنياء إلى البائسين والخدمة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على أنقاض المدنية الرومانية وكان لها من

النساء أكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاء لهم وسلوى. والدين وازع قوي في الدنيا والآخرة.

اضطهد القائمون بالدعوة الدينية أيضًا وقام أمثال نيرون يظلم ولا يبقي على أحد وبينا كان يحرق المتنصرين أحياء ليضيء بهم حدائق الفاتيكان كنت ترى أولئك المتنصرين يذهبون إلى الحرق باسمين لاعتقادهم بأن في العالم الآخر حياة سامية لا يخيب من فضى في سبيلها. وكلمًا كانت الشدة تنال أولئك المضطهدين كنت ترى أشباعهم يكثرون.

وكان النزاع بين الإمبراطورية الرومانية والدين المسيحي من أعظم ما ذكره التاريخ حتى دان الإمبراطور قسطنطين بالدين الجديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البلاد خصوصًا والدين أخذ يوافق ميول المتدينين به وحاجاتهم.

توطد أمر إيطاليا بعد ذلك وأخذت تقطع أشواطًا في سبيل جمع شملها وتتناسى ما نالها في سبيل انتشار النصرانية التي عمت إيطاليا وبينا الأمر على ذلك كان برابرة الشمال يتجمعون ليغزوا إيطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة يدفعهم فجاؤا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يلبثوا أن دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة إليه في القاصية بيدأنهم لنقص فيهم حرفوا ما تلقنوه ولم يعملوا بتعاليمه فأتوا مظالم كثيرة حتى اضطر الباباوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا إلى القوة علمًا منهم بأن سلطان الروح لا يؤثر كثيرًا إن لم يكن وراءه سلطان القوة.

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصًا على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصًا عليه ثم كثرت البدع والإلحاد وقاومها الباباوات بالشدة وإن جاء من هؤلاء

أنفسهم من لم تحمد سيرتهم أحيانًا ولقد كانت إيطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين البابوية والإمبراطورية فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة في الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية على الشرق وكان الدافع إليها دينيًا ثم انتهت بالماديات وبعد سنة ألف للمسيح حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربي وكانت الدواعي إلى الحماسة الدينية حب الظهور والإتيان بالغرائب ولا سيما في نفوس العامة والزعماء من الأمراء ولكن حرب المسلمين قرنين لاستعادة الأرض المقدسة لم ينتج منه إلا أن جمهوريات إيطاليا أصبح لها مكاتب تجارية على شواطيء البحر المتوسط وباختلاط إيطاليا بل أوروبا بالمدنية الشرقية البديعة عاد إلى الغرب شيء من الحياة أصيبت به الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية في إيطاليا أثر تقاليد اليونان المغلوبين على أمرهم في مدينة رومية.

إيطاليا في القرون الوسطى
٤٨

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما إلى أن تحكم العالم فالأول على عهد عظمة قياصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثاني على عهد التحمس الديني وبلوغ سلطة الباباوات حدها وكان من أثر الحروب الصليبية ورؤية القوم للفنون القديمة البيزنطية والمغربية إن تمت لهم مقدمات النهضة الأولى. ثم إن المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من أمرها عسرًا فأخذت تتنافس في إقامة الأبراج وتحب كل منها أن تكون كنيستها أوسع وأكثر بهجة وأغنى وخطيبها أفصح ومتفننها أشهر. وأنشأت تبحث عن الرجل الذي يكون أقدر من غيره على التغني بأمجادها في أشعاره وتعظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش

والرسم وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس الكاتدرائية في كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الأرض إلى الأجواء.

وانتشر في جميع شبه جزيرة إيطاليا ميل حقيقي للجمال فحدث منه ازدهار الفنون التي لم تزل تبهرنا إلى اليوم فكان هذا العهد مناسبًا لتكوين أعاظم الرجال ليستطيعوا أن يحدثوا أعمالًا غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس تومادي آكيك والقديس فرانسوا داسيز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أثر يذكر في السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الإيطالية الأولى متشبعة بالفكر الديني إلا أنها كانت تحوي في مطاويها بذورًا أنبتت بعد النهضة الثانية.

وقام على الأثر الشاعر دانتي الإيطالي واضع أساس اللغة الإيطالية الحديثة وأخذ ينادي في شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية. ينطق في ذلك بلسان طبقة كبيرة في عصره فلم يكد يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الأثر أرباب الأفكار الحديثة ممن أخذوا ينزعون ربقة الدين بل ينحون عن جوهره. وكان في هذا القرن أيضًا أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حبًا بالمجد والشرف والمال خصوصًا وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس إذ ذاك تغدق الهبات على أرباب تلك الصنائع. حتى لقد قيل إن رافايل المصور رفض أن يكون بابًا وآثر العمل بالتصوير. وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذي كان من أكرم البابوات وأكثرهم علمًا وعصره كعصر أغسطس قام فيه أرباب الأفكار الحديثة وأخذوا يشيرون من طرف خفي بتحكيم العقل في المسائل فأصبح أهل العلم والأدب مرغوبًا فيهم أكثر ممَّا يرغب في الأمراء وساعدهم اختراع الطباعة إذ ذاك فأخذوا يبثون أفكارهم في روح القوم على صور مختلفة

حتى غدا أمثال بوج وفيللف وأرتين الحاكمين المتحكمين بالأفكار في عصرهم يصرفونها كما يشاؤون.

في ذاك العهد أيضًا نشأ للطليان أمثال المؤلف لورانزو فالا فخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدمًا تذكر له على الدهر ومثله جيور دانوبرنو الذي أحرق لأفكاره الفلسفية وكان عالمًا كاتبًا مؤثرًا دينيًا كانت الأفكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر ومنشاؤها من بيع الغفرانات واستئثار البابوات بالسلطة المركزية يريدون أن يتم كل شيء في رومية في الأمور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن ينزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوي والفلاسفة والأدباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلمًا كان المجتمع يدخل في طور الكمال كانت الحالة تستدعي تقسيمًا أكبر في العمل وتوجيه المناحي وجهاتها حتى إن أكثر من واحد من المتدينين جدًّا قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤون وشجون انفصلت ألمانيا وإنكلترا عن رومية.

كان العلم في أواخر القرن السادس عشر قليلًا وقام أمثال غاليله الذي قال بدوران الشمس حول الأرض فأوذي لمَّا نادى بآرائه العلمية وإن التجربة هي الشرط الضروري في تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الأسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها وأخذ ماكيافل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها في كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتي يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليله يثبت بأن العالم العلمي يجب أن يكون منفصلًا ومستقلًا عن الاعتقاد الديني وهكذا لم يبرح غاليله يؤكد مع شدة احترامه للدين أن العلم والدين أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط. ويرى أن الكنيسة هي الحاكمة في المسائل الدينية وليس لها أدنى سلطة في

المسائل العلمية وينبغي لها أن تحاذر من الحكم في مسائل هي غريبة عنها تمامًا.

رأت الكنيسة بعد عصر دانتي أن تحافظ على كيانها السياسي بالقوة وأرادت بعد غاليله أن تحافظ على كيانها العلمي بالتعليم خصوصًا بعد أن شاهدت النتائج التي تمت على أيدي اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين واتحدت الكنيسة مع الأمراء وأخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وأمن الناس واغتبطوا ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الإصلاح الديني بقيام لوثيروس ونزع ألمانيا وإنكلترا يدها من الكنيسة الكاثوليكية إن الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التي ظلت كاثوليكية على اختلاف في عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لأن التعليم كان محدودًا عند هؤلاء الشعوب ومقصورًا على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبدًا يرغب فيها فقلت في هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرفاه المادي كان مضمونًا لأهل إيطاليا بما أنشئ فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التثبت والتراجع.

وعلى عهد مثل هذه الإدارة ينزل ميدان العقل من كل وجه فقد أمست الصناعات والآداب والعلوم لا ترتقي إلا ببطء حتى إن الشاعر كيودي المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضًا بالجفاء البربري الذي كان يشاهد من خلال أعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون إلا بفتح العالم.

ومن حسن الحظ إن إيطاليا لم تعدم في ذاك الدور أناسًا ينهضون هنا وهناك يثيرون العواطف وينادون قومهم بأن ما هم فيه باطل لا بد له من التجديد وأن هذا العالم ليس عالم الأموات. فقام بيتروميكا بالدفاع عن

تورينو وقام فيليكايا يتغنى بأغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الأمير أوجين دي سافوا يحمل أمجاد الحرب والسياسة إلى القاصية وأخذ بيكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم بأعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها ما أمكن.

إيطاليا في القرون الحديثة

٤٩

بينا كانت إيطاليا غارقة في هذا السبات كانت أفكار غاليله قد وصلت إلى إنكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت إلى إيطاليا منعكسة من طريق فرنسا في كتابات الفيلسوف ديرو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف (سنة ١٧٥١-١٧٧٢) فأحدث حركة في أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من الفرنسيس آملين أن يروا منها سلاحًا يحاربون به رجال الكهنوت والإشراف أمَّا العامة فقد استعملوها واسطة للإرهاب وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها في التخريب وذلك لأن فرنسا كانت مستعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ما تكون ثم إن صلاتها مع الشعوب البرتستانتية كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها فكانت ألفاظ (الحرية) و(المساواة) و(الأخاء) تؤثر في السواد الأعظم من القوم فتدفعهم إلا الأعمال الخارقة في باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيس بفتح شبه جزيرة إيطاليا سنة ١٧٩٦ كانت حالة الأفكار في فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها في إيطاليا ففي الأولى مضاء واعتماد على النفس وفي الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الأمراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنساوية على صورة بشعة بل ربما ركبوا عار الفرار قبل أن تحتل بلدهم

فلمَّا استحكمت سلطة الفرنسيس في إيطاليا قلبوا كثيرًا من أوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنساوي وألغوا امتيازات رجال الدين والأشراف بيد أن ما حدث من الاحتلال الفرنساوي لإيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر قد نبهها من سباتها العميق وحدا بها أن تعقد مع سائر أوروبا الممدنة علائق ولم يفهم العامة من الطليان ما يراد بهم فكانوا يساقون كالأنعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الأعمال بعثت هممها حالة الفرنسيس فأخذت تدرك إمكان إعادة الوطن وتأليف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الأمنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى أثمر جهاد أرباب الأفكار تأليف الوحدة الإيطالية الحديثة وحدة قوامها المساواة أمام القانون ومنح الحرية السياسية.

أعاد رجال السياسة في مؤتمر فينا خريطة أوربا إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد الباباوات والملوك والدوجات والأمراء إلى سابق أمجادهم تحميهم الحراب الأجنبية ولكن استحال الرجوع إلى الحالة الأصلية لأن رجال الشعور الخارق للعادة ومن تؤهلهم الجاذبية العقلية الشديدة إلى أن يتحرروا بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا في وجهة الأفكار وجددوا ميدان آمالهم فكان الشعراء وأساتذة الكليات والقسس والأشراف المتعلمون في مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثير الحوادث وما تم لفرنسا من المجد قد أفهمهم معنى الجمال الذي ينطوي في مدارج القوة. وتراجع الإيمان بالحق الإلهي وعادت الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت مقعد الكنيسة الرومانية ضربة قاسية وتحمس الأذكياء وأرباب القلوب لفكرة أن وطنهم سيستعيد بهاءه ويعود عظيمًا جميلًا فأخذوا يعملون بمضاء وحماسة تدعو كل من اطلع على أعمالهم أن يمجدهم ويحترمهم وكثر تجدد طبقات من الشعراء أخذت على عاتقها أن تنبه بلسان الشعر وألحانه الرخيمة شعبًا متناومًا منذ قرون فتناول

الشاعر جيوشي سوط الهجاء الذي سقط من يدباريني وأخذ يضرب به وتحمس الشعراء بلليكوا ومانزوني ونيكوليني حماسة الغيري المفجعة. وساعدت قصائد فوسكولو وأغاني برشت الوطنية على هذا النشور.

بيد أن الدعوة الأدبية لا تستطيع أن تعمل إلا في الأفكار المستنيرة ولو قليلًا فأخذ الأشراف والطبقة الوسطى من الأحرار يدركون ضرورة نشر هذه الحركة بين العامة فأنشأوا يدخلون التعليم إلى القرى. وكان تكثير سواد القائلين بفكر التجدد وضم الشمل في المدن قد تسهلت أسبابه بارتقاء مستوى العقل في الشعب واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة، ولطالما أعار بعض الكتبيين مؤخرة حوانيتهم لعقد الاجتماعات يتهامس فيها المتهامسون بأفكارهم وآمالهم وأحلامهم في المستقبل ونهضة البلاد.

ثلاثة عوامل أعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها: قدماء الضباط والموظفين على عهد نابليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة ومعظمهم كانوا دخلوا في الجمعية الماسونية فتعلموا فيها أساليب الاجتماع، وجمع الشمل وحب النظام، وبالنظر لحالة البلاد إذ ذاك لم يتأت أن تنعش من سقطتها إلا بجمعية سرية وذلك لما عرا الأخلاق من الانحلال و الضعف ولقلة عدد أرباب الشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من أجل ذلك في البلاد كلها. وكان أشياعها كثارًا أولًا في الكليات ودخل فيها أبناء الطبقة الوسطى وكثير من أبناء الأسر الكبرى وجماع الإسرائيليين. وكان أكثر الداخلين مدفوعين إلى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون إلى جمع شمل الوطن.

كان للإسرائيليين في هذه الحركة الكعب المعلى فإنهم وإن كانوا في إيطاليا أقل حيفًا من حيث مادياتهم خلافًا لما كانوا عليه في سائر أوربا

لكنهم كانوا خاضعين لقانون يحرمهم من الوصول إلى المناصب التي يؤهلهم إليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل، ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم، فكانوا محتقرين وسذجًا في الصورة الظاهرة ويتذكرون أحيانًا شيئًا من الخير نالهم ولكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على تبلتهم وحسابهم للعواقب قد أصبحوا متضامنين بدواعي مقاومتهم للعدو المشترك يكتمون أمرهم ويسرون ما يجول في قلوبهم وهم قد أثروا إثراء مهمًّا فكانت منهم قوة لا تعاد لها قوة لمقاومة نظام سياسي تكرهه نفوسهم.

فلم يكونوا يعتقدون أن في وحدة إيطاليا قلب الأوضاع التي طالما قاسوا منها الأمرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من إنكلترا المسيحية في رومية البابوات ولذا يمكن أن يقال في ذاك العهد إن جميع الماسون في إيطاليا إن لم يكونوا كلهم إسرائيليين فإن جميع الإسرائيليين كانوا ماسونًا وإذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التي تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الإسرائيليين ما عدا بعض الشواذ مالية أكثر منها شخصية وعظمت معاونتهم المالية في هذا السبيل حتى إن الحكومة الموقتة في ميلان بالنظر لما أدره عليها الإسرائيليون من المال بعد مغادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على إعانتهم الكريمة في سبيل الحرية.

وما كان القسيسون غرباء عن هذه الحركة فإن أول من صاح (إيطاليا واحدة وحرة) كان قسًّا فمات في هذاا لسبيل وآخر من قضى في هذا المقصد هو قسيس أيضًا كان في صحابة إسرائيلي، وكان هذا شأن جميع المستنيرين من عامة طبقات إيطاليا يريدون أن يحيوا وطنهم ولا يبقوه أرض الأموات. وما صادفته هذه الدعوة من العواطف في طبقة رجال الدين لا يعجب منها إذا علم أن البابا بيوس السابع كتب إلى الكونت

بورو بمناسبة أعضاء جمعية الكاربوناري الثورية (إنهم يحبون إيطاليا وأنا أحبها مثلهم) وكذلك كان الأشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم في الحكومة وأقصاهم الملوك عن قربهم فإنهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة.

قلنا الكاربوناري وهي جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية وأعضاؤها من الجند والضباط على عهد نابليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية في مملكة نابولي أولًا ثم في معظم إمارات إيطاليا، ولكن قلة عدد أعضائها وفقدان المرددين لأعمالها غادرت حركاتها قاصرة. ولما قام مازيني الكاتب الذي كان يؤثر لأنه كان متأثرًا يرمي إلى إنهاض إيطاليا وجد أنصارًا وأعوانًا وإن كان العيب الوحيد أنه كان يتعجل قطف الثمرة قبل نضوجها، ويضيق المجال إذا أردنا إحصاء من دعوا إلى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيوبرتي الذي أغضب الكنيسة بعمله، فقضى آخر أيام حياته شريدًا في باريز لأنه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والأخلاق.

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمد أخرى فيظن أن البلاد عادت إلى حالتها من الأمن والطمأنينة، ثم لا تلبث فوهة البركان أن تقذف حممها، وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية وأخذت تهتز أعصاب أوربا فتحركت إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها كأنها متأثرة بمجرى كهربائي فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الألب إلى صقلية أي من الشمال إلى الجنوب وظهر أن الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وإن شئت فقل إنه كان أكثر من غيره وتنازل الأمراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون أولًا طرد النمساويين من البلاد التي كانوا احتلوها.

ولقد تمثلت الثورة العامة في سنة ١٨٤٨ في جميع الطبقة الوسطى لمناهضة السلطة المطلقة فصادفت أولًا عطفًا من البابا وغيره فلمَّا تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة وأعيدت البلاد إلى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفر وله نظام بزعامة الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثاني وما كانت المهمة التي انتدب إليها هذا الملك بالأمر السهل بل كانت تحتاج إلى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل أحرار الطليان وتهدئة خواطر الكاثوليك وهم كثار متحمسون في إقليم البيمون وإقناع أوربا التي لا تصدق أو هي معادية لهذا الفكر واتخاذ أنصار من حكومات أوربا ليفتوا في عضد العدو العظيم. كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهي مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من أحرج المراكز ولحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي تهيأ له هو (كافور).

قام هذا السياسي العظيم وعرف بما خصَّ به من حسن الانتفاع أن يستخدم أمثال غاريبالدي ومازيني للمقصد الذي يرمي إليه في حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية. ومن دهاء هذا الرجل أنه بعث من إقليم البيمون جندًا إلى حرب القريم يعاون الدول الأوربية التي عاونت الدولة العلية إذ ذاك فعد العالم عمله خرقًا في الرأي على أمة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المناداة هيأت لإيطاليا بل لمملكة البيمون مركزًا بين الدول وصار لها الحق أن تبعث بمن يمثلها في مؤتمر باريز. ولا عجب فالأعمال بمقاصدها ونتائجها أتم هذا النابغة كل ما كان يظن أنه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال إيطاليا لولا قيام هذا الرجل. وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التي اندمجت في جمعية (جيوفاني إيطاليا) لأن عملها لم يؤد إلا إلى فظائع

فقام كافور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أسرة سافوا محط رحال الآمال وساعد أن كان الإمبراطور نابوليون الثالث الفرنساوي من أعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر إلى مساعدة إيطاليا ولمَّا أيقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاضدة الجيش الفرنساوي نهض بالعمل بصورة أفخم وأعظم وأعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عندما وقع على إعلان الحرب إني سأكون بعد عشرة أشهر ملك إيطاليا أو المسيو سافوا.

ظفرت الجيوش الفرنساوية في مونتبللو وبالسترو وماجنتا وسولفيرينو، وبموجب معاهدة زوريخ تركت لومبارديا لمملكة البيمون وقامت طوسقانة رويدًا رويدًا على دوجها الكبير وأعلنت انضمامها إلى البيمون. ونزل غاريبالدي إلى صقلية وتآخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الإخاء من قبل مع جمعية مازيتي السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافرًا إلى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد أيام أعلنت جزيرتا صقلية وسار دانية انضمامهما إلى الوحدة الإيطالية وفي ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البرلمان في تورينو ونادى بالمك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكًا على إيطاليا وتوفي كافور بعد بضعة أسابيع كأنه انتظر حتى أتم عمله المجيد مخلفًا لقومه شعاره (الكنيسة الحرة في المملكة الحرة).

وبقيت البندقية وورومية فقط لم تفتحا فقام أخلاف كافور، وعقدوا محالفة مع بروسيا فأخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنساوية من إيطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الإيطالي أن يدخل ظافرًا إلى رومية مقاتلًا جيش البابا الذي قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته أمام هذا التيار العظيم وإرادة الأمة في نزع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فحصرت سلطة البابا بعد ذلك في دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية.

إيطاليا بعد الوحدة

٥٠

ها قد ألقينا نظرة مجملة على ماضي إيطاليا وأصول مدنيتها وأمجادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعًا في صورة إيطاليا الحديثة كما أثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية إلا على تغيير قليل فيها، ونشأت مؤثرات أخرى نفعت في نهوضها كل النفع وهي سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الأمم الأخرى وغير ذلك، وبعد أن صرفت إيطاليا كل جهادها الماضي إلى سنة ١٨٧٠ في تكوين الوحدة الإيطالية وإلغاء امتيازات الأشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديموقراطية وجب عليها أن تنظم هذه القوة، فاختارت القانون الأساسي الذي كان معمولًا به في إقليم البيمون مع بعض تعديل أخذته عن القانون الفرنساوي.

ولقد حق على القائمين بهذه الوحدة من أهل الطبقة الوسطى وأبناء الأشراف من الدرجة الثانية والإسرائيليين والماسونيين والبيمونيتيين وكل من وجدوا مصلحتهم في قيام هذه الوحدة أن يرعوها فلم يجدوا أمامهم إلا العامة يتقوون بهم فأنشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعديهم فيها بوعود خلابة أقلها أن الجمهور يعيش بدون أن يعمل. وكل ذلك لمناهضة الأشراف، ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الأشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديمًا. أما رجال الدين فاحتفظوا بمراكزهم وذلك لأنهم يمثلون شيئًا لا يبرح حيًا في نفوس الشعب ولأن لهم قانون يضم شملهم.

التفتت الحكومة بعد الوحدة إلى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربي مفقودًا من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد أوائل الوحدة مئة ألف نسمة فأصبح الآن خمسمائة ألف جندي منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جندي زمن الحرب يدخل فيهم البوليس. وكل إيطالي بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكر لا يعرف في الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند بإخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك نرى مجلس النواب الإيطالي يمنح ميزانية الحربية وهي ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون أن ينظر فيها ثقة منه بأنها تصرف في سبيلها على أبناء الأمة، وممَّا يعمل لنفع الجند أنهم أنشأوا بالقرب من بعض الثكن في البلاد دروسًا زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ما ينفعهم مع التعليم العسكري إذا رجعوا إلى قراهم من العمليات الزراعية.

أما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليونًا فيمكن أن يقال على الجملة إن إيطاليا لمَّا تكونت لم يكن فيها أثر للقوة البحرية فأخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون في مدرسة ليفورنه يبدون كل إخلاص في تخريج الجند البحري.

وهكذا تعمل إيطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك أن تجد موردًا لأمتها التي يكثر نسلها وتريد أن تجد لها مرتزقًا في الأرض ولا سيما بعد أن طلبت بعض الحكومات التي تكثر مهاجرة الطليان إلى أرضها أن يحمي العملة من غير الطليان الحماية الكافية التي تخولهم عدم منافسة العامل الإيطالي. وإن إيطاليا لمضطرة بحكم الطبيعة أن تكون أمة بحرية من الدرجة الأولى لأن شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كليو متر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة.

وتناسل السكان والخوف من إغلاق أبواب أميركا ذات يوم في وجه المهاجر الإيطالي دعا إيطاليا أن تفكر في فتح طرابلس وبرقة حيث يجد أبناؤها ولا سيما في الجنوب مناخًا يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من أرضهم ومساقط رؤوسهم وممَّا دعاهم إلى الغارة على شمالي إفريقية ذكرى أن أجدادهم الرومان فتحوا تلك البلاد واستعمروها أيام عزهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك

ربما كان الإيطاليون من أكثر الأمم الأوربية حبًّا بالهجرة وذلك لأن بعض الجنوب من بلادهم فقير بزراعته ولأنك لا تجد في إيطاليا طبقة وسطى على الأغلب فأمَّا فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد في أرضه من المواد الاقتصادية ما يقوم بعيشه أو غنى كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق أمام الطليان غير الهجرة فقد كان عددهم سنة ١٨٦١ أي بعد الوحدة بقليل ٢١ مليونًا وهم اليوم ٣٥ مليونًا بحسب الإحصاء الأخير دع الطليان المنبثين في أقطار العالم. وعدد من يسكنون في كل كيلو متر مربع ١٢٢ ساكنًا أي أكثر من معدل السكان في ألمانيا وفرنسا ولا يفوق إيطاليا في كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الأرض من الممالك الأوربية إلا البلجيك وإنكلترا وبلاد القاع (هولاندة).

وأكثر المهاجرين يهاجرون هجرة مؤقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة قطعية بل إن من المهاجرين من يقضون الشتاء في أميركا ويأتون في الصيف يحصدون أرضهم ويقطفون ثمرات أشجارهم ولولا النقد الذي يحمله أولئك المهاجرون من أميركا يضعونه في المصارف وصناديق التوفير لبطلت حركة إيطاليا الاقتصادية لأن النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الأمة أن تجري أكثر معاملتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب إلا نادرًا. وقد بلغ من هاجروا إيطاليا من أبنائها في الشهور التسعة الأولى من هذه السنة ٢٢٥ و٣٣٥ مهاجرًا ولا يقل عدد المهاجرين كل سنة عن

خمسمائة ألف ومنهم من يهاجرون إلى البلاد المجاورة ولا سيما جنوبي فرنسا ومنهم إلى أمريكا.

والعامل الإيطالي قنوع للغاية يقتصد جانبًا من أجرته ومنهم من يعودون برؤوس أموال إلى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الإيطالي يقبض دولارًا ونصفًا في الولايات المتحدة فيصرف النصف دولار ويقتصد الباقي حتى إذا عاد إلى قريته تحدثه نفسه أن يبتاع له أرضًا يبني فيها كنه ولذلك ارتفعت أسعار الأراضي في القرى أكثر من ارتفاعها في المدن الكبرى ولا سيما بعد أن أنشئت جمعيات ومكاتب للمهاجرين ومنها ما أسسته الحكومة ومنها ما أسسه الأفراد لتسهيل المهاجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به وليس لإيطاليا من المستعمرات ما عدا طرابلس وبرقة غير الاريتره وبنادر والصومال الإيطالية وهي مجاورة فيهما لفرنسا وإنكلترا. وإيطاليا جاءت إلى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت أوربا مغانم إفريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها.

احتاجت إيطاليا بعد وحدتها وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية إلى موارد كثيرة فالتفتت فلم تر أحسن موردًا من الزراعة، وثلث الإيطاليين يعملون بها في أرض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنويًّا مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وأرزًا وأربعين مليون هكتولتر من الخمور وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار دع أعمال الألبان وتربية الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التي تعد من جملة الزراعة ويبلغ مجموعة قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد أدهشنا ما رأيناه من بدائعها في ضواحي فلورنسه وضواحي بولونيا وذلك لأن إقليم طوسقانة وعاصمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر أمجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الألب إلى طوسقانة فإن أرضها

حدائق غناء.وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيرًا بالأمم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين أما سكان الجنوب ولا سيما في صقلية وساردنيا وغيرهما من الأقاليم الجنوبية فإن المناخ مؤثر في أخلاق أهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم، وسكان الجنوب أشبه بالأمم الشرقية النازلة على شواطئ البحر المتوسط.

وصناعة إيطاليا وتجارتها راقية على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملكة سنة ١٨٦٠: ٢١٩٨ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩: ١٨٠٠٠ كيلو متر يضاف إليها خمسة آلاف كيلو متر من التراموايات والأتوبوس وكانت الطرق العادية على عهد الوحدة ٤٨ ألف كيلو متر فتجاوزت اليوم ١٤٠ ألفًا وكان لإيطاليا سنة ١٨٦٢: ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ١٠,٢٢٨ طنًّا و٩,٣٥٦ سفينة شراعية تحمل ٦٤٣,٩٩٦ فأصبح لها سنة ١٩٠٨: ٦٢٦ سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٤٥٣,٣٢٤ طنًّا وبلغ عدد السفن الإيطالية التي خرجت ودخلت في المواني الطليانية ١٩٠,٥٥٥ سنة ١٨٦١ فبلغت في سنة ١٩٠٩: ٢٤٦,٢٤٦ وكان إذ ذاك عدد الداخل والخارج إلى المواني الطليانية من بواخر الأجانب ٢٣,٨٣٦ فبلغ في العهد الأخير ١٧,٤٣٤ واشتركت في ذلك جميع مواني إيطاليا وفي مقدمتها جنوه ثم تجيء نابل وليفورنة والبندقية وبلرمة وكان لإيطاليا عام ١٨٦٠: ٨٠٠٠ كيلو متر من الأسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ ألف كيلو متر. تضاف إليها الأسلاك البحرية والتلغرافات اللاسلكية مع ما لها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشيء الذي يذكر في بعض أصقاع إيطاليا على عهد الوحدة بلغ وارده في سنة ١٨٨٦: ١٦ مليونًا وفي سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك.

وكانت الصناعة أيام الوحدة غير موجودة إلا في إقليم البيمون ولومبارديا فعمت الآن أقاليم إيطاليا كلها ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة فقد كان سنة ١٨٨٩ معمل واحد للسكر في جميع إيطاليا فأصبح لها ٣٢ معملًا وارتقت صناعة حياكة الصوف والقطن والحرير والحديد والعربات والسيارات ارتقاء هائلًا، ووجدت الكهربائية في إيطاليا محيطًا حسنًا للغاية بالنظر لما خصت به هذه البلاد من الأنهار السريعة في جريتها، ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة أجل خدمة، وربما أوصلت الكهربائية إلى مسافات متنائية، ولا تسل عن معامل الأسلحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو في مقاطعة جنوه وغيره كثير. وإذا ضم ما يرد إيطاليا من صناعتها إلى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة ٧٥ مليارًا من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ويستدل على الرفاهية والغنى ممَّا يودعه الأهلون في صناديق التوفير فقد بلغ ما أودع في الصناديق العادية مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف إليها ما أودع في صناديق التوفير في البريد وهو ١,٧٠٠ مليون هذا عدا ما يضعه الناس في المصارف وجمعيات التعاون ممَّا يعد جزءًا عظيمًا من ثروة الأمة. وما كانت البيوت المالية تعرف في إيطاليا إلا في إقليم البيمون قبل الوحدة الإيطالية، وقد كثر عددها اليوم، وهي فمن الدرجة الأولى بين المصارف مثل بنك إيطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ما عدا أموالها الاحتياطية النقدية التي تبلغ مليارًا ونصفًا.

وفي إيطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية، وشركات تجارية مساهمة، وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة، وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك في سنة ١٩١١ في قسم النفقات. ومليارين وثلثمائة

وأربعة ملايين في قسم الواردات ولقد أصيبت إيطاليا بأزمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ أثرت في ماليتها كل التأثير فكان شأن المضاربين على الأراضي للبناء في المدن الكبرى شأنهم في مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم إلا قليلًا بسقوط أسعار تلك الأراضي وذلك لأن بعض المدن الإيطالية أرادت أن تجدد أبنيتها على الطرز الحديث، فأخذت طائفة كبيرة من أبناء الأسرات القديمة ومنهم من يعتقد بأن له الكفاءة في كل شيء يبتاعون من تلك الأراضي والأبنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من أرباب رؤوس الأموال الصغيرة ومن المصارف وبسبب هذه الأزمة عرض الوزير كريسبي الإيطالي على البرنس بسمارك الألماني أن تكون ألمانيا وإيطاليا يدًا واحدة فأحست فرنسا بالأمر من الغد فلم تر أحسن من إخفاق مسعى إيطاليا وإشغالها بقطع الموارد المالية عنها، وكانت إيطاليا إذ ذاك لا تعتمد في اقتراضها وتجارتها إلا على البيوت المالية والتجارية في باريز، فأخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من إيطاليا ويشحون عليها بالمال فحدثت تلك الأزمة التي منشأها في الحقيقة من أناس ما خلقوا ماليين ولم يستعدوا لمعاناة الشئون المالية بالعمل.

وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط أن هيأ الإسرائيليين ليعملا أعمالًا عظيمة في إيطاليا وللإسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح إلا بالإخصاء. فإنهم اختصوا بالتجارة ومعاناة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها وقد بقيت سلطة الأب على أولاده محترمة عندهم بخلاف القوانين الحديثة الاجتماعية التي قللتها عند غيرهم وترى النظام في بيوتهم التجارية والصناعية أتم ممَّا هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة وأعمالهم ناجحة أكثر ممَّا عداهم لأنهم يحسنون الانتفاع من القوى والأشياء أكثر من كل الطوائف، ومنشأ ذلك كونهم كانوا مضطهدين

فأحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون به. وهذه الصفات هي قوة المقاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة في أسباب الحياة.

وعلاوة على ما للإسرائيليين في إيطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادي قد كان لهم في المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولكن لها ما يشفع بها بما قاموا به من معاونة إيطاليا في وحدتها بالمال وما أبدوه من الصفات الحسنة التي أبانوا عنها في تقلدهم إدارة المسائل العامة. وطالما كان منهم رؤساء الوزارة والولاة فأظهروا من البراعة في الأمور السياسية ما يحق لهم أن يفاخروا به بل إن حاكم رومية نفسها هو اليوم إسرائيلي. وكذلك أكثر الولايات التسع والستين الإيطالية فإن ولاتها من أبناء إسرائيل. لا يأتون ما يمس عواطف الأكثرية من الكاثوليك بل كثيرًا ما كان نوابهم ووزراؤهم في جانب المحافظين إذا أريد وضع قوانين وإحداث أمور جديدة من شأنها إثارة الرأي العام ممَّا دل إن الإسرائيلي في إيطاليا خلافًا لما هو عليه في سائر الممالك إيطالي أولًا ثم إسرائيلي وفي غير هذه الديار إسرائيلي قبل كل شيء. وفي المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى.

إيطاليا وعلومها وفنونها
٥١

كان علينا وقد وصل بنا البحث إلى هذا الحد أن نتكلم على ما امتازت به إيطاليا من دون سائر بلاد أوربا من التفنن في الفنون الجميلة والتبريز في مضمارها على جميع أمم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج إلى فصول

كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع أذواق أكثر القراء ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية وفي العهد الأخير وكيف ارتقت حتى عمَّ أهل القرى أثرها.

يعتبر تاريخ اللغة الإيطالية الحديثة منذ عهد دانتي الشاعر فإنها بعده لم يعد ينقصها شيء من الألفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فأصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافي لا يعرف ما عند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الألفاظ الحديثة في حين ظلت الإيطالية الأدبية جامدة تقرأ في المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية أي كأنها لغة ميتة لا حية. ودام الحال على ذلك إلى قبل خمسين سنة وبفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التي تقتضي بتنقل الجند في البلاد أخذت الإيطالية الحديثة تفهم في كل مكان وبقيت اللهجات التي تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفي بمطالب الفكر الحديث وأصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة إيطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون في إيطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم أهل هذه لهجة أولئك وأفصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت إلى رومية ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيرًا وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا وأهم اللهجات الإيطالية اللهجة البيمونتية واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والكالابرية والصقلية والساردينية.

وتعددت اللهجات ممَّا عمَّت به البلوى لا في اللغة العربية فقط بل في لغات أوربا التي يسعى أهل العلم والسياسة إلى توحيدها منذ زمن طويل، فمن ذلك أن في سويسرا ثماني لهجات ألمانية لا يتفاهم أهلها بعضهم مع بعض بها بل إن أهالي المانيا لا يفهمون لهجات سويسرا مثل أهالي بافيرا وورتمبرغ وهيس، وهكذا الحال في فرنسا وغيرها من البلاد

التي يظهر أن لها لغة واحدة والحال أنها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناوءن لغة بعضهم بعضًا.

اقتضت وحدة الروح الإيطالية أن يكون لإيطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والكتاب في أوائل القرن التاسع عشر أمثال مانزوتي وبلليكو وكاردوشي فأفادوا على اختلاف في طرق الأداء في بث اللغة الصحيحة في الشعب. ومن الشعراء الكتاب المعاصرين الذين اشتهروا في الآفاق دانونزيو وباسكولي وفوكازار وودي سانكنيس وفريرو ومن النساء اللاتي نافسن الرجال في صناعة الأدب سيرارو واوساني ودللوا ومنهن من تفردن في القصص التمثيلية وأخريات في القصص الروائية وغيرهن في الصحافة.

كان من توفر أسباب الرفاهية في الشعب الإيطالي أن أخذ عدد المختلفين إلى مسارح التمثيل يزيد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الأميين سنة عن أخرى أن كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك مواد ثمينة لتعجيل كمال اللغة الحية لأن التمثيل كالصحافة إذا أراد القائمون بها أن يفهموا وجب عليهم أن يتكلموا بلغة تتناولها عقول الكافة وإذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الأقاليم اقتضى لها أن تعدل من لهجتها في كل محل بحيث تتناولها الأذهان على أيسر سبيل. وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الأمم الراقية كالفرنسيس والألمان.

أما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك في الصورة والشكل وكل يوم تزيد العناية فيها بالأخبار المنوعة المؤثرة وتقل مادتها من الانتقاد الجدي والموضوعات الأدبية فالصحافيون هنا مثل غيرهم في البلاد الأخرى يبيعون من الجمهور ما ينفق عليه ويروج عنده. وليس

للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية وأعظم صحف إيطاليا وأهمها جريدة (كورييه دلا سيرا) أي بريد المساء وهي تصدر في ميلانو من عواصم العلم القديمة أو العواصم الأدبية كما يسمونها وتجيء بعدها جريدة (التريبونا) أي الميتر وهي نصف رسمية ثم (جورنال ديتاليا) أي جريدة إيطاليا وهاتان تصدران في رومية. ومن خيرة جرائدهم جريدة (ايدياناسيونالي) أي الفكر الوطني وهي تمثل الفكرة الوطنية الإيطالية يريد بها أصحابها أن يبطلوا أو يقللوا على الأقل كل ما يمزق كلمة مواطنيهم وأن يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن. وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة في كل مكان على توحيد الفكر واللغة.

كان السبب الرئيسي في كل ما تقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الإيطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وها هي الآن تنفق مئة مليون [1] لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا في البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة دع المدارس المنوعة التي أسستها الجمعيات الدينية أو

(١) بعد كتابة ما تقدم اطلعنا على خطاب ناظر المالية الإيطالي وقد جاء فيه أن إيطاليا ستصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتفيض المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الإجباري في البلاد وقد بلغت الحركة الدولية في المقايضات خلال الأحد عشر شهرًا من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليونًا أي بزيادة ٤٤ مليونًا عد مثلها من السنة التي قبلها وقلت الواردات ٤٨ مليونًا وزادت الصادرات ٩٢ مليونًا وزادت السفن البخارية الداخلة إلى مواني إيطاليا فكانت ١٦٤ ألفًا كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠-١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين في إيطاليا مئة ألف وزادت كمية المعدن من مناجم الحديد مبلغ ٣٢٥ مليونًا وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديد وكثر الإنفاق على المصارف وأعمال الري والأسباب الصحية كثيرًا والحكومة الإيطالية ستزيد ميزانيتها البحرية والبرية وكل هذا بدون أن تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة في الأمور المالية.



الأفراد وزاد عدد الطلاب ضعفي ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ في السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين.

ومع هذا فإيطاليا من أكثر البلاد الأوربية أميين -بعد روسيا- ولا سيما في القرى وإن كان التعليم الابتدائي إجباريًّا إلا أنه لا يعمل به كثيرًا وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والاكليروس انتهت الحال بأن المدارس لا تعلم التعليم الديني إلا لولد يطلب أبوه ذلك والآباء قلمًا يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الديني يضمحل من مدارس إيطاليا وقد تعطي الحكومة أحيانًا إعانات المدارس الأخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله حقوق عالية وله الحق بأن يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس ما يديره اليسوعيون وإن ألغيت مدارسهم في إيطاليا منذ زمن طويل ومدارس الجمعيات الدينية خاضعة إجمالًا لتفتيش الحكومة وتترفع عن البحث في السياسة

يقسم التعليم الأوسط في إيطاليا إلى فرعين مختلفين. الفرع المدرسي وهي دروس المدارس المعروفة بالجمناز والليسة والتعليم العملي وهو يدرس في المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الأولى على عهد الوحدة ١٢ ألفًا فأصبحت في السنة الماضية ٤١ ألفًا والدروس العملية التي يتخرج فيها الشبان الذين يتمخضون لفروع الصناعات الكثيرة وقد بلغوا سنة ١٩١١: ١٠٠٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة أكثر من ٦٠٠٠ وفي الفرع المدرسي تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفي الفرع العملي تعلم اللغات الحية أما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين ألفًا ويؤكد بعضهم أن المدارس التي يعلم فيها الرهبان والقسيسون أكثر نجاحًا من التي يعلم فيها العلمانيون لإن فتيان القسس ممتازون بإنكار الذات والتشبع بالروح الدينية أكثر من غيرهم من الأساتذة

أما التعليم العالي فإن لإيطاليا منه سبع عشرة كلية [١] أو مدرسة جامعة تتنافس فيها بلاد الأقاليم ولكن معظم هذه الكليات لا تخرج رجال عمل بل أكثرهم خياليون من أرباب النظر ويضاف إلى هذه الكليات المجامع العلمية العالية الكثيرة لدرس الآداب والعلوم في كل مدينة عظمى والحكومة تمدها بالمال. والمدارس العليا على كثرة ما تستلزمه من النفقات لا تتناول من مال الأمة أكثر من أربعة ملايين فرنك مسانهة ممَّا يستبان منه أن الحكومة توفر العناية بالتعليم الأوسط والابتدائي أكثر ممَّا عداهما وعدد تلامذة الكليات والمجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين ألفًا وكان طلاب المدارس العليا في القرن التاسع عشر يصرفون أوقاتهم في الأعمال الوطنية أكثر من العلم أما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فإنهم أخذوا ينصرفون إلى أبحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ما أحرزته ألمانيا وإنكلترا وفرنسا في مضمار العلوم والآداب.

هذا إجمال ما يقال في التعليم أما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء إيطاليا أسوة غيرهم من أمم الحضارة الحديثة فقد اكتشف باسي طبيعة الأمراض الميكروبية وهي النظرية التي خلصت الجراحة والمداواة من الأوهام التي كانت تعوقها. وكذلك كان شأنها في الكهربائية وساعدها على ذلك كثرة شلالاتها وتيسير إرسال الحرارة والنور والأعمال الكيماوية والميكانيكية إلى أبعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشنتوفي وماركوني مخترع التلغراف اللاسلكي وغيرهم من الذين شاركوا في الأعمال العلمية فاختلط الأمر وأصبح من الصعب التميز بين المتقدم والمتأخر من مكتشفي العلماء في أميركا وإنكلترا وألمانيا وفرنسا

(١) للحكومة في إيطاليا سبع عشرة جامعة وهي جامعة بولونيا وكاكلياري وكاتان وجنوه وماسيرتا ومسينة ومودين ونابل وبادو وبلرم وبارم وبافي وبيزا ورومية وساساري وسين وتورينو وفيها أربع جامعات حرة وهي جامعة كامرينو وفريرا وبيروز وأوزبيه.

والنمسا والبلجيك وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من الممالك المدنية.

والنجاح كما قال الأمير جيوفاني بورغزة في كتابه إيطاليا الحديثة [١] وعليه اعتمدنا في بعض ما تقدم في هذا البحث إعلاء الوسط على الدوام ليتأتى للكائنات العليا أن تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها وإعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الأعمال الشريفة التي يخولهم إياها مظهرهم ومن الخطاء العظيم في عصرنا أن تجعل قيمة شعب على نسبة ما أحرز من الارتقاء العقلي. إن التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفي الكتابة والقراءة معنى جديد يجعل بيننا وبين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدون التنظيم الطبيعي من جهة وتربية الأخلاق من أخرى لا يتولد منه إنشاء رجال تامة أدواتهم في الجملة لتنشأ على أيديهم عظمة مملكة.

وإذا نظرنا إلى ارتقاء إيطاليا نراها دخلت في ثلاثة أدوار هي أدوار النشوء الشخصي فالدور الأول الدور المادي والثاني النفسي والثالث العلمي وكان بدوء الدور الاول على أوائل تأسيس رومية وفي سنة ٧٠٠ قبل المسيح أي بعد سبعة قرون كان عصر أغسطس وهو عصر مجدها وبعد ثلاثة قرون عندما نقلت عاصمة المملكة الرومانية إلى القسطنطينية تراجع أمر الدور المادي والدور النفسي أو الروحي هو دور ظهور النصرانية التي توفر الإمبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية فمضى سبعة قرون على ذاك العهد حتى تنصرت أوربا وتم عمل الدين إلى اواخر القرن العاشر للميلاد وفي الرابع عشر بدأت تظهر تباشير دور النهضة التي أريد بها تحرير العقل الإنساني من قيوده. والدور

---

(١) Peince Giovanui Borg Bese: L Itlaie Mod' rne

الثالث هو الذي نحن فيه والقرن الأخير كان أرقى أيامه وبه ظهرت إيطاليا في مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعتها سائر الأشياء ولا تستقيم حياة أمة بدون أن تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والأخذ بالأساليب التي اتخذها السابقون في مضمار التحضر.

ومن أنعم النظر في هذه النبذة يدرك أن كل نهضة غير متعذرة وأن أممًا بلغت من الشقاء مبلغًا كبيرًا وتيسر لها بقوة الإدراك وإخلاص المستنيرين من الوطنيين أن تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعًا يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى إيطاليا أمس يجوس النمساويون أو الفرنسيس خلال ديارها ويستعبدون أبناءها ويرى الطليان اليوم وقد ألفوا مجموعًا حيًّا ودولة قوية وهم في حكومتهم الملكية أكثر حرية من الفرنسيس في حكومتهم الجمهورية على رأي بعضهم من رأى ذلك لا يقول بأن في العالم شيئًا مستحيلًا. وأن قوة العقل والثبات على العمل تفعلان أكثر من كل قوة في الأرض في إيطاليا الحديثة عيوب كما في سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي في بلادها أن يدركه ولا يحل له أن يخط فيه حرفًا لأنه لا يرى إلا الظواهر خصوصًا مع عدم معرفته لغة البلاد فإنه يبقى كالأصم الأخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد في معرفة أقدار أمة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل ونقيضها ما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر إلا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمنًا طويلًا في أصقاعهم المختلفة وحكم العقل والإنصاف فيما يكتب بعد درس الأخلاق والعادات والتنظير بينها وبين ما يماثلها من الشعوب الأخرى.

وغاية ما يستطيع المفكر أن يقول به إذا رأى إيطاليا إن بينها وبين الشرق القريب من الفروق أكثر ممَّا بين مصر أو الشام والسنيغال أو بلاد

نيام نيام يشهد هنا لكل شيء نظامًا وقانونًا من خرج عنهما ضل وما اهتدى ويجد نشاط الأفراد على أتمه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقي يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة أوفر ممًا يناقضها بدرجات السرور تقرأه في الوجوه والبسطة في الغنى والرفاهية تشهده على الأكثر في سكان الأقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الأصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعادياته وآثاره، وذاك بحدائقه وأنهاره، وهذا بتجارته، وذاك بصناعته، وآخر بزراعته، وغيره بسكونه وآخر بحركته.

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد. فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانة وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتي وبترارك وبوكاس وغاليله وميكل آنجلو وليونار دي فنسي وبنفانوتو وسيليني وأندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان في الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لأسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فإن جمهوريات طوسقانة بينا كانت في القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية في الشعب كانت رومية تضمحل بما قام فيها من المنازعات بين الأسر الكبرى والذهاب في الجدالات المذهبية مذاهب. ولذلك كان المجد كله في النهضة (La Renaissaece) لمدينة فلورنسة التي هي اليوم إحدى الولايات الإيطالية.

هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال في المدن الساحلية فإنك تجد مثلًا للبندقية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها ممًا يستدعي الغريب ويستهويه لنزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التي لا تدخل في عد لكثرتها.

وقد اتخذت الحكومة الجديدة أنواع الراحة لجلب أنظار سياح الأرض لغشيان بلادها وفي ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة إيطاليا لأحست بفقر شديد وذلك لما يبذره أولئك السياح من الأموال في جميع فروع الإنفاق. ولها أمثال في تاريخ إيطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف في تجارتها عن طريق البر التي كانت عمل هاته الجمهوريات حتى إذا قام الإصلاح الديني في أوربا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل إلى إيطاليا من الأموال بالطبيعة فافتقرت.

إن كل كنيسة من كنائس إيطاليا حرية بأن يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لي من الدهشة عندما رأيت كنيسة (الدوم) في فلورنسة مثل ما وقع لي من الدهشة عندما زرت كنيسة القديس بطرس [1] في رومية مقر البابوية ومهوى أفئدة البابويين في الأرض. ولكل مكان ميزته.

امتازت رومية بكنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وأنصابها في كل جادة وساحة ممَّا يستهوي الغريب ويستدعي دهشته كما امتازت جنوه بمقبرتها لتفنن الجنوبيين منذ القديم بتصوير الأموات على الرخام وهم بين أهلهم أو في آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما أن أكثر الأبنية هي الآن في إيطاليا ست طبقات ويضيق المقام لو أردت فقط الألماع إلى ما في رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فإنها خصت بكل أنواع الملاحة والراحة وهي مجمع الحسان الرومانيات كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع نظرك

---

(١) كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذي أقام قبتها

عليه في هذه المدينة الأزلية صاحبة المدنيتين الرومانية والنصرانية تقرأ فيه روح التفنن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح إلا قليلًا.

دخلت مرة مع أحد إخواني من مستشرقي الطليان لأزور كنيسة البانتيون فدهشت لما رأيت وإليك البيان: كنيسة البانتيون هي الكنيسة الوحيدة الباقية من عهد رومية القديمة بنيت معبدًا في سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم النصرانية في رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ في مجلس الشيوخ في القرن الثامن للميلاد من جملة ما ينبغي له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون.

وكان يدفن بها بعض قديسيهم وأعاظم رجال الدين عندهم وما راعني إلا وقد رأيت إلى جانب أضرحة رفايل (المصور النقاش المهندس المتوفي سنة ١٥٢٠) والمصور أنيبال كاراشي (المتوفي سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين والمصورين والنقاشين الطليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثاني المدعو أبو الوطن لأنه قام بالوحدة الإيطالية وخلف لذريته من بعده التاج الإيطالي بعد أن كانت أسرته لا تحكم على غير إقليم البيمون فقط وضريح ابنه همبرت الأول والد الملك الحالي الذي اغتيل سنة ١٩٠٠.

نعم أعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون في مقام التكريم إلى جنب القديسين والشهداء وهذا في تلك القرون التي كنا نظن فيها أوربا متوحشة وراقني أن يجيء ملوك إيطاليا اليوم ويحبون أن يدفنوا إلى جنب أولئك الصناع النوابغ أن لحد المهندس والمصور في أقدم كنيسة بل أهمها بعد كنيسة القديس بطرس والقديس بولس هو أكبر دليل على حب الباباوات لرجال الفنون الجميلة ولحد ملكين عظيمين إلى جنبهم هو أيضًا ممَّا يدل على روح التسامح الحديث على أن رافايل

المصور ليس في مكانته في خدمة أمته أقل من فيكتور عمانويل الثاني. فإن كانت باريز قد أقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء في العلم والسياسة في أوائل القرن الماضي فإن رومية تفاخر بأنها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ زهاء أربعة قرون. بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفينلون وكوفيه وفولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابليون وأضرابهم. وبانتيون رومية يحوي أمثالهم من رجال الطليان. فمتى يا ترى يقوم في الشرق القريب أعاظم من أبناء هذه الأجيال الحديثة يكونون في عقولهم وأعمالهم على مستوى أولئك الأبطال لتقوم بهم مدنيتنا على أحسن الدعائم كما قامت مدنية الطليان في هذه الأزمان.

إيطاليا والمشرقيات
٥٢

طمحت إيطاليا [١] في كل زمن إلى هذا الشاطئ من البحر المتوسط فحملت أولًا القوة والسلام الروماني ولما انحلت عرى هاتين المادتين تحت ضربات البرابرة عادت توجه وجهها إلى تلك الوجهة أيضًا لا إلى الشمال وكان البحر المتوسط ميدان عمل جنوة وبيزا والبندقية وأمالفي وباري وسالرن ولم يقنع تجارها بأن يغتنوا بالاتجار بأقمشة الهند وفارس وجزيرة العرب وأفاويتها وأبازيرها بل أخذوا يؤيدون النفوذ اللاتيني في آسيا الصغرى ومصر والحبشة وكان من انتشار الإسلام وقوته في القرن الثامن أن ضربت هذه الفتوح التي تذكر بفتوح رومية أيام عظمتها ضربة شديدة فاحتقر المسلمون إيطاليا على سمو مدارك أبنائها ومرونة أخلاقهم وأغاروا عليها فأدخلوا على قلوب أهلها الهول والفزع فكان الجلاد

(١) من مقالة لانطوان كاباتون في مجلة العالم الإسلامي الباريزية لخصناها في مجلة المقتبس ونشرت في المجلد السابع صفحة ٦٩٢.

عظيمًا ولئن وفقت إيطاليا إلى طرد العرب من صقلية فإن نجاح مدنها الساحلية في الجنوب قد تراجع وظلت جنوة وبيزا متأثرتين وعادت البندقية فوجهت وجهتها إلى آسيا الصغرى.

وكان من الحروب الصليبية أن تهيأت لإيطاليا أسباب الانتقام فإن هذه الغارات وإن كان باباوات رومية هم الذين أملتها عقولهم قد بذل فيها العنصر الإيطالي بما عرف به من الحمية الممزوجة بقليل من التبجح من حسن السياسة أكثر مما بذل من الشجاعة فاقتصر الإيطاليون في الحرب الصليبية على مرافقة جيوش أوروبا إلى آسيا وبينا كان ملوك الأمم الأخرى يقيمون ممالك صغرى في الأرض المقدسة كان الإيطاليون يقطفون ثمرات تلك الحملات. وقد ثبت هذا الدهاء السياسي الإيطالي في الحملة الصليبية الرابعة فإنه أنتج لجنوة وبيزا أن ربحتا كثيرًا واستأثرت البندقية بتجارة آسيا الصغرى وامتلاك أراض مخصبة على الشواطئ الشرقية من البحر المتوسط وجزء من الآستانة. ولما سقطت القسطنطينية في أيدي محمد الثاني سنة ١٤٥٣ حالت دون هذا السير النافع ومع هذا فإن البندقية بما أتته من عجائب المهارة وحسن المأتى بل بجهادها العلني قد احتكرت جميع تجارة أوربا مع الشرق.

وبهذا الاحتكاك المتصل تمت للبندقية على قوتها البحرية والتجارية معرفة الشعوب الإسلامية حق المعرفة أكثر من كل أوربا وكان من العادة الجارية مع طبقة التجار من أبنائها أن يتكلموا بالتركية والعربية ويألفوا بعض العادات والمصطلحات الشرقية ولكن جاءت قوة في القرون الثلاثة التالية أكثر من قوة البندقية على ما لها من الصلات التجارية مع العناصر الإسلامية فزادت عليها لأنها روحية تطمع في امتلاك العالم ونعني بها (البابوية).

فامتدت أحلام كنيسة رومية إلى الخارج ومطلبها أعلى من الربح المادي وكانت في عهد غارات الجرمانيين تحلم بالقبض ذات يوم على قياد الوحدة فأحسنت صلاتها مع المسيحيين بل مع الوثنيين في الشرق ممن تطمع في تنصيرهم وأدركت كل الإدراك الخطر الناشئ من امتداد كلمة الإسلام على أوربا المسيحية. ومع أن الحملات الصليبية قد أخفقت وقوة الإيمان قد انثلمت في القائمين بها ما برحت كنيسة رومية إلى أوائل القرن السابع عشر تطالب بأعمال أخرى وفي هذا العهد كان الضعف أخذ من العثمانيين.

بيد أن رومية شعرت في الحملة الصليبية الثانية أن السيف وحده غير كاف في مثل هذا الجهاد ورأت أن تعارض التعصب الإسلامي بطوائف متماسكين في اتحادهم من غيوري الأوربيين أو الشرقيين لتقطع أوصال المسلمين قطعًا أدبيًا بعد أن أوقفتهم عن سيرهم المادي. وما فتئت رومية منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر تحاول تنصير جميع الشعوب الآسياوية التي ظلت على وثنيتها فبعثت إلىٰ بلاد المسكوب وفارس وأرمينية والتاتار والتبت ومغوليا والصين والأرخبيل الهندي وفودًا من أهل الذكاء والحصافة ممن خلفوا لنا رحلاتهم ومذكراتهم اليومية وعهدت إليهم أن يسبروا غور أمراء تلك البلاد لينصروهم أو ليتحالفوا وإياهم على الأقل ضد المسلمين. وكان نصيب مصر والحبشة أيضًا البحث عن مثل هذا الشأن.

ولم تلبث الرهبنات العظمى أن أنشئت مثل الدومينيكانيين والفرنسيسكانيين واليسوعيين والكبوشيين والكرمليين واللعازريين ليكونوا جندًا مخلصًا في خدمة أمام الأحبار وتفتح تلك البلاد لدخول النصرانية إليها. فانبث جيش من الرهبان على اختلاف مظاهرهم في قارتي آسيا وإفريقية الشمالية لافتتاحها ونشر الإنجيل فيها ثم نشر المدنية الغربية

فحبط القائمون بالأمر أولًا ولم يهتدوا لأحسن الطرق في العمل فانهال الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون يفادون بأرواحهم ويصبرون على ضروب العذاب في سبيل دعوة الشعوب الإسلامية في إفريقية الشمالية إلى الدين المسيحي وكانت الطرق التي عمدوا إليها على تحمس فيها ممزوجة بكثير من الجهل فشعروا في الحال أن الضرورة تقضي على من يريد دعوة أحد إلى دينه أن يتكلم بلغته عل الأقل ليتفاهم الداعي والمدعو فنادى القوم من كل مكان بضرورة إنشاء مدارس لتعليم اللغات كان رايموند لول داعيتها النشيط.

فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ الذي كان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس في باريز وإكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية من شأنها تخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون في أديارهم دروسًا من هذا القبيل ليعدوا رهبانهم لنشر الإنجيل ومنذ ذاك العهد اصبحت إيطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين وكان أساتذة العبرية يتخرجون بأعلم العلماء الربانيين وأساتذة العربية كانوا ممن رحلوا إلى بلاد اللغة التي أخذوا يدرسونها ويصحبهم بصفة معيدين أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة ممن كانوا يعلمونهم العربية بالعمل ورأى هؤلاء القسس بحكم الضرورة أن ينتقلوا من اللغة العامية إلى اللغة الفصحى ليشتد ساعدهم في فهم المسائل الفلسفية ورد حجج المخالفين بأسلوب فلسفي أدبي.

ومن أجل هذه الغاية اهتموا أيضًا بمصر والحبشة ومن مدارسهم نشأ العلماء الأول من الأقباط والحبش والامحريين ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة إيطاليا فكان ينظر إلى تعلمها أنه

من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية. فقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة في عدة أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك نورماندیا وهوها نستوفين وفريدريك الثاني ودي منفروا لغة العلم العالي والشعر والأدب. وما كانت العربية على ما فيه من القصائد المقيمة المقعدة والعواطف المؤثرة لتحمل أمثال شارل دانجو على تحمسه لدينه أن يخاف عاديتها بل كان الأطباء والطبيعيون في قصره أما من الإسرائيليين أو من المسلمين المتسامحين في عقائدهم وكان الطب هو الجواز الذي سارت به الفلسفة العربية عندما قام جيرارد دي كرمون الشهير في أوائل القرن الثالث عشر في ظل دولة فريدريك الثاني يترجم بعض كتابات ابن سينا الفيلسوف.

وفي القرن الثالث عشر ترجم المعلم موسى من أهل بلرمه من العربية إلى اللاتينية كتاب ابقراط في أمراض الخيل فتسربت فلسفة ابن رشد من أمثال هذه الطرق ولم تلبث أن صادفت قبولًا بين ناشئة إيطاليا حتى شكا من ذلك جهارًا بترارك في القرن الخامس عشر إذ رأى في تلقف فلسفة ابن رشد دليل الإلحاد والازدراء باليونانية واللاتينية. وكثير من الأدباء والعلماء من غير طبقة الرهبان كانوا يرون من موجبات الفخر في القرن التالي أن يعرفوا اللغة العربية سائرين على سنة بيك دي لامير اندول

وعلى توفر بعضهم على نشر كتب في الجدل مع المسلمين حتى قبل أن يترجم القرآن بإحدى اللغات الغربية فإن عشاق العربية كانوا يرون من الحيطة ودواعي الغيرة أن يمرنوا أنفسهم على ترجمة رسائل في الطب ينقلونها عن العربية إذ لم يكن أحد يجهل مكانة العرب في هذا الفن وبذلك يرون أنهم ينجون من الاتهام بالزندقة وقد أصبح أندري اريفابن في البندقية حجة في هذا الباب وأنشأ هؤلاء المترجمون يبالغون النظر

فيما ينشرون فكان لهم أسلوب علمي حقيقي. ولما رأى أندري مونكاجون بللون في القرن الخامس عشر أن تراجم ابن سينا القديمة وأطباء بلاط فريدريك الثاني ليس فيها عناية ذهب يحكم دراسة اللغة العربية في دمشق وأتم تعليمه الشرقي بالرحلة إلى مصر وسورية وفارس وآسيا الصغرى رحلة طويلة وذلك قبل أن يعود إلى كلية بادو ليشرح لتلامذته فلسفة ابن سينا. وقصد جيرولاموراتوزيو أحد أطباء البندقية بلاد الشام أيضًا في سنة ١٤٨٣ ليتبحر في فهم فلسفة ابن سينا ويعلق شروحًا على ترجمته عليها.

وكان من سقوط القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان إلى إيطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الإصلاح إن هبت في أرجاء إيطاليا حركة النهضة العلمية التي تجلت في أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية ولا سيما في دروس العربية والإسلام.

كانت الحركة في تعلم المشرقيات عامة وإفرادية معًا انتشرت كثيرًا بفضل الكردينال فريدريك دي مديسيس في فلورنسا والباباوات في رومية والكردينال بورومة في ميلان والكردينال بارباريكو في بادو ومن تقدمهم مثل باباغانيني الذي نشر في مدينة البندقية أول طبعة من القرآن باللغة العربية ولكن هذه الطبعة لم تلبث أن أبيدت بغيرة دينية خرقاء وكان من الأسقف اغوستينوجويستنياني المشغوف بالدروس الشرقية ولا سيما العربية والعبرية أن قبل من فرنسيس الأول بتدريس اللغة العربية بعد أن صرف ثروته في اقتناء مجموعات من المخطوطات المهمة في العبرية والعربية والكلدانية والرومية وكان تيزيوامبرو كيوقومس (كونت) البونز مستشرقًا مدققًا.

وهكذا كانت إيطاليا كلما أولع علماؤها باللغة العربية وتشربوا روحها تميل كل الميل إلى الأقطار التي كان يتكلم فيها. وقد نشر اندريا أريفابن من مانتو أول طبعة إيطالية من القرآن بيد أن كل هذه الأعمال على جلالتها لا تعد شيئًا في جانب إنشاء مطبعة أسرة ميديسيس المالكة والمطبعة الشرقية لبث الدعوة ومطبعة بادو وكليتها وكل ذلك بغية تنصير المسلمين والوثنيين. فقد طبعت مطبعة ميديسيس ١٨ ألف نسخة من الإنجيل باللغة العربية سمته (أربعة أناجيل يسوع المسيح سيدنا المقدسة) وأرسلتها مع تجار لتباع بثمن بخس في البلاد العربية أو التي تفهم بها العربية على صورة حازمة لا يظهر منها المقصد الذي يرمي إليه دعاة الدين.

وكانت النية معقودة قبل كل شيء على إعلان حرب صليبية جديدة روحية على الإسلام يدخل إليها بالوسائل العلمية وعني الباباوات الأدباء أمثال ليون العاشر واكليمنتس السابع عناية خاصة بتأسيس خزائن كتب من المخطوطات تسلب من المسلمين الأعداء القدماء لتكون من ذلك مجموعات نفيسة في دار كتب الفاتيكان وكان غريغوريوس الثالث عشر لا يرى أحسن في النجاح من تنصير الناس وإبادتهم. وأنشأ يوليوس الثاني في مدينة فانو على بحر الادرياتيك أول مطبعة عربية احتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤ بنشرها أول كتاب طبع بحروف عربية وهو كتاب (صلاة السواعي) وكان في رومية مطبعة حجرية شرقية أنشأها سافاري دي بريف الذي ظل سنين طويلة سفيرًا لملك فرنسا في القسطنطينية وهو نفسه الذي حفر أمهات الحروف العربية التي نقلت عنها مطبعة الأمة في باريز أشكالها. ونشر منذ سنة ١٦١٣ كتاب التعليم المسيحي.

وظل الكردينال فرديناندي ميديسيس متممًا لذوق أسرته في حب المعارف الشرقية فابتاع مخطوطات شرقية باسم البابا وكان يدير بطرير

كيات أنطاكية والإسكندرية ومملكة الحبشة إدارة روحية وأنشأ على نفقته مطبعة ميديسيس وولى عليها ريموندي الذي ولد سنة ١٥٣٦ في نابولي وهي أكثر البلاد التي انتشرت العربية فيها. فكان باللغات الشرقية التي يتقنها ولا سيما العربية قدوة الداعين إلى تعلم المشرقيات ونشر بالعربية كتاب نحو وكتب ابن سينا وغيرها فكانت مطبوعاته بحسن طبعها ووضعها موضوع الإعجاب العام وبعد أن قضى ريموندي نحبه لم تعد أسرة ميديسيس تفكر في إعلان الحرب الروحية على المسلمين بواسطة الكتب بل عمدت إلى إحداث الاضطرابات العملية.

ولم تشأ رومية أن تكون في خدمة المعارف الشرقية بالمطابع والمكاتب والمدارس دون أسرة ميديسيس في بث هذه الدعوة لتنتشر بها الدعوة على الإسلام فقد صارت بفضل الباباوات ميدان درس كل ما يرقى عقول القسيسين الذين تنتدبهم رومية لفتح العالم فتحًا روحيًا يتخرجون في المدارس ما أمكن بلسان البلاد وعاداتها ومعتقداتها التي يريدون بث دعوتهم فيها ودار الكتب تتمم لهم هذه المعلومات فيعثرون فيها على ما سطره أسلافهم في رحلاتهم إلى البلاد التي عنوا بتنصير أهلها وما تلقفوه من معتقداتهم وعاداتهم ولهجاتهم وصناعاتهم ويقضى على كل قسيس أن يكتب بعد مقامه في القاصية كتابة أو رسالة تخدم هذا الغرض ومطبعة بث الدعوة تنشر كل ما يؤلف من هذا القبيل وتترجم إلى لغات شرقية كثيرة الكتب المسيحية والردود على الإسلام وكان للغة العربية الشأن الأول من بين هذه اللغات التي تطبع فيها المطبعة وهي عشرون لغة شرقية.

وما كان القصد من هذه العناية إلا دينيًا محضًا باديء بدء ولم يكن العلم علم الشرقي إلا واسطة تساعد على الجدل وكذلك اللغة العربية لم تكن إلا سلاحًا يقاتل به الإسلام ولذلك لم تر المدرسة الإكليركية

الشرقية في بادو غضاضة عليها أن تشتغل بالعلم المجرد أحيانًا للأثر الذي يحدث عنه وكانت المطبعة والمكاتب الشرقية من المتممات لتلك المدرسة لذهابها بفضل الشهرة وتأثيرها في الأفكار.

وقد تخرج بالأستاذين ماراسي وأغابيتو عدة من التلامذة باللغة العربية فصنفوا فيها وأفادوا وتعاقب اثنان من الكرادلة على أبرشية بادوكان كل منهما يتنافس في عصره في خدمة الدروس الشرقية. وهذا كان شأن ميلان فإن فريدريك بورومة بث فيها روح العلوم الشرقية وبعث منذ سنة ١٦٠٩ إلى الشرق يبتاع بالأثمان الباهظة كتبًا ومخطوطات شرقية فأسس المكتبة الامبروزية الشهيرة ولم يكثر تلامذة المدرسة التي أسسها لهذا الغرض بل كانوا قلائل امتازوا بإخصائهم وكان ثمة أساتذة خاصة من مسيحي الشرق أو المسلمين الملحدين ولطالما عطف عليهم ونشطهم وتخرج في مدرسة امبرواز أنطونيو جيجي باللغة العربية فكان لها مجدًا أثيلًا.

عد القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر ازدهاء الدروس الشرقية ولا سيما اللغة العربية في إيطاليا أما القرن الثامن عشر فكان عصر الانحطاط التام إذ قلت فيه حتى الغيرة الدينية والحماسة العقلية ولم ينشأ فيه سوى الكردينال ميزوفانتي الخارقة في إتقان اللغات المنوعة فكان مفخرًا للعلم الإيطالي وقد تقاسم جمهور الشعب اقيال وملوك متوسطون صار معهم إلى الشقاء والعبودية أما الطبقة العالية فقد حرمت من الاشتراك في إدارة شؤون بلادها ينهكها الاستبداد البليغ أو اضطهاد النمسا الشديد فنسيت في لذائذها المادية حريتها وعلو مزلتها العقلية.

وفي سنة ١٦٩٠ احترقت مطبعة ميديسيس ثم أعيد إنشاؤها وبعد أن تقلبت عليها الأحوال ونقلت إلى باريز بأمر الإمبراطور نابليون أعيدت إلى إيطاليا وفيها طبع أعاظم مستشرقي الطليان أمثال أماري وسكيابارللي



وكويدي كتبهم وما نشروه من آثار العرب. ولما فتح نابوليون مصر وأعلن للمسلمين بأنه يراعي معتقداتهم وحقوقهم وأنه لا أرب له إلا قتال المماليك أحلاف إنكلترا رأى أن يستولي على قلوب المصريين فظهر لهم بمظهر الحياد وحسن الخدمة وبعث يجلب مطبعة لبث الدعوة الشرقية من إيطاليا فأتته إلى مصر وأخذ يطبع بها الكتب خدمة للسياسة والتجارة

فأصيبت من ثم المطابع الشرقية في إيطاليا بضربات السياسة والحوادث وبقيت المدرسة الإكليركية وخزائن كتبها في بادو بمعزل وعلى ما عرف به المستشرق العالم بالعربية اسيماني من سعة الفضل فإنه لم يتيسر لبلاده أن يعيد الحياة للمشرقيات بعد أن انطفأت جذوتها بالفتن والكوائن وانقراض بيت ميديسيس. ونشأ للعربية أستاذ في القرن الثامن وهو القس فللادرس في كلية بلرمة ونشر بعض الكتب ولكن القرن التاسع عشر امتاز بآدابه كما امتاز بالحياة في إيطاليا التي هبت قوية حرة وراحت ترفرف على كل ما كان فيه مجدها أيام تاريخها المجيد فأزهرت فيه الدروس الشرقة ولا سيما الدروس العربية والعلوم الإسلامية. فكانت الولايات الجنوبية في إيطاليا تخرج أبطالًا في المشرقيات أمثال المؤرخ والسياسي ميشل اماري الذي نشر أحسن تاريخ للمسلمين في صقلية وكثيرًا من الكتب التي تدل على فضل علم وتدقيق. كذلك يقال في دروس العربية في كليتي فلورنسا وبيزاء وعاصر أماري الأستاذ سكيا بارللي مدرس العربية في فلورنسا ثم بونازيا مدرس كلية نابولي واغناس كويدي الذي هو اليوم أحد الزعماء المبجلين من علماء المشرقيات من الطليان وهكذا نشأ لإيطاليا أجلة من المتبحرين في علوم الشرق ولغاته وأمراء يفضلون على العلماء في طبع ما يلزم ونشره.

وكان امتياز إيطاليا قديمًا بنشر المعارف في كل البلاد فأصبحت كذلك في عهد وحدتها تريد أن تجعل لكل إقليم حظًا من هذه الخدمة

ولم تلبث صعوبة الحياة الحديثة والأطماع القديمة التي يظهر أنها اليوم العامل في حياة الممالك الأوربية أن تحدو إيطاليا السياسية إلى الانتفاع من هذه المعارف النظرية انتفاعًا عمليًا

وإذ كانت مصر على قربها من إيطاليا وغناها وعراقتها في الإسلام ممّا يكون منه الخطر كانت هي أول غاية انصرفت إليها كهنة الطليان وتجارهم وكانت إيطاليا منذ القرن السادس عشر مركزًا لتعلم الآداب القبطية وقد أنشأت تعلم علم الآثار المصرية والقبطية في بيزا لتثبت بذلك أنها لا تريد أن تكون غريبة عن علم كانت لها القدم الراسخة قديمًا في الإبداع فيه وكانت للغة الحبشية المقام الأول في إيطاليا لأنها رأتها أقرب إلى بث الدعوة في نساطرة الحبش وإن التجارة تمكن بدون أن يصطدم الإيطالي مع الإسلامي الذي لا يتساهل.

وفي أوائل القرن التاسع عشر أنشأت إيطاليا مجمعًا ومدرسة لتنصير الإفريقيين وتعليم دعاة لهذا الغرض تأخذهم من أبناء تلك البلاد وتربيهم ليعودوا إلى مساقط رؤوسهم يحيون فيها روح دينهم الجديدة ولكن هذا العمل في التنصير أخفق لما حال أمامه في كل مكان من بث دعوة الإسلام ونشر الدعوة البرتستانتية فاقتصرت إيطاليا من ثم على غرس نفوذها في تلك البلاد وإعداد الأسباب للمطامع الاستعمارية. ولما سحقت الحبشة لإيطاليا سنة ١٨٩٥ جيشًا مؤلفًا من خمسة وسبعين ألف إيطالي في أدوا اضمحلت آمال إيطاليا وقنعت بما ترك لها من الموانى هناك وراح أبناؤها ينتشرون في تونس ومصر وعلماء المشرقيات المتضلعين من العربية من أبنائها يرفعون شأنها الماضي في الحضارة وتقاليدها القديمة في النصرانية.

واتفق أن أحد رجال البيت الخديوي الأمير أحمد فؤاد باشا (عظمة الملك فؤاد الأول ملك مصر اليوم) تعلم في المجمع العلمي العسكري في تورينو فكان منه بعد ذلك أن عقد أنفع الصلات مع إيطاليا كما بدأ ذلك منه سنة ١٩٠٨ وقد عين رئيسًا للجامعة المصرية لتعلم العلوم الحديثة للمصريين ونظم الجامعة بمشورة عالم فرنساوي مشهور المسيو مسبرو وكانت أكثر الدروس تلقى بالعربية فكان من الأساتذة كويدي ونالينو ومالو الإيطاليين الذين درسوا الدروس التي عهدت إليهم بالعربية.

ومن ذاك العهد مالت الأفكار في إيطاليا إلى طرابلس الغرب لتكون لها أهراء حنطة كما كانت للرومان قديمًا وذلك لأنها بصرف المال وبذل الوقت والعناية بزراعتها سيكون منها مورد ربح عظيم وتجد فيها اليد العاملة من الطليان مجالًا واسعًا للاستعمار فرأت إيطاليا أن يكون الفتح الاستعماري مشفوعًا بالرفق والرحمة والتساهل في معاملة الشعوب الإسلامية وأن يكون أساس الاستعمار في تلك الأقطار المصالح الاقتصادية وأن تدار البلاد بأيدي أعظم رجال الإدارة ممن تعلم منهم وزارات المستعمرات الأوربية دروسًا في الاستعمار.

وأخذت إيطاليا بتنظيم كلية بادو التي كانت اتخذتها جمهورية البندقية منذ قرنين مدرسة لتخريج رجال سياستها وتراجمتها وسماسرتها تدرس فيها العربية والفارسية والتركية ولا سيما العربية وستعنى هذه المرة بالعربية أكثر ليكون من متخرجيها أعظم الإداريين المستعمرين لليبيا وتضاف إلى دروسها اللهجات البلقانية المنوعة ممن تتجر معهم البندقية وإيطاليا. ولمدينة جنوة درس عربي طالما تناوب تدريسه أعاظم مستشرقيها وهي اليوم تطالب بأن يكون لها امتياز بتخريج رجال الإدارة والاستعمار بإنشاء كلية بحرية استعمارية فيها وكذلك سيكون من كلية بولون أثر عظيم في تخريج رجال بالعربية كما لها منهم حظ ليس بقليل

الآن. وفي رومية في مدرسة الدعوة إلى الإيمان درسان للعربية والسريانية وكذلك مدرسة القديس أبولينير فإن درس العربية يدرسه فيها الأسقف بوغاريني وتفتخر كلية الحكومة اللادينية في رومية بأن فيها درسًا للغة العربية وآدابها بزعامة الأستاذ سكياباريللي والحبشية تحت نظارة كويدي. وفي جنوب شبه جزيرة إيطاليا المملوء بتذكارات إسلامية والقريب من حيث الوضع الجغرافي من بلاد المسلمين كلية بلرمة التي يدرس العربية فيها كل من الأستاذين نالينووبوونازا واقتصرت نابولي على تعليم العربية بالعمل كما تعلمها بالنظر أيضًا وفي نابولي مجمع شرقي يعلم بالعمل اللغات الحية في آسيا وإفريقية وفيه تلامذة صينيون وهنود وبلغاريون وصربيون وفلاخيون والبانيون ويونان. وفي سنة ١٩٠١ أعيد تنظيم هذا المجمع على مثال مدرسة اللغات الشرقية في باريز ويمتاز بأن دروسه مجانية ولا يمتحن الطلاب فيه.

سويسرا
٥٣

أصحيح أن القطار غدًا يخترق العقاب والشعاب. ليخلص من إيطاليا مهد المدنيتين الرومانية والنصرانية. إلى سويسرا جنة أوربا بل جنة الدنيا، ومدرسة العمل العليا، وأبهج مصيف ومشتى لملتمس الراحة والسلوى.

أيكتب غدًا للروح أن تطمئن قليلًا في أشرف ديار، عرفت في باب حرية الأديان والأفكار. ويشهد الطرف حسناء ضمت إلى صدرها شمل المدنيات العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الأرضية والسماوية. بلاد خص كل شبر منها بمزية غالية عالية، وتعاورتها الأيدي بالتحسين

والتزيين والتطرية، فلم يتصور العقل الآن أرقى من نظامها ولا أبدع من طرازها وهندامها.

أصحيح أن هذه المدينة الفاضلة، دهشة الأمصار والأقطار، وزبدة جهاد القرون والأعصار، المغبوطة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع، على قانونها المتكامل، وأمنها الشامل، سيكون للنفس قسط من الراحة في رباعها البهجة شهرًا من العمر يعد كألف شهر، فتستمتع الحواس بعجائب صنع الديان والإنسان وآخر حسنات العمران في هذه الأزمان.

سلام عليك يا جمهورية السلام والوئام. عقمت الأيام أن تنشئ مثلك. أنت الوحيدة في العمل بتعاليم السيد المسيح بين الممالك الغربية فلم يعد عليك أن جوزت بعد تحضرك قتل النفوس لامتلاك النفائس ولا أن ظلمت شعبًا آمنًا لاستصفاء بيته وحقله، ولا أن هتكت أستارًا وأعراضًا، لتغنمي عروضًا وأعراضًا، بلى كنت من خير من عطف وعلى مدحور ومظلوم، وأكرم مثوى وافد مقهور مغمور، وعلم طالب علم وصناعة تعليمًا مجردًا من النزعات المذهبية والنزغات السياسية، ومسلاة كل متعب راغب في التفرغ لنفسه، لقنت الأمم معنى الحكومة الصالحة في الأمة الصالحة، وحققت بالعمل معنى تضامنك في شعارك (الواحد للكل والكل للواحد) فحكمت نفسك بنفسك حقًّا وصدقًا، لا كذبًا ورياءً.

هذه الوجوه النضرة التي تهش للغريب، كما تهش للقريب، هي صورة صحيحة من أخلاق هذا الشعب القليل بعدده، الكثير بفضائله وعدده، فإن كان هنا لا يتجاوز إحصاء المكين، أربعة ملايين، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو مترًا مربعًا، فلكم كان القليل العالم، خيرًا من الكثير الجاهل وعظمة الأمم بعلمها وعملها. لا بوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها: سويسرا تفاخر وحق لها الفخر بأنها اليوم لا تعرف الأميين إلا بما تقرأه

عنهم في صحف العالمين. فهل عهد مثل هذا النور لأمة في القدماء أو المحدثين.

يخيل للناظر أن هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا قد أخذت من هذه المدنيات الأربع أطايبها، ولعله لا يخطيء من قال إن هذه الممالك أخذت كثيرًا من أطايب ما عند سويسرا، فجاءت هلفسيا أو سويسرا مجموعة الإبداع في البقاع والأصقاع، وسلسلة مفرغة في المحاسن لا يعرف أين طرفاها، تقاسمت القرى مع المدن، والأودية مع الجبال، آثار الجمال والكمال فعز لها قسيم في استهواء القلوب بين هذه الديارات، بل بين الخمس من القارات وما ظرف عمران الألمانيين والفرنساويين والإيطاليين والنمساويين، إذا قيس بظرف بلاد السويسريين إلا كالنضارة في خدود فتاة العشرين، في جنب نضارة ابنة الأربعين.

لا جرم أن هذه الجمهورية الرشيدة هي التي وصفها للناس أفلاطون وروسو فكانت بما وفقت إليه، ممَّا يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان، وذكر المجردات لا يقنع بقدر الإدلاء بالحجة، ولذا نقتصر على طرف ممَّا عرفناه وعرفه غيرنا عنها. كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى أن يثمر ذلك فائدة لمستفيد وعبرة لمعتبر في شرقنا المتخدر الأعصاب، منذ أحقاب الذي كادت تدمع لحاله عيون الأعداء، بعد أن أدمى مقل الأحباب.

سويسرا الأفراد والأسرة
٥٤

أول ما يبده الداخل إلى أرض سويسرا: الخضرة والنظافة. فإنها كلها أشبه بحديقة في وسطها مصايف من أجمل ما بنى المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هي في سويسرا الفرنساوية أو منقوشة كما هي في الشمال الشرقي أو من الخشب على ما تراها في أوبرلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين أو ثلاثة. والغربيون مولعون بإبقاء القصور القديمة مهما كانت ويؤثرونها على الجديد من نوعها. وداخل البيوت على مثال خارجها في الحسن حذو القذة بالقذة.

أدخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة وإلى منازل الطبقة العليا أو الفلاحين، وإلى قصور الأغنياء أو المقترين. تجدها كلها متناسقة بنظافتها، وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز في الصباح والمساء على السواء، وما أنس لا أنس تلك النظافة التي شهدتها في المنزل الذي حللت فيه في مدينة لوزان المطل على بحيرة ليمان ومن ورائها جبال الألب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج، إلى أن تدخل المنزل، وتجلس في غرفتك. إلى المائدة، إلى الطعام المنوع المستطاب. إلى أحقر شيء في الدار.

ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف في الأرض والنوافذ والدرفات وتنفض الستور والأغشية والكراسي والمقاعد والخزائن والمناضد والزروع الموضوعة في الأصاصي دع التحف

والصور والتماثيل الصغيرة ومصابيح الكهرباء وغير ذلك ممَّا لا تخلو منه دار في الجملة، كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هذا الحال خاصًّا بالبيوت والفنادق فقط بل إنك تراه في الشوارع والأزقة على صورة مكبرة فإن الأوساخ الخفيفة لا تلبث أن تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث أن يتساقط ٢٠ سنتيمترًا وأكثر إلا ويرفع من الطرق، وكل شارع وجادة وساحة وسوق ينظف ويغسل بلا أمهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب: (النظافة أثر من آثار النظام والعمل) والشعوب النظيفة هي التي تحب أن ترى كل شيء في مكانه تقاسي ضيقًا حقيقيًا بل ألمًا مبرحًا إذا شاهدت الخلل ليست النظافة ابنة الكسل لأنها تستوجب من الأفراد والحكومة عملًا وجهادًا متواصلًا ويستدعي أن تحث عليه الحكومة المحكوم عليهم كما هو الحال في سويسرا فإن بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد في هذه الحالة من النظافة التي تعجب لها أرقى أمم الحضارة دع شرقيًّا لا يكاد يقع نظره في بلاده إلا على أقذار في الشوارع والساحات والحارات بل في البيوت والحوانيت وخللًا في كل شأن من شؤون الحياة الراقية.

وكان من أثر هذه المفاداة التي فادت بها بلديات سويسرا في منصرفياتها أو مديرياتها الاثنين والعشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح وأحسن معلم لبث أفكار النظام والوقار والرفاهية.

تتبارى الحكومات والمديريات والإدارات الخاصة والعامة في مضمار النظافة فتجد أقفاصًا من أسلاك لطيفة موضوعة في المدن في كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور أو الأوراق وربما سار الواحد عدة أمتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة، وذلك لأن كل سويسري لا يحب أن يرى متنزهه وشارعه وحيه إلا كما يرى بيته طاهرًا نقيًّا ليس فيه ما ينبو عنه النظر. وكيفما انقلبت في

سويسرا في القطارات أو المراكب في المحطات والإدارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الأمة السويسرية. وربما نسى الغريب أن يضع ما استغنى عنه من الورق أو غيره فيشير إليه الأهلون بوضعها في محلها بل إن المفتش في القطار لا يستنكف أن يرفع أوراقًا تتساقط من ركاب قد يكونون في الأكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين في النظافة في كل شيء.

ما كانت النظافة في فطرة السويسريين أو جنسهم بل هي كسبية وثمرة تربية طويلة ومدنية باهرة. ولا جدال في أنهم بنظافتهم أرقى من سكان الجنوب والغرب أي من الطليان والفرنسيس نعم ما كانوا أمس كما هم اليوم و الدليل على ذلك أن من البلاد السويسرية ما لم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التي لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة الفالي والكريزون والرينتال، وهي إذا قيست بمقاطعات زوريخ وفو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ولا يزال في المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ أحياء قليلة على شيء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ولكن مثل هذه الأحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تطهر بأسرع ما يمكن وهي نموذج ممَّا كانت عليه سويسرا قبل خمسين أو مائة سنة فاستطاع أهلها بالتربية أن يحرزوا فضيلة النظافة التي أصبحوا فيها قدوة الأمم الراقية.

تساءل الباحثون في حال هذه الأمة فيما إذا كان للدين تأثير في نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره البردوزا في كتابه (سويسرا الحديثة)[1] أن الدين أثر بالواسطة لا مباشرة وأن للتربية العملية المقام

(١) سويسرا الحديثة لالبردوزا Albert Danzal: La Suisse Moderne

الأول. فالمقاطعات التي سبقت غيرها في مضمار العلم وأحب أهلها النظام وتفانوا في المحافظة عليه كالمقاطعات الألمانية في الشمال وأهلها بروتستانت هي أكثر نظافة من مقاطعات الجنوب أي الفالي والتسين والكريزون وأهلها كاثوليك وذلك لأن سكان هذه إيطاليون والإيطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الألمان وكذلك في التعليم. ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتي الفو ونوشاتل وهما من جنس فرنساوي لا تقلان في النظافة عن مقاطعتي زوريخ وبرن الألمانيتين.

ومهما يكن من أصول السويسريين ألمانًا كانوا أو إفرنسيسًا أو إيطاليين فإن سويسرا أشبه بفسيفساء من الشعوب والعناصر تلاقت وامتزجت وتعاشرت لا تفرق بينهم إلا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من سحناتهم فإن أهالي مقاطعتي الفو وفريبورغ وإن كانوا فرنسويين بلغتهم فالسحنات الألمانية غالبة عليهم وكذلك ترى في بعض المقاطعات الألمانية التي تتكلم باللغة الجرمانية أيضًا منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان

نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك بامتزاج الفكر الجرماني بالفكر اللاتيني فأخذ السويسري عن الألماني صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات و الحقائق واقتبس من العنصر اللاتيني تقاليد البشاشة والأدب وجودة الحكم وحسن التقليد والظرف والرأي الديني في ابن مقاطعة تسين لا يماثل الرأي الديني في ابن مقاطعة لوسرن وإن كان كلاهما يدين بالكثلكة. والسويسريون الألمان أشد نظامًا من السويسريين الفرنسويين ويغالي الأولون بالأكثر في توطيد سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم القديمة وحرياتهم

المحلية وخصائصهم على العكس في السويسريين الفرنسويين فإن هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

والسويسري على اختلاف أصوله ولغته إفرنسيًا كان أو ألمانيًا قليل الفضول لا يسألك في الفندق ولا في الشارع إذا تعرفت إليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك ولا يسألك أسئلة لا تحب أن تجيب عليها على العكس في السويسري الإيطالي وهو ساكن في الجنوب طبعًا فإنه يملل نزيله وصاحبه بأسئلته، ومن ترك الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ في أمم أوربا وأميركا حسن الظن بالسويسريين. فاختاروا سويسرا مصيفًا ومشتًى لأن من تلك الأمم ولا سيما الشعوب الانكلوسكسونية من لا يحب أن يسمعك صوته فضلًا عن أن يطعلك على عجره وبجره.

وهذا الخلق سري للحكومة وهي وقانونها صورة من صور الشعب. أكتب هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يومًا وأنا لم أر سوى ثلاثة أو أربعة من رجال الشرطة بالعرض أقامتهم المديرية بداعي الأعياد فقط ولم أر سوى جندي واحد، هذا والمدينة لا تقل نفوسها عن سبعين ألفًا وفيها على الأقل عشرون ألف غريب.

هذه هي الجمهورية السعيدة التي أسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والتربية هذا المبلغ من الرقي. وإن أكثر ما يقع في هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التي لا تخلو منها أرض لا يكون على ما رأيت من أنباء الصحف إلا من بعض الغرباء وأكثرهم من الطليان والأروام. فبوركت بلاد هذا حالها.

سويسرا النساء والرجال

٥٥

السويسري كالإيطالي والألماني والإنكليزي كثير الولد والذرية وأولاده لا يعدون بالزوج بل بالعقد وبلغني أنه ولد لأحدهم من زوجة واحدة ثلاثون ولدًا (فقط لا غير) أما الأزواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولدًا فهؤلاء أكثر من أن يحصوا فأولاد السويسريين كالبيض أو البرتقال يعدون بالخمسات والعشرات. وترى الأبوين لا يدهشان لكثرة نسلهما فإنهما في الأغلب يلبسانهم ولاسيما في القرى البسة بسيطة للغاية لا تختلف في الصيف عن الشتاء كثيرًا ويطعمانهم ما حضر من الطعام وأكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الأسمر وقد لا يطعمانهم اللحم إلا قليلًا أمَّا الخمور فهذه لا تكاد تعرف لأنها محتكرة للحكومة وأثمانها فاحشة لا يصل الفقير إليها وليست كل المقاطعات ممَّا تجود فيها الكرمة.

يلعب الأولاد حول أمهم وفي الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون إلى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى إن ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالًا من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا. فتراها من المدرسة إلى النزل تخدم في الأوقات المتيسرة لها إلى تربية أخيها أو أختها وتعهده إلى بيت فلان تغسل لهم الأواني أو غير ذلك.

والحكومة تحول دون الأولاد وما يشتهون أحيانًا فإن أكثر الحدائق العامة لا يستطيع الأولاد أن يدخلوها إذا كانوا دون الخامسة عشرة إلا إذا كانوا مع كبير من أهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفي بعض

المقاطعات يحرم على الفتى أو الفتاة دون الخامسة عشرة أن يخرجا إلى الشارع بعد الساعة السابعة ليلًا وفي أخرى لا يحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل إن له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين.

انتشر فكر الأسرة كثيرًا في سويسرا وذلك بتداخل الحكومة أيضًا التي جعلت في جملة المرغبات في الزواج إعفاء المواريث من كل رسم إذا انتقلت إلى وارث حقيقي مباشرة كالابن ونحوه وأما إذا كانت تنتقل إلى الأباعد فإنه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة.

وبينا ترى الحياة الصناعية في أوربا بأسرها قد عاقت كثيرًا عن تأليف الأسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر في ربوعها البيوت وذلك بأن العامل أو العاملة يعمل في داره ما يعرفه من أنواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك. فابن القرى يعمل وهو في بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعي طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من أبناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها وأقفار الأرياف. فإن خلو الدساكر من سكانها هو من أول أسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة إلى أميركا مباشرة وكما هو كذلك في فرنسا في الهجرة من قراها إلى مدنها والخطب أسهل.

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة في قريتها ما تحسنه من الصناعات في المعمل أو في بيتها بدون أن تنقطع عن محيطها وأسرتها وأن تتخلى عن تدبير منزلها والمرأة السويسرية مشتهرة بأنها لا تحب الظهور كل ساعة للناس وهي مخلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتفكر كثيرًا بحيث إن السفاسف والزينة لا تشغل من قلبها مكانًا

فهي امراة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتمامًا غريبًا وتظهر حبها للنظام حتى في عواطفها.

ما من بلد في الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هي في سويسرا فهي قرينته في عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشئ ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبه وقد بلغ سنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللائي يعملن في الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حرة ١,٥٧٥,٠٠٠ امرأة. هذا في شعب هو أقل من أربعة ملايين فإذا فرضنا أن النساء ١٩٠٠٠٠٠ في سويسرا وأخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لا يبقى إلا عدد أقل من القليل غير عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال وقد أحرزن منذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات أمَّا حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فإنها قلَّما تهمهن ولذلك كان النساء في التجارة والصناعات الحرة أكثر من الرجال. قال لنا رئيس تحرير جريدة (غازت دي لوزان) إن الناس هنا يعملون مهما كانوا أغنياء ولا تكاد ترى عشرة في مدينة لوزان لا عمل لهم على كثرة أغنيائها وأرباب الأملاك فيها.

الأخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لأن ذلك يستدعي أوقات فراغ والفراغ لا يعرفه السويسريون والسويسريات. ثم إن المناخ لا يساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس ممَّا يحمل على الرغبة في الحياة البيتية. وسويسرا مثل هولاندة أقل البلاد الأوربية التي يولد فيها أولاد غير شرعيين فهي من هذه الوجهة أقل من ألمانيا ثلاث مرات. وسبب قلة العهر العمل بلا شك لأن رأس البطال معمل الشيطان.

متى تزوجت المرأة السويسرية تصح عشيرة الرجل حقًا فهي يوم الأحد تذهب وإياه إلى الكنيسة وفي المساء إلى القهوة. والسويسري يجد في عطلة الأحد أحسن فرصة له لأنه يتخلى عن عمله فلا يطلب من أسباب السرور إلا أن يكون مع أهل بيته ويقل اختلاط الشبان والشواب في أوقات الفراغ حتى يوم الأحد اللهم إلا في الأعياد السنوية النادرة التي تقام فيها مراقص. ويذهب الشبان أيام الآحاد إلى الكنائس ولا سيما البرتستانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويعربذون قليلًا ولكنهم يوم الاثنين في الساعة المعينة تقرأ الرزانة في وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه في الحياة الاجتماعية.

تذهب الأسرات مساء الأحد ولا سيما في سويسرا الألمانية إلى أحد الفنادق أو القهوات فترى الأمهات والنساء والأخوات جالسات إلى منضدة بالقرب من أبنائهن أو أخواتهن أو أزواجهن يشربون جعة وقهوة وقليلًا جدًا من المشروبات الروحية والرجال يدخنون وربما غنى الحضور ولكن أغاني وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا أغاني هزلية أدبية ولكن لا غرام فيها ولا عشق.

المرأة السويسرية قد يعالجها الهرم في الغالب أكثر من غيرها من النساء المرفهات في أوربا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزيد في عقلها ويبقي قلبها على نضارته وأخلاقها على سذاجتها. والسذاجة خلق من أخلاق السويسريين والسويسريات والسويسري وسط بين حرية الغالي (الفرنساوي) ورصانة الإنكليزي. ولئن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لا محل لها من الإعراب في جملة حال السويسري فهو مع ذلك لا يخامره ريب في صحة أخلاق بناته وزوجته ويعرف أن اختلاطهن إذا اقتضى

الحال بالرجال والخلوة بهم أو رؤية التماثيل المعراة في المتاحف وعلى قارعات الطريق ممَّا لا يلقي أدنى اضطراب في عفتهن. ومن لم يكن له من نفسه وازع لا تحول الحواجز والأستار بينه وبين ارتكاب الرذائل.

سويسرا: الصفات الاجتماعية

٥٦

أول ما يبده المسافر في سويسرا ضبط المواعيد فإن السكك الحديدية كما هي في أكثر بلاد العالم المتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهوينا في أصقاعها كأنها هي أيضًا تحب أن تمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الأعمال تسير عجلة في بطء ولا حاجة لأن يعجل المرء هنا في المبادرة إلى المحطة لأن العالم كلهم مدققون في أوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها.

الصلابة والثبات صفتان لازمتان للسويسري وقد كان المشهور أن الفرنسويين أكثر الأمم اقتصادًا ولكن ظهر أن السويسريين يفوقونهم فإنهم أول أمة أوربية تحسن استخدام أموالها ويليها الأمم السكاندينافية وقد تجاوز ما وضعه ١,٣٠٠,٠٠٠ من السكان في صناديق التوفير مليار فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا ممَّا لا يكاد يكون له نظير: ثلث الأمة تقتصد وتجمع المال الذي لا تحتاج إليه.

لا تردد في أخلاق السويسري يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو إما أن يقول نعم أو لا. ليتمثل لك ذلك في المشاريع واللوائح التي توضع ويسن ممَّا يقتضي تنفيذه عند غيرهم سنين. أما هنا فإذا أريد القيام بعمل تبدأ الصحف بإعداد الأفكار له وتلقي المحاضرات فيضع أحد النواب أو

الحكومة مشروع القانون الجديد وإذا اقتضى الحال تصدق عليه الأمة ويخضع له كل الناس وإذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسري يصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فإن من الخطوط ما يمد في عشرين سنة ولا يكون طوله أكثر من عشرين كيلو مترًا ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهي في الآخر.

إذا كان السويسريون عنودين فذلك لأنهم عمليون لا نظريون في أعمالهم قلمّا يطيرون وراءالخيالات. وقديمًا نبغ في السويسريين فلاسفة أمثال جان جاك روسو الذي ولد في جنيف أمّا اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ لهم أهل عمل أقرب إلى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج فخلف رجال الأعمال رجال الخيال.

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة في بلاد شحيحة بخيراتها صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لا تسير به الحركة الاقتصادية على محورها. فليس فيها فحم حجري ولا معادن للصناعة ولا شواطئ بحرية ولا أنهار عظمى للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى أقيمت على التخوم في الجنوب والشرق والشمال وربعها غير صالح للزراعة لأنه مألف الثلوج والجليد طول السنة أو صخور لا ترتقي وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشتاء يطول ويشتد في بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج برمتها وبحيرات هي كالخال في عنق ذات الجمال والدلال ولكن الإنسان العاقل يغلب الطبيعة أو يعرف كيف يستخدمها فإن تلك الحواجز الجبلية قد خرقتها السكك الحديدية بحيث إن سويسرا بعد أن كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين إيطاليا وألمانيا أصبحت الصلة اللازمة بينها شق القطار جميع الأصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع البعيدة عن

التركيب الاجتماعي يحمل إليها مائية الحياة الاقتصادية. ورشاشة من بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجري الأسود بما عندها من الفحم الأبيض وأحسنت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الأولية تجلب من الخارج ولكنها تعود بأرباح فائقة فإن ثلاثة أرباع صادراتها هي من حاصلات بدلت فيها اليد السويسرية وغيرت مثل القطن والحرير والشكولاتا وأنواع المطرزات والساعات

أحسنوا هنا استخدام جميع التربة الصالحة للزراعة على أحدث الطرق الزراعية المنوعة فوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن والزبدة والجبن حتى إن بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ في المئة من البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من إقامة الفنادق والإنزال ليأوي إليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون أن يرجعوا شهرًا أو شهرين إلى الطبيعة فليس في سويسرا حيوانها وجمادها وإنسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر في سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك في حياتهم العامة فلا تجد في الممالك مكاتب أشغال تنظر إلى الجواهر لا إلى العرض مثل مكاتبهم ولا إدارات أقل تشبثًا بالأعمال القرطاسية من إداراتهم. فهم في هذا الباب يصلحون أساتذة للفرنسيس والطليان والألمان. دخلت كثيرًا من المصارف والبيوت المالية في مصر والشام وباريز وروميه فلم أشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التي يتلقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذاك التطويل الممل الذي يشاهد في مصارف الشرق والغرب على الغالب وهكذا هم في كل أعمالهم الاشتراكية الاجتماعية. ومن أغرب ما يسمع أن مدينة بال ارتأت أن تستوفي الضرائب من الأهلين في بطاقات بريدية فتم هذا العمل في أسرع ما

يمكن ولم ينتظر المكلف في شباك البريد أكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفًا من أجور الجباة وتيسيرًا على الناس.

اختار السويسريون السهولة حتى في أصول التعليم في مدارسهم فلا يخرجون اليوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال أعمال لا رجال آمال وخيال يخرجون رجل الغد على ما ينبغي له في جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والأدباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين. يعلمون أمورًا تنفع الطالب في الحال ويلقنونه العمليات وحب الأعمال المنتجة. يرى السويسريون الآن في الأمة كثيرًا من المخترعين المتوسطين والمتفننين الجائعين والكتاب الذين لا قرائح لهم وكلهم لا فائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وإن كان متوسطًا أفيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقي لا ينتفع به في شيء.

ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب أقطارها فكلية بال مثلًا يتفنن أساتذتها في تعليم الطلاب حسن استخدام الألوان في كل أبحاثهم الكيماوية لأن البلاد صناعية ولكليتي زوريخ وفريبورغ فرعان تجاريان ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعي في سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمصالح في كل مقاطعة فالمدارس الزراعية منوعة وهي مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسري تمنحها إعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفي سويسرا مدارس نظرية وعملية زراعية ومدارس زراعية للشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدرار الألبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات أو للبلديات ونقيم شركة التجار السويسرية كثيرًا من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا

المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل.

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التي لا يستطيع فيها المرء بمفرده أن يعمل ما يقاوم الطبيعة التي لا تشفق أحس السويسري بضرورة التضامن وشعر بالحاجة إلى التساند والعمل يدًا واحدة وترتيب الجهاد على ما يجب الجبلي قاس وفطري وهو كريم المثوى وإقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كما هي عند الايكوسيين في إنكلترا أو العرب في بلادهم ولا تزال هذه السنة إلى اليوم كما كانت أمس ولكن الأجيال الجديدة مالت إلى الحقائق أكثر من أجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهي صناعة الفنادق والإنزال.

وربما يبلغ التضامن عند أمة ما بلغه عند السويسريين فإن حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات أكبر دليل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ أحقاب فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الأخويات القديمة حتى ارتبط المستخدمون والتجار والصناع والزراع في سويسرا بنقابات لا ليكون من أثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والإضراب عن العمل بل ليكون منها عموم النفع والشركات المحلية متحدة كل مديرية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهذا في جماعات العملة والمعلمين. وأصحاب الفنادق بل المطاهي متحدة بعضها مع بعض وما الحكومة السويسرية إذا نظرنا إليها من حيث المجموع إلا اتحاد واسع من النقابات السياسية.

لا تزال بقايا الملك المشترك الذي كان معروفًا في القرون الوسطى في الغرب ولم يبرح معروفًا بعضه في الشرق قائمة على أتمها ولا سيما في الأصقاع التي بقيت على فطرتها فإن السكان إلى الآن في وادي

انيفرس يحلبون الأبقار بالاشتراك ولكل الحق على نسبة ملكه في حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال عشرين سنة سوى شكويين وكثيرًا ستكون بقرة أو بغل أو بيت مشاعًا بين عدة مالكين وكثير من المراعي الجبلية هي أملاك بعض رؤساء الأسر وفي كل قرية تملك الأسرة بيتًا خاصًا أو مشاعًا بين أهلها.

وصناعة الجبن في أكثر بلاد سويسرا تقوم بأيدي شركات مرتبطة بجماعات المستخرجين للحين وفي مقاطعة الفالي حيث تقل المياه تروى البلاد بأقنية جلبت مياهها من بعيد على مسافة ٤٨ كيلو مترًا وكل قناة عملت وأديرت على يد جماعة من أرباب الأملاك ينتخب رئيس شركتها أصحاب الأراضي التي هي آخذة بالتقسيم والتجزئة.

وبعد فإذا كان الشعور بالتضامن العملي والنظري هو على أتمه في سويسرا فإن الفكر الوطني والنظام الاختياري والضمير الإفرادي المشاهد في أخلاق الوطني السويسري جدير بالإعجاب من كل وجه فالسويسري يعرف واجبه نحو المجتمع والحكومة ويخالف في ذلك الشعوب اللاتينية التي تحب الخلاف بفطرتها والشعب الألماني الذي يخنع للسلطة إدارية وعسكرية على صورة غريبة وذلك بإطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لأوامر الإمبراطور ولكن الوطني السويسري يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاه بحريته. والفكر الوطني في سويسرا الألمانية أشد منه في سويسرا اللاتينية وإن كانتا في وطنيتهما في الحقيقة كأسنان المشط في الاستواء. وسويسرا الفرنساوية هي مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف ولوزان، وسويسرا الإيطالية مقاطعتا التسين والغريزون وما عدا هذه الست مديريات أي الأربع عشرة مديرية فهي ألمانية.

السويسري الألماني خصوصًا لا يستنكف من أن يشكو كل من يخالف الأمر والنظام لأن لكل شاك الحق بنصف الغرامة وقليل جدًا من يشتكي منهم ولذا فليس من العبث ما تقرأه على المنعطفات وفي مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فإن هؤلاء قد عرفوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعته فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال أن يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجناتهم بل يعملون بما فيه حفظها على ما يستلزمه حبهم لبلادهم وإعجابهم بها. ورجال الإدارة يجتهدون أن يعلموا الشعب وأن يؤهلوه ليخدم نفسه بنفسه بدلًا من أن يعتبروه ولدًا يجب على الدوام الأخذ بيده وقيادته ولهذا أمثال كثيرة تعد بالعشرات ممّا لا مثيل له عند الأمم الأخرى.

وندر جدًا في السويسريين من يستحلون أكل مال خزينة الأمة أي أن يخفوا عن الحكومة ما يحق لها أخذ رسوم وضرائب منه ولا سيما في سويسرا الألمانية وإن كان بعض أرباب الغايات وهم لا تخلو منهم أمة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة أحيانًا في سبيل بعض الأعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما أرادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما أرادت منع شراب الابسنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الابسنت بالأكثرية وحسنت صحة البلاد.

لا جرم أن هذا الشعب الذي صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فإن من يضرب صفحًا عن شهواته المادية لنفع المصلحة العامة ومن يفادي براحته وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لأجل مصلحة وطنه يعد من الشعوب التي تحيا حياة طيبة. اللهم إني أحسد الشعب السويسري حسد غبطة على هذه الأخلاق الفاضلة وأطلب إليك

أن ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لا يموت بفساد أخلاقه وقلة علمه ميتة جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة.

سويسرا: قيودها في الحرية
٥٧

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالي سويسرا الألمانية الحالية أي في أرض ألمانيا وانضموا نحو القرن الأول قبل المسيح إلى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة وأخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسي الذي سميت سويسرا باسمه (هلفسيًا)- رضع هذا الخلق مع لبن أجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون وما كان أشراف القرون الخالية ولا حكومة الرومان التي استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الأساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين في كثير من بلاد أوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون أن يشددوا الوطأة على السويسريين لأنهم أشداء من وراء النشأة الجبلية متضامنون بينهم إخوان في السراء والضراء.

من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسري ويرى أن حروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيرًا ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بتفزيعهم وتشتيتهم فقط أو بأمطارهم الأحجار من الأعالي أو إلقائهم في البحيرات إرهابًا وما أظن أنه سبق في التاريخ أن محاربًا يجيء معتديًا على بلد ويحاصرها ثلاثة أشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الأقدار ويفيض نهر فيحمل حسرًا عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بإنقاذ الغرقى كما وقع لمدينة سولور

السويسرية فإن صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهي مستقلة ثلاثة أشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلًا من أن يغتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الغرقى فأنقذوا منهم عددًا كثيرًا فلمّا رأى الملك ليوبولد من السلوريين هذه الشهامة تأثر جدًّا وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك في القرن الرابع عشر.

تعلم الهفلسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياد على الشورى وحكم أنفسهم بأنفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد أراد أن يعقد معه صلحًا فطلب قيصر إلى الهلفسيين رهائن فقال ديفيكو. (تريد رهائن وقد علمنا آباؤنا أن نأخذها الا أن نعطيها وكان على الرومان أن يذكروا ذلك). ولكنك ترى اليوم هذه الأمة مع ما بلغته من الحرية التي لم تعهد لغيرها نتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعًا لبلادها علمًا منها بأن الحرية المطلقة لا يمكن حصولها في مكان من المجتمع وهي بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة.

السويسريون يرون في كل مكان المصلحة العامة ويتركون لها برضاهم صغار مطالبهم النفسية ويطالبون خاصة بتطبيق حقوق الفرد الأولية فلا يسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة.

السويسري لا يستطيع مع ما نال من الحرية أن يقطع شجرة من غابته إلا بإذن حكومته ولا أن يضمن داره من الحريق إلا عند حكومته لأنها هي ضامنة من الحريق ولا أن يلقي ورقًا ولا غصنًا في إحدى البحيرات فضلًا عن الأقذار والأوحام فسويسرا التي احتفظت بحقوقها في عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة في مصالحها على ما

هي الطريقة المتبعة في إدارة البلاد الجرمانية وذلك بأن يكون للحكومة إشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الأفراد والمجتمع

حرية الضمير والرأي والعبادة مضمونة في أرض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسري الأساسي ولكن لا بصورة مبهمة بل إن لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر ويطبق بحسن ارتقاء الشعب وأخلاقه. وحرية الصحافة لم تنقلب قط إلى عداء ومماحكات ومع شدة الانتقاد والجدال في المنازع السياسية فإن لها حدًّا تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية ولذلك كان صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الأمم الأخرى وربما كانت هي والصحف الإنكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب أما نشر السفاهات والغراميات والخلاعيات فهذا لو جسر على نشره صحافي لا يجد من الأمة من يقرأه فيسقط بطبيعته. ومن الغريب أنك تجد في سويسرا كنسية يصلي فيها أهل مذهبين النصرانية وجريدة هي لسان حال حزبين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشتراكي، فالقاريء يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد.

لا جرم أن القرون الخالية وحوادث الأيام قد دربت السويسريين طويلًا على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح أزمانًا فصاروا يقدرون نعمة السلام والوئام وما تعقلهم الحالي إلا ثمرة نضجت على مهل بعد أن ذاق أصحابها في انتظارها وتكييفها على هذه الحالة نصبًا. حرية العمل وحرية الاشتراك في سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف بنقابات العمال وبحقوق اعتصابهم. ومن تلك نشأ احترام المتعصبين لحق المخالفين لهم في الإضراب عن العمل. ومع هذا تجد الاعتصابات أقل ممّا هي عند الأمم الصناعية الأخرى والأجور تزيد بزيادة غلاء الحاجيات

وارتفاع أسعار الكماليات لأن العملة يتفاهمون ويجتمعون على الدوام مع زعمائهم. وكذلك حق حماية سويسرا للمظلومين، ولا سيما السياسيين، فإنه أرقى ممَّا عند الأمم الأخرى. ولكن سويسرا لا تحمي القاتل. وكثيرًا ما تعمد بعض مقاطعاتها إلى إخراج السفاكين وأرباب الدعارة من غير أبنائها إلى خارج الحدود.

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطني عند السويسريين منذ عهد المدرسة الابتدائية. وليس في سويسرا على الجملة مدارس داخلية، بل إن الطلبة الذين يرحلون من قراهم وبلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الأسر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشًا متكلفًا كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له في الحياة ولا يخضع لقوانين جائرة، وهو الذي يحتاج في بدء نموه إلى الهواء والشمس والانطلاق، ومن علماء التربية هنا من بالغوا في منح إعطاء الطلبة حريتهم وأنشأوا لهم مدارس التربية الذاتية أو الحكم الذاتي فيتألفون أولادًا من سن الثانية عشرة إلى السادسة عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم أمرهم والمعلمون لا يعملون إلا أن يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الأولاد الاستقلال والحياة العمومية، فالأولاد يختارون رئيسهم وهيأتهم الإدارية وأمين صندوقهم. ويكون اختيارهم حسنًا جدًّا في الأغلب ويجيدون في مناقشة القانون الذي يضعه مديرهم، وتصح أحكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم، فلا يسرق شيء من مال الصندوق ولو كان الأمين عليه في الثانية عشرة من عمره تحدثه نفسه أن يبتاع ببعض الدريهمات حلواء أو شكولاتا أو ملبسًا يأكلها أو كرة يلعب بها، فكأن سويسرا خلقت بدون أولاد أو أن التربية جعلت أولادها رجالًا ونساءها كذلك.

حرية الصيد البري والصيد النهري والبحيري محدودة مقيدة في بعض الأوقات وعلى بعض المحال. ورجال الصحة يمنعون كل شيء إذا

اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الإنسان أو الحيوان فيمتنع أحد من الدخول إلى تلك المحال الموبوءة أو الخروج منها ولا ينبس أحد ببنت شفة اعتراضًا على ما حصل وقانون العمل وتحديد أوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على صورة معقولة فيتمتعون به بشيء من الراحة والحكومة تتداخل في حياة المواطنين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الأفراد الذين يقدرونها بأنفسهم أولًا وللحكومة الحق أن تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته.

لكل عمل في سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات في الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئًا بتعديه حميً لا ينبغي السير فيه أو إتيانه عملًا يعد منكرًا في عرف القوم وهو عند غيرهم مباح وأي مباح مثل منع دوس العشب في المروج عندما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الألب وسير المرء في بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع في ذلك الأولاد والرجال مخافة أن تحدث أحد الشرهين نفسه بأن يقتطف خصلة من الكرم. واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها ويمنع على بعض الجسور الخشب في بعض المقاطعات أن يدخن المرء أو يحمل قداحة ويوقف حيوانات ويجمع اجتماعات وهكذا تراهم يفرضون فروضًا ربما لا تقع مرة في العمر ويكتبون لها اللوحات ويضعون على من تعدى عليها الغرامات.

هذه قيود للحرية وضمانات لها في آن واحد لأن الشعب مهما بلغ من رقيه هو كقطيع الغنم لا يخلو من جرباء وفي الأكثر يكون المقصود من هذه القيود الأجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم. عادة البصاق ممنوعة قطعًا في كل مكان ولا سيما في

القطارات حتى إن بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ: (احترامًا لبيت الله المرجو الامتناع عن البصاق) ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات وللمدخنين مركبات خاصة كما أن للسكارى كذلك. وإذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار أحدهما يريد فتح النافذة والآخر يأباه فالحكم في ذلك لرئيس القطار فهو الذي يحكم بين المختلفين وهذا أيضًا من جملة ما قدروه من الاحتمالات في أنواع الحريات.

سويسرا أرض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لا تخلو من قيد في كل حال خلافًا لما يتصوره بعض الخياليين.

سويسرا: حياتها السياسية

٥٨

ليست سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة في حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية. فمن مقاطعاتها ما هو صغير ومنها ما هو كبير ومنها ما تدار المدينة فيه بإدارة غير إدارة القرى المجاورة لها ومنها ما هو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها أو أرباض. ومنها من يدين أهلها بالكثلكة وأخرى بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبين ومنها ما ينتمي إلى الحزب الاكليركي وأخرى محافظة متنطعة في مذهبها وغيرها متطرفة في اشتراكيتها ومنها التي تقدم نوافذ للعذراء مثل فريبورغ في حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة.

وفي الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقي لا تزال الحكومة المعروفة بحكومة البطارقة على الحالة التي كانت عليها على عهد

الألمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زوريخ وبال أحاطنا علمًا بكل دقائق المجالس النيابية فتضعان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس المال وتختاران بعض الأصناف للحكومة وتختاران طريقة الانتخاب على نسبة العدد، عادات نروفجية قديمة إلى جنب الاختراعات السياسية في القرن العشرين

قطعة من الجبال والأودية والبحيرات لا تبلغ مساحتها ثلث مساحة ولاية سورية ونفوسها لا يزيدون كثيرًا عن نفوس بر الشام كله وحكومتها في مديرياتها والأصح أن يقال في ممالكها لأن لكل مقاطعة حكومة كأنها مملكة مستقلة أنواع منوعة وهذا لتكون عندهم اللامركزية على أشدها ويستمتع أهل كل ناحية مهما صغرت بفصل ما يرونه الأنسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحي التي تختلف إدارتها بحسب الإقليم.

في غرب البلاد يسيرون على الطرق الفرنساوية وفي سويسرا الألمانية لكل بلد نظام والمرجع واحد. هنا تجبى الناحية الضرائب وهناك تسمح لها وإرادتها أن لا تطالب المكلفين بقرش. الاستقلال الإداري إلى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف، المركزية في سويسرا الفرنساوية أكثر من غيرها في حين ترى نواحي ابينزل الألمانية جمهوريات صغرى أو جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة إلا قليلًا.

وبهذا التغيير الكثير ساغ للأنظمة والأوضاع أن توافق أخلاق كل صقع وضرورياته وحاجات سكانه ورغائبهم التي تختلف باختلاف نوع الحياة. فالتعليم مثلًا إجباري في البلاد كلها يقضي على كل ولد أن يصرف في المدرسة من سن السادسة إلى الرابعة عشر يتعلم فيها أمورًا مشتركة بين المقاطعات كلها وما عدا ذلك فكل مديرية حرة بأن تنظم مدارسها على طريقتها وهي تطلق للنواحي حريتها أيضًا في بعض الأمور

مدة التعليم تسعة أشهر في السنة ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر أيلول إلى أول كانون الأول وهو الزمن الذي تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى في المروج إلى أوائل نزول الثلج تحت ملاحظة أولاد تلك القرى.

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها إلا كل مكابر. يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحي تنوعها وغرابتها ويبث روح الحياة المحلية والهمم الإفرادية ويزيد في ارتباط المرء بوطنه الصغير، وهذه أحسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحبيبه إليه. لكل مديرية وطنيتها فلها أعلام خاصة بها وألوان لا تشاركها فيها جارتها ولها أسلحة ولها شارات، وفي جميع الأعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية إلى جنب أعلام الاتحاد السويسري مثل دب برن وثور اوري ومفاتيح اونتروالد وكواكب فالي ومطرقة سان غال. لأن كل مديرية هي مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها وأمجادها. فهي ليست مديرية بالمعنى الذي نتصوره في مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعي بل هي عضو حي نام واحد متماسك الأجزاء في الجسم الاجتماعي.

وربما قيل إن تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة ممَّا يفرق أجزاء الحياة السياسية فتختلف الأحزاب وتكثر فلا يستطيع مجلس النواب العام أن يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فإن إرادة الأمة تسري حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل إن هذه اللامركزية المفرطة تشغل أهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لأرقى ممَّا يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائدهم المحلية فإنها كلها جرائد خاصة بدائرة لا تتعداها، ولا سيما في سويسرا الألمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال (دي جنيف)

و(غازت دي لوزان) و(البوند) وهي الصحف الجوالة الراقية لكان من يعيش في سويسرا أشبه بمن يعيش في قطر منعزل لأن السويسريين لا يهتمون إلا لزراعتهم وتجارتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فمعرفته وعدمها سواء ولكثرة هذا التغالي في اللامركزية خيف في القرن الماضي من تشتت الكلمة بتعدد النظامات فاتحدت أكثر القوانين العامة والمدنية واتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجمرك وسير السيارات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها في الشؤون العامة متحدة. وحدثت من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على أن تحتكر الحكومة كلها الخمور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعية الخمر وحسنت نوعه وقل السكيرون والمعربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشرة لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية! وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى ما عدا الخطوط الصغيرة المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمنًا وذلك بدون أن تضرب ضرائب ولا أن تعقد قرضًا أو تحتال حيلة فإن باجتماع الخطوط تحت إدارة واحدة قلت النفقات وكثر الإقبال فأخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوي مدة ٥٦ سنة يعطي المليار فرنك الذي يدفع ثمنًا للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل للضمان من الحوادث والأمراض لا لطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلًا بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلام وزمن الحرب. ومن الغريب المدهش أن تضمن حكومة أرواح محكوميها من رصاص العدو وقنابله وهذا لا مثيل له في المدنية الحديثة ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلًا لتنفق عليهم أيام

عجزهم ما أخذته منهم أيام شبابهم وذلك لعلمها بأن دور الشيخوخة طبيعي لا بد لكل واحد أن يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا سنًا معينة هو مكافأة على عدم الحساب للعواقب وللكسل وللسكر ولذلك لا ترى في سويسرا من لا يعمل أما الشحاذة فلا أثر لها ولا اسم. والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لإدارة البريد والبرق ولكن للأفراد أن يضعوا في محالهم كحدائقهم أو منازلهم أو فنادقهم ما أحبوا من مثلها.

السويسريون عريقون في الديمقراطية بكل ما فيها من المعاني تأصلت في نفوسهم وتشربتها دماؤهم منذ قرون طويلة. قال لي أحد مديري الصحف الكبرى في لوزان أنني لا أستطيع أن أعامل عمالي والمستخدمين في إدارتي إلا معاملة الكفاة نعم آمرهم ولكنني أحاسنهم في معاملتي كما أحاسن رصفائي في التحرير وأصدقائي

وما ذلك إلا لأن الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية أميركا الشمالية التي يرد تاريخها إلى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التي بلغت ٤٣ سنة من العمر بالنسبة لجمهوريات الاتحاد السويسري إلا بنات وأطفال فجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى في السويسري شعورًا طبيعيًا في المساواة وليس في جمهوريته أوسمة ولا ألقاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على أمته ترفعه على رأسها في حياته ومماته. ورئيس الجمهورية السويسرية هو من أهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر أبناء السبيل في شوارع مدينة برن شيء من الأبهة والعظمة التي يبدو بها في بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالي والقائد والوزير ولا تجد تشريفات في سراي الاتحاد السويسري التي تضم إليها مجلس الأمة ومجس الأقاليم وينتخب مجلس الاتحاد

السويسري كل سنة رئيسًا يتولى رئاسة المجلس ورئاسة جمهورية هلفسيا السعيدة وليس هو في الحقيقة إلا عميد مستتشاريه الستة.

ولا تشهد في بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة في أيدي المتولين عليها على نحو ما يقع في الأمم النيابية فإن المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الأزمات الوزارية التي تسمع بها في االممالك الدستورية وإذا حدث خلاف بين المجلس والحكومة يتفاهمان بحرية إذا لم يتيسر لهما الاتفاق ويخضع المجلس الاتحادي أي الوزارة لإرادة مجلس النواب والأقاليم كما أن هذين المجلسين لا يماحكان ولا يراوغان. فمجلس الأمة لا يقلب الحكومة التي ينتخب مستشاروها السبعة أو وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لأنهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة في العمل ورئيس مجلس الاتحاد السويسري أو رئيس الجمهورية ينتخبه رصفاؤه الستة كل سنة ويعمل وإياهم بإخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الأعوام والرئيس لم يتغير لأنه إذا عمل العمل الصالح وهو لا يعمل غيره بالطبيعة لا يرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة.

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فأعضاء المجلس الاتحادي يتناول أحدهم عن كل جلسة عشرين فرنكًا ويمكن أن يبلغ مجموع ما يتناوله أحدهم في السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط أما نواب الأقاليم فيتناول عضو البلد عن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القرية سبعة فيكون للواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ إلى ٢٨٠ فرنكًا في السنة ورواتب مستشاري المملكة ووزراؤها ١٥ ألف فرنك لكل واحد مساناة وراتب رئيسهم أي رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ ألف فرنك مسانهة ولذلك قد يضطر المسكين إذا كانت له أسرة كبيرة

أن يشتغل أحيانًا أعمالًا أخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لا على أنه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الأهالي.

الإخلاص هو الخلق الجوهري في الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب أن يبقى كذلك. وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر إرادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام. حتى إن بعض الأقاليم لا تزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو نحافظ على الحكومة التي تحكمها مباشرة بمعنى أن مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الأقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التي أعدها المستشارون الذين انتخبوا في السنة الفائتة.

في سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الأحرار يتناقشان في مصلحة البلاد ولكن إذا تولت الأكثرية زمام المجالس لا تنحى على الأقلية بل ترى من مصلحتها أن تقبل أعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكي ولكن لا تأثير له لأن الأمة اشتراكية بطبيعتها. قال لي المسيو جان سبيرو أستاذ العربية في كلية لوزان: عندنا حزبان وأنا من حزب الأحرار ولكنني لا أجد فرقًا بين الحزبين يصح أن يعد فرقًا ولذلك فكلنا حزب واحد في الحقيقة. فبارك الله بأمة مهما تعددت مناحيها وأصولها وأهويتها ودرجة غناها وأعمالها لا تختلف في المصلحة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر.

سويسرا: الوطنية والجيش
٥٩

قالت العرب: احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من أراد السلم فليكن أبدًا على استعداد للحرب. هاتان القاعدتان جرت

عليهما سويسرا وبعد فمن يظن أن هذه الأمة التي تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تنمرن ليلها ونهارها على الأعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند أول صرخة أن تجهز ١٨٠ ألفًا من الجند الذين يحسنون الرماية كأحسن أهلها ويعلمون عمَّا يدافعون ويأتون إلى أي مكان من حدودهم في سرعة البخار ثم يستطيعون أن تجهزوا ١٤٠ ألفًا من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد في الدرجة الثالثة وتجهيزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لا شائبة فيها كأعمالهم.

قسم السويسريون الخدمة العسكرية إلى عدة أدوار حتى لا تثقل عليهم وينقطعوا بتاتًا عن أعمالهم وبيوتهم ويخففوا عن أمتهم نفقة إطعامهم وإيوائهم فبدلًا من أن يقضي الشاب السويسري سنتين أو ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الأمم لا يبقون في الخدمة إلا أشهرًا معدودة في السنة الأولى ولكن المرء يبقى جنديًا من العشرين إلى الأربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم في مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الأربع السنين وتكون عنده بندقيته يتعلم فيها من بيته وحقله ولا يستعملها إلا لهذا الغرض. والولد منذ المدرسة الابتدائية إلى المدرسة العليا إلى الكلية يتعلم التعليم العسكري وهو تحت ملاحظة الضباط الذين يأتون أحيانًا للتحقيق عن أمره والإشراف على رمايته وفحص سلاحه الذي تعطيه إياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب بأشد العقوبات وهيهات أن تجد مخالفًا.

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها أسباب النزاع لأن قلة عددها بين أمم كبرى لايجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسري للطواريء وتمرينه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست إلى عداء وحب فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا

كل سنة تعطي منحة لمكتب السلام في برن ولكنها باليد الأخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ما تقدر عليه من القوة وتزيد في ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنعها الحياد أن تعمد إلى الطرق العملية كسائل أعمالها في فروع الحياة لأن أرضها لا تحمى إلا إذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهود التي تداس بالأرجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغانم.

سويسرا لا تريد أن تكون طعمة سهلة لكل آكل ولا تخاف في الأغلب أن تداهمها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر في الأكثر من الشمال تخاف عادية ألمانيا وأن تضمها هذه ذات يوم بالقوة إلى أرضها كما فعلت بمقاطعة شلشويق هولستاين وهانوفر وهيس وفرنكفورت والالزاس واللورين وأخوف ما تخاف من عادية إيطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعلى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسمبلون. فإن كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لأنهم يحبونها حبًّا يمازج أجزاء نفوسهم ولا شيء أحسن وأضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه.

قال أحدهم: إن سويسرا ليست من البلاد التي تبقى لضرورة في بقائها كإنكلترا وإسبانيا بل إنها لم تبق إلا لأن السويسريين يريدون بقاءها. نعم إن الإرادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع القوى فإن سويسرا لم تتألف عرضًا أو لإرادة المتعاقدين المتحدين من أبنائها بل إنها اجتمعت لاتفاقها في العواطف والروح وبمالها من التقاليد المتماثلة والماضي والمجد الذي يتجسم كل حين باسم (غليوم تل) بطلها القديم.

و(غليوم تل) هو أحد رجال الثورة الذين أنقذوا سويسرا من ربقة النمسا سنة ١٣٠٧ وذلك إن عامل الإمبراطور النمساوي كان علق قبعة (الدوج) على رأس خشبة في الساحة العامة في (التورف) وأراد أن يذل السويسريين بأن يسلموا على القبعة كلما مروا بها فأبى أن يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستدعاه الوالي النمساوي ولما عرف أنه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء أبائه أن يضرب سهمًا على تفاحة وضعها الوالي على رأس ابن غليوم تل فلم يسع هذا إلا أن ألقى سهمه فأصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما ساله الوالي لماذا أعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها نادى يالثارات سويسرا وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين في أوقات مختلفة كان يكتب فيها النصر للسويسريين لأنهم مدافعون لا مهاجمون.

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم في بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدي في إيطاليا أحيا أمته بشجاعته، ومن أجل هذا التاريخ المعنعن بالواقع لا ترى السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الألمانية وهم الأكثرية أو الإفرنسية أو الإيطالية أو الرومانشية تحدثهم نفوسهم أن ينضموا إلى أبناء جنسهم بل إنك ترى السويسري وأبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده تغربوا في إيطاليا وألمانيا والنمسا وفرنسا قرنًا وأكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم وقد عرض مرة على أحد علمائهم (إدوار وود) وكان باريزيًا في موطنه فقط، وسويسريًا بجنسيته أن يتجنس بالجنسية الفرنسوية لينتخب عضوًا في المجمع العلمي مجمع الأربعين المخلدين فقال والسذاجة طافحة من كلامه: إنني أحب فرنسا وأسكن باريز ولكنني سويسري مات والدي ووالدتي في سويسرا وأنا لا أكون في المجمع العلمي. هذه هي الوطنية السويسرية متأصلة في شغاف القلوب، ولكنها ساذجة لا تتعمد الصياح ولا التظاهر ولا تجد داعيًا للتبجح بها كل حين.

وطنية السويسريين في صدورهم مكتومة لها أعياد وحفلات ومصانع وتذكارات تذكرهم الساعة بعد الساعة بما بذل أجدادهم من إهراق دمائهم في دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم أن يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل النادر. دع ما ينشره علماؤهم وأدباؤهم من المصنفات الممتعة التي كلها ترمي إلى تحبيب وطنهم إليهم وتلقن أبناءهم منذ نعومة أظفارهم التعليم الوطني في المدارس وتلامذة مدارسهم يتغنون في كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسية الوطنية التي نظمها الشاعر السويسري جوست أوليفيه، ويتلون الفترة بعد الفترة ما وصف الشاعر الكاتب أوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها وأوديتها وبحيراتها فيزيد هيامهم بأرضهم.

السويسريون لا يقنعون أن يحبوا بلادهم حبًّا مجردًا بل يزورونه ا بعناية واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفًا وشتاءً ٢٢ في المئة من مجموع السياح القادمين إلى سويسرا ينتقلون في جبالها وأوديتها وترى العامي منهم إذا اجتاز أرضًا لم يعرفها بعد يقف في القطار مأخوذًا بما يمر به من الأصقاع بحيث لا يفوته منها جميل وإذا ذهبت إلى القرى أتاك بعض أهلها بدون طلب منك وحدثوك عمّا تجب زيارته من المحال البديعة في جوارهم. فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم العجب وربما كانوا أكثر الأمم المجاورة في طربهم بما خصت به جبال الألب من المحاسن التي تخلب الألباب.

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل أنهم في مقدمة الرماة في أوربا لأن بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها إلا مناوشة وكمينًا فترى في كل قرية جمعية للرمي وتقام له الأعياد. وكل سويسري في سن العسكرية فلاحًا كان أو ساكن المدينة يضرب مع رفقته يوم الأحد ساعات طويلة في التدرب على الرماية وفي كل بيت بندقية أو عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن أنفسهم وبلادهم كأنهم لا يزالون

في عهد الإقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه وأسرته ولكن هذا شأن الأمة المسلحة بسلاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية العلمية التي لم تكن في القرون الوسطى.

ضباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعليم الحربي وأكثره عملي في الغالب وهم في الأكثر من أبناء الفلاحين يعاشرون الأفراد ويواكلونهم وطعام الجنود من أحسن ما يعهد ولهم مطابخ تنتقل معهم في المناورات فتراهم في كل وقت يتناولون الطعام الصحي الفاخر الذي لا يوجد إلا في المدن وفي حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيما في المشاة وفرنكًا في الفرسان وهو أحسن راتب يقبضه جندي في جميع أمم أوربا لأن هذه عجزت عن إطعامهم وإلباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع أدرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن أهله من الجند إلا من دخل في جيش الفرسان السويسري سعيد في كل حال من أحواله مرتب في حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض في عامة أعماله ولذلك لا تراه يشكو شيئًا على نحو ما يشكو ابن البلاد الراقية الأخرى الذي يرزح تحت أثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته. قال لي كثيرون نحن سعداء في بلادنا فكنت أقول لهم بارك الله بسعادتكم التي أحرزتموها بجدكم ورزق شرقنا المسكين بعض ما أنتم فيه إنه كريم جواد.

سويسرا: المذاهب والقوميات واللغات ٦٠

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التي تدل على روح شعب وقد كان لهما في الأرض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة

حرية الغير مشاكل في الماضي ولكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الأصغر ثم امتزج أهل كل دين وأهل كل لسان امتزاجًا في البلاد فلم ينشأ في سويسرا مشاكل تذكر كما نشأ في بعض البلاد التي تنازعتها البرتستانتية والكاثوليكية أو الأرثوذكسية والإسرائيلية أو مذاهب أهل السنة والشيعة في الإسلام.

المذهبان السائدان في سويسرا هما البرتستانتية والكاثوليكية ولما انتشر المذهب البرتستانتي في القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من أبناء البلاد أخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسميًّا وإجباريًّا وتدعو إليه في أرضها وتحتم على الأهلين حضور الصلاة به وإن كانوا لا ينتحلون هذا المذهب وهو شيء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتي ثم أخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانت أكثر عددًا من الكاثوليك بقليل.

قال دوزا: إذا كان الدين يؤثر أحيانًا أثرًا ظاهرًا في روح أمة فإن الشعب يكيف الدين على صورته مع توالي الأيام والأمر الثاني ظاهر في سويسرا وإن لم تكن تخلو من الأول ولا جدال بأن المقاطعات الكاثوليكية بمجموعها أكثر انحطاطًا من المقاطعات البرتستانتية والأنحاء الأقل نظافة هي كاثوليكية أيضًا والمقاطعات الكاثوليكية هي التي احتفظت بالأكثر بلهجاتها وأن فكر حرية البحث الذي دعت إليه البرتستانتية قد أثمر وأينع فإن التعليم العام في البلاد البرتستانتية أكثر انتشارًا ممَّا هو في غيرها وأفكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتي قلمَّا يعنون بالسياسة. وليست هذه الفروق مهمة فإن تأثير عقل الأمة في المذهبين هو أشد ظهورًا.

السويسري متدين حق التدين ولكن دينه في قلبه وهو لا يحفل على الجملة بالظواهر وذلك ناسبت البرتستانتية مزاجه وللقيام بالفروض الدينية منزلة من حياة السويسري المنظمة كما للأعمال الدنيوية كذلك فتراه يذهب صباح الأحد إلى الكنيسة كما يذهب في المساء إلى القهوة بكل رزانة وتماسك أو كما يذهب إلى عمله خلال أيام الأسبوع. والرجال والنساء يحضرون في القرى والمدن في البيع لسماع القداديس أو المواعظ وربما كان النساء أكثر عددًا من الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور في بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تغص بالمستمعين والعابدين الراكعين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقى عليهم من المواعظ

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتي في سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك أهل المذهب الكاثوليكي ليس لهم أساقفة ورؤساء عظام بل إن كل واحد مرتبط بالمقام البابوي ارتباطًا خفيفًا لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في أوربا وأميركا وآسيا وإفريقية مثلًا فالسويسريين غلاة في حب الاستقلال في كل شيء حتى إن رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباسًا يخالف البسة غيرهم في الأمم الأخرى. وترى الكل متشابهين مق؟؟ ممَّا يذكر أن سويسرا كانت في القرون الوسطى مهد التسامح وإن وقع لها في القرن التاسع عشر إن نشبت فيها حرب دينية من أجل القانون الذي وافقت عليه الأكثرية بنفي الرهبنات من سويسرا في حين لم تنشب في أوربا حرية دينية في ذاك القرن ومع ذلك تجد جنيف ببرتستانيتها وفريبورغ كذلك في تمسكها بكثلكتها كأنهما رومية بكثلكتها ولم تمض على هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى أصبحت سويسرا

اكثر بلاد أوربا تعلقًا بحرية الوجدان والعبادة على صورة منظمة حرة لا مثيل لها.

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة إدارة من إدارات الحكومة هذا مع أن الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الأديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكليركي الذي تنظر فيه السلطة التشريعية وتقر عليه أو تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يقتضيها الدستور السويسري من مثل حرية الوجدان وحرية التدين وغير ذلك ورؤساء الدين بحسب المقاطعة برتستانتًا كانوا أم كاثوليكًا تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من أهل هذا المذهب وللحكومة حق التدخل في مسائل العبادة والطقوس وإذا أرادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الأمة. وتدخل الكنيسة البرتستانتية في أعمال الحكومة غير محسوس في سويسرا الألمانية البرتستانتية مثل ما هو في سويسرا الكاثوليكية الفرنسوية وغيرها.

وبعد حرب سوندربربوند اتهم اليسوعيون بأنهم أوقدوا الفتنة الدينية في البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول إلى سويسرا بيد أنهم دخلوا في الحقيقة إلى فريبورغ بعدعشر سنين. ومدرسة اللاهوت في هذه المدينة يديرها الدومنيكيون في الظاهر ولكنها بيد اليسوعيين في الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعي دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاؤوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكثلكة السويسرية يعلمون ويعظون. ولمعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فإذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانتيتان.

هذا إجمال ما يقال في المذاهب في هذه البلاد أما القوميات أو الجنسيات أو العناصر المتألفة منها فإن نصف سويسرا روماني أو لاتيني والنصف الآخر جرماني وربما كان العراك بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر في أوربا منذ أوائل القرون الوسطى فقد اختلط العنصر اللاتيني بالجرماني وعلى العكس اختلاطًا كبيرًا ومن السويسريين الفرنسويين من تألمنوا أي أصبحوا ألمانًا بلسانهم على طول الزمن ومن الألمانيين من تفرنسوا ويكاد لا يتجاوز اللاتينيون أي الفرنسيس والطليان والرومانش في سويسرا مليونًا ومائتي ألف وبقية الأربعة ملايين هم ألمان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة في استعمال ألسنتهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الألمان أكثر توسعًا في البلاد وهم الرابحون في التبسط في ربوعها على الزمن حتى أصبح اللسان الفرنسوي خاصًا بغرب البلاد والرومانشي بشرقها والإيطالي بجنوبها والألماني بشمالها ويقدرون عدد الألمان المهاجرين إلى المقاطعات الفرنساوية بمئة ألف وعدد الفرنسيس المهاجرين إلى المقاطعات الألمانية بخمسين ألفًا.

ولم تعترف الحكومة رسميًا بلغة الرومانش كما اعتبرت الألمانية والإفرنسية والإيطالية وكتبت معظم الأوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لأن المتكلمين بها قلائل ولأنها أشبه بلهجة خاصة لا أدبيات لها وأهلها يتزوجون بالألمان ويختلطون بهم وكل سنة يخف عدد المتكلمين بلسانهم وربما كان الرومانشيون مثال مملكة أضاعت لغتها على التدريج بدون أن تضيع استقلالها أضاعت لغتها واندمجت في غيرها على خلاف الطليان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء ٢٣٠ ألفًا فإنهم احتفظوا بعنصريتهم لأنهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لأن لها آدابًا خلافًا للرومانشية.

ومسألة الألسن غريبة في سويسرا لا تؤثر في الأمور الإدارية لأن حقوق الأقلية مصونة كحقوق الأكثرية ومن أعجب الأمور أن اللسان في سويسرا وإن كان من مواد الوطنية المحلية فليس شارة من شارات الوطنية الجامعة.

واختلاف الألسن ليس من العوائق في إدماج السويسريين في قالب الأخلاق المتحدة وليس في اللسان أدنى مادة من مواد الانفصال فالسويسري الفرنساوي في مقاطعتي الفوونوشاتل لا يريد أن يصبح فرنسويًّا بتابعيته وكذلك السويسري الإيطالي لا يحب بوجه من الوجوه أن ينضم إلى إيطاليا ومثله ألماني مقاطعات شافوزوتوركوفي وسان غال لا يريد أن ينضم إلى ألمانيا.

ولولا أحوال نادرة لصح أن يقال إن سويسرا في جميع أدوار التاريخ قد نالت أعظم الحرية في استعمال اللغات في جميع الأعمال الخاصة والعامة أما اليوم فإن الحرية موجودة مبدئيًّا ولكن احترام حقوق الأكثرية والأقلية على أسلوب معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر في مسائل اللغات المحلية وانتشارها وتدافع عن حقوق الأكثرية ولا تغمط حقوق الأقلية في كل بلد يسبق غيره في عدد المتكلمين بلغة دون أخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات بعدة لغات في القديم للإفهام والتفهيم أما اليوم فإنه يراعي بما يكتب حق السواد الأعظم.

اللغة الرسمية في كل ناحية هي لغة أكثرية السكان وبهذه اللغة تكتب مداولات المجالس البلدية والأعمال الإدارية التي تعلق ليقرأها الجمهور وبها تكتب أسماء الشوارع والمصانع ويدرس في المدارس ويلقى الوعظ أو القداس في الكنائس ومن النواحي من اختارت برضاها التساهل مع أهل اللغة الأخرى في بعض هذه المسائل كأن تترك مقاطعة المدينة اللغة

الإفرنسية تجعل لسان التدريس في مدرستها أو أن سكان مقاطعة رومانشيه يقدس لهم بالألمانية. وللمنتحبين في المقاطعات المختلطة أن يتكلموا بإحدى اللغتين كما يشاءون في جميع المداولات وتكتب الإعلانات وغيرها باللغتين وإذا بلغت الأقلية العدد الكافي تكون لها مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها. وفي الكتابات الخاصة وعناوين الدكاكين تركت للناس حريتهم. وما يسري على الناحية يسري على المديرية حذو القذة بالقذة أي تكون اللغة الرسمية لغة الأكثرية والأقلية لا تحرم من حق التفاهم.

ويطلب إلى الموظفين في جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها الإعلانات وأسماء الأماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين في المجالس وعمال السكك الحديدية يبدأون في كل مقاطعة بلغة البلاد في مخاطبة الركاب ثم يثنون ويثلثون إذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث إلا الإيطالية فإنها تنقص من بعض القطارات التي تمر قليلًا في البلاد الإيطالية السويسرية وللغتين الألمانية والإفرنسية المساواة التامة تكتب جميع أسماء المحطات وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة.

وفي سويسرا سبع كليات منها ما يدرس بالألمانية ومنها بالإفرنسية وفي بعضها دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التي انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالألمانية وكذلك كلية زوريخ التي انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التي انشئت سنة ١٨٣٤

أما كلية جنيف التي اسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنة ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التي تمت سنة ١٩٠٩ وكلية فريبورغ التي قامت سنة

١٨٨٩ فإنها تدرس بالإفرنسية وفي كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين.

أعضاء مجلس الاتحاد السويسري سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم ألمان واثنان فرنسويان وقراراتهم تكتب باللغتين وفي سويسرا ثمانية فيالق اثنان فرنسويان وخمسة ألمان وواحد إيطالي وورومانشي ولغة التعليم في الفيلق الأخير الألمانية والإدارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لإرضاء قرائها من ذلك إن نقابة أصحاب الفنادق في سويسرا الألمانية لم ترض أن تغير أسماء قوائم الطعام من الإفرنسية إلى الألمانية لأن معظم الداخلين إلى البلاد يفهمون الإفرنسية أكثر من الألمانية حتى إن الألمان أنفسهم يفضلون أن يروا أسماء الألوان بالإفرنسية لاعتقادهم بأن المطبخ الفرنساوي هو خير المطابخ وألوانهم أجمل المآكل وكذلك ترى أصحاب الفنادق يصدرون جريدتهم باللغتين. كل ذلك يدل على جوهر أخلاق السويسريين وإن المحافظة على حق أو على حرية ينبغي أن يكون على قدم المساواة.

سويسرا بابل اللغات لأن فيها على صغرها منهن أربعًا وفي النمسا سبع وفي العثمانية سبع أمهات الآن ما عدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن إلى حلها كذلك. والعرب هم السواد الأعظم وقد أمرنا باتباع الأكثرية وللغتهم ميزات ليست لغيرها والأمم الدستورية تراعي فيها قبل كل شيء حقوق الأكثرية.

سويسرا: كيف تجلب الغريب
٦١

كانت بعض البقاع في سويسرا منذ نحو ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوربا بفضل ما أنشئ فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاستجلاب رضى السياح والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الأصقاع وأصبحت سويسرا وجل اعتمادها على القادمين إليها من أقطار الأرض حتى لقبوها (فندق أوربا) ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التي يبذرها فيها الأجانب لم تحصلها عن عبث فإن علم جلب الغرباء وإمساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية أوفر قد أصبح في سويسرا علمًا حقيقيًا له أساليبه وقوانينه وإحصاآته وجرائده ومنشوراته المنوعة الظريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة. وقد علمت السويسريين التجارب أن السائح يستمال بست قواعد من أحسن استخدامها اغتنى وأفاد واستفاد

القاعدة الأولى: أن يزرع المرء كثيرًا ليحصد اكثر فقد جعل السويسريون لنشر الإعلانات بالكلام والصور المقام الأول ما عدا إعلانات المحطات والمنشورات المصورة وغيرها من المقالات التي تدفع عليها الأجور الباهظة أحيانًا في صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الإعلان. وكل إدارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجانًا وكثيرًا ما تكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء أطيبه بحيث تستدعي النظر إليها ولو بعد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التي تعود منها قد قدرت بثلاثة أضعاف أو أربعة.

القاعدة الثانية: جميع تراكيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها. وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو أن كل صاحب فندق لا تحدثه نفسه أن يحتكر جميع السياح بل يهتم لإنجاح المدينة أولًا ثم الناحية وأرباضها أو النجاح العام وهذا لا يتم إلا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة فيشترك مثلًا جميع أرباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملًا يسر جمهور النازلين في فنادقهم وأنزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على أتمه أيضًا بين الإدارات والشركات المختلفة لا تحاسد بينها ولا تغاير في المصلحة وقد ألف معظم أرباب الفنادق نقابات لهم فتألفوا مديرية مديرية أولًا ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخرًا فأصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك أصبحت بعض القهاوي ومحال لسماع ومحال إعطاء التعليمات وشركات التضمان نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط أن يرضي السائح ويرتاح.

القاعدة الثالثة: أن تراعي حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التي يراها [1] وذلك لأن سويسرا أدركت أن الرحلات اليوم قد

---

(١) أتمنى لكل عربي يريد أن يصطاف أو يشو أو يسيح في أوربا أن يطيل مقامه في البلاد السويسرية أكثر من غيرها من البلدان الأوربية وأن يوفر صلاته مع هذه المملكة الصغرى لأنها جمعت آيات المدنية الكبرى ومن الأسف إن عدد المهاجرين من السويسريين إلى البلاد الأخرى يعدل بخمسة آلاف في السنة وليس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلًا ليشاهد أبناء قومي الفرق بين الأوربيين في أخلاقهم وحسن معاملتهم. قلت يومًا لرئيس جامعة لوزان إننًا مع الأسف لم نشهد في بلادنا سويسريًا منذ جئتم في القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وأرسلتم مئات من شبابكم وأشرافكم يقاتلوننا مع من يقاتلون قال: نعم ذهبنا إذ ذاك إلى قطركم ولكن عدنا ممزقين آب عشرتنا واحدًا فنحن لا نريد أن يعاود ما سبق لأجدادنا ولو متحرين مستعمرين لا؟؟ فاتحين. وقلت لأحد أساتذة جامعة جنيف ممن أحسن ظنه بالإسلام والمسلمين في كتبه ومحاضراته إن من كسبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الأوربيين قلائل جدًا ؟؟ يشكركم على إخلاصكم وصدقكم وأكدوا أن معظم من يكسون متأثرين بعوامل السياسية من الأمم الأخرى وإن ظهروا في مظهر علمي



أصبحت ديمقراطية أيضًا وأن لمتوسط غناهم هم أكثر من الأغنياء أرباب اليسار بل هم أخلص وأشرف وعلموا بالإحصاء أن واحدًا فقط في المائة من السياح الذين يصطافون أو يشتون في بلادهم يركب في الدرجة الأولى في السكك الحديدية و٨٥ في الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة إذا قصدوا كثيرًا في ماديتهم لا يعاودون رؤية تلك البلاد وفي سويسرا فنادق وإنزال على اختلاف أذواق الناس واقتدارهم فمن أراد الرفاهية يدفع ثمنها في قصور هي أحسن من قصور الملوك ومن أحب التوسط كان له ما أراد وكذلك من أحب أقل من التوسط وإني لم أسمع بأن إنسانًا يمكن في أوربا أن يأكل ويشرب وينام بفرنكين وهذا ما أعلن عنه مؤخرًا إحدى البيوت التي تنزل الأضياف عليها في لوزان.

يخالفونكم في رأيكم فقال: هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وفوق كل ذي علم عليم فتأمل.

القاعدة الرابعة: النظر أبدًا إلى راحة السائح وإظهار العناية بأمره [1] فقد عني السويسريون أن يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا أهم اللغات الأوربية الرئيسة يتكلم بها في المحطات والفنادق والمخازن إلخ والبريد من أسهل ما يمكن وفي زهاء ١٠٧ مدينة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الإنسان فيها عمَّا يشاء مجانًا وقد نظمت بمعرفة الشركات المحلية ولا عمل لعمال هذه المكاتب إلا أن يجيبوا الناس عمَّا يسألون من الصباح إلى المساء والشعب يبدي العطف على الغريب والعناية بأمره فالسويسريون إذا لم يكونوا في رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والأخذ بيده فيما لا يعلم ومرافقته مئات من الأمتار أحيانًا لدلالته على طريق أو غيره فهم وسط في

---

(١) منذ وصلت إلى مودوسولا على الحدود الإيطالية إلى أن خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم أشهد نقدًا يصح أن يوجه إلى أحد أو إلى إدارة سوى اللين واللطف بالغريب. وأذكر أنني ركبت القطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل القطار إلى لوزان فأجابني في الساعة الحادية عشرة ليلًا فجلست في المركبة وحدي وكان عدد الركاب قليلًا فبقيت فريدًا في الدرجة الثانية وليس لهذا القطار السريع سوى درجتين أولى وثانية كما هي معظم القطارات السريعة في أوربا قلمَّا قارب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا إلى لوزان فقال لقد قطعناها أما رأيت كيف وقفنا بها بضع دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الإيطالي فقد قصر في بيان ساعة الوصول بالضطب فقال لا بأس من ذلك فإنك تنزل في فالورب وتنام هناك وأنت هل كان أحد في انتظارك على المحطة في لوزان قلت اللهم لا. قال: إذًا تبيت في فالورب وفيها نزلان ومن الغد تعود إلى لوزان وأنا لا أدفعك أجرة عن المسافة التي ركبتها فوق تذكرتك لأن ما جرى ليس من صنعك ثم أنزلني من القطار لما وصلنا إلى فالورب وحمل لي أحد الصندوقين اللذين كانا معي وحملت أنا الآخر فأبقيناهما في محل الأمانات في المحطة وخرج معي ودلني على سمت الفندقين وسمى لي اسمهما وخيرني بين أحدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض ما يحب فانظر بالله عليك إلى هذه الأخلاق التي قلمَّا تراها من خادمك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو مكلف أن يضيع وقته معك على هذه الصورة في مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية.

ذلك فإن الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك بأوضح عبارة ممكنة وإذا شكرته لا يرى أنه يستحق الشكر.

القاعدة الخامسة: أن يعرض كل شيء أمام السائح من دون أن يعجز بمطالب مبرمة. وذلك أنك تصل إلى المحطة فلا تجد حمالًا بل أنت تصرخ حمال فيجيبك ولا تجد عاملًا من عمال الفنادق بل تجد لوحة موضوعة في مخرج المحطة فيها أسماء الفنادق في البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوذيًا يريد أن يركبك في مركبته ولا سائقًا يريد أن يستاقك في سيارته بل إذا أنت طلبت واحدًا منهم أتاك سريعًا بأدب. أما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد في إيطاليا فهذا لا أثر له لأن الشحاذة ممنوعة هنا أكثر من فرنسا ولا تجد أحدًا يتعرض لك لابتياع شيء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف أنواعها معروضة في الزجاج وقد كتبت عليها أسعارها وهذه أخصر طريقة وأشرفها في قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات والمشروبات يكتب عليها أسعارها ويجلس في المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئًا.

القاعدة السادسة: إرضاء جميع الأذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب ما يكدر وإذا وقع خلاف فيراعى ذوق الأكثرية. ولأجل استمالة قلوب السياح عني السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ في نشراتهم التي يستولون بها على عقل الغريب ما يشير إلى أن في بقعتهم ما يرضي جميع المشارب والأمزجة من أرباب الصفاء إلى طلاب الخلاء إلى المولعين بالألعاب الرياضية إلى الراغبين في التصعيد في جبال الألب إلى من يريدون التسلي إلى من يرغبون في التعليم إلى من يؤثرون الوحدة إلى المصورين والطبيعيين والأثريين وكل و احد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونه على ما يهمه.

نعم وفروا الراحة لجميع الأذواق وقاموا بما يرضي الأرواح والأشباح فترى أوقات الأطباء معينة مذكورًا إلى جانبها أوقات القداديس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن أو الواعظ. ولا يأتون ما تشمئز منه نفس السائح حتى إن دفن الموتى لا يجري في أوقات الصيف إلا قبل الشمس حتى لا يقع نظر السائح على ما ربما تشمئز منه نفسه فيذكر الموت في بلاد لا يجب أن يكون فيها إلا الصفاء والرخاء

وكثير من هذه الأعمال تقوم بها شركات لأن فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الأدبي السويسري وهذه عنيت بتربية الأدلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الألب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس في أهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الفرنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى في السنة نحو نصف التقاسيط وهناك شركات لا تحصى في كل مديرية لتحبيب البلاد إلى الأمم ونشر ما ينبغي عنها من مالهم وربما أعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد أو القرية إذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من أثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادمين على السويسريين سنة عن سنة.

والحكومة لم تدخر وسعًا في هذا السبيل فبذلت الأموال عن سعة في المدن والدساكر فتحت الشوارع الجميلة وجملت الأرض وعبدت الأرصفة الفسيحة وأنشأت المتنزهات الظليلة والحدائق العامة وأقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من أحب وأدخلت الكهرباء إلى كل مكان وكذلك التلفون والمياه الطاهرة النقية وأقيمت القهاوي المهمة في جميع المحال التي يلحظ أن المسافر يقصدها.

وقد أعد السويسريون جميع الألعاب الرياضية التي يحبها الإنكليز كالتينس والفوت بول وغيرها دع أيام الشتاء التزحلق والتدحرج في الثلج (لالوج والسكى والباتناج) عاداة أولع الغربيون بها تقليدًا للإنكليز وكل سنة يموت في خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم كل سنة عن أخرى. وبذلك كثر ترداد الناس إلى سويسرا في الشتاء ولا سيما الإنكليز والأميركان. ويقدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليوني نسمة فإذا فرض أن كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع أربعين مليونًا تأخذها سويسرا في أشهر معدودة من السنة من الألماني والإنكليزي والروسي والنمساوي والمجري والفرنساوي والإيطالي والاسبانيولي والبرتقالي واليوناني والمصري والهولاندي والأميركاني والبلجيكي والسكانديناڤي وغيره وللألمان المقام الأول في كثرة العدد وهم يؤثرون النزول في البيوت لرخص العيش فيها.

ويقدرون عدد الفنادق الكبيرة بزهاء ألفي فندق في سويسرا كلها من الطراز الأول والثاني أما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه أكثر من أن تعدو ما وصلت هذه الصناعة في إقراء الضيوف إلى هذا الحد من الارتقاء إلا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى أصبح السويسري معلمًا للأمم في صناعة الفنادق وكثير من مدن أوربا وحماماتها المعدنية ومتنزهاتها البحرية بيد أناس من السويسريين. ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام في هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين ألف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية.

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهي تتفنن في خدمة الفنادق والإنزال واستجلاب أنظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث أفكارها توزعها مجانًا دع المنشورات والكراسات والكتب

التي لا تقتصر في توزيعها وممّا أنشاته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليمًا على أسلوب معقول وذلك لأن ضرورة المباراة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يومًا بعد آخر ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الأطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للألعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بأن ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع أنواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وأن يذهب الواحد إلى غرفته حتى في النهار بدون ترخيص وأن يختلف إلى الأماكن العامة وأجرة المدرسة أو ثمن الأكل فيها فقط ١٢٠ فرنكًا في الشهر لابن سويسرا و١٥٠ للغريب ومدة الدراسة ثمانية أشهر ويسأل فيها الطالب في الأكثر في اللغات الحية ويجب أن تكون سنة من ١٦ إلى ١٨ وتدرس في هذه المدرسة الفرنسوية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافية العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطني وحسن الخط والحساب (أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات في الخدمة ودروس في التنظيم وحسن الهندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والألعاب والرقص. وبعد أن ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر أن مدرسة لوزان أرقاها.

وأنشأت شركة الفنادق تعلم أناسًا فن الطبخ وعهدت إلى خبراء يمتحنون من يريد الدخول في هذه الصناعة بعد أن ينال شهادة منهم بتقدمه فيها. ويقدرون رؤوس الأموال التي وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مليون فرنك وما برحت على ازدياد وأرباحها كذلك في اعتدال لأن السويسري يرضي بالربح القليل جريًا على ما تستلزمه القاعدة الاقتصادية.

وتختلف أجور الفنادق فمنها ما يدفع فيه الواحد في اليوم مائتي فرنك ومنها ما يأكل فيه وينام كل يوم بأربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين في الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين ألفًا معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع إليهم ١٦ مليون فرنك عدا الحلاوين التي تقدر بثلاثة أضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ما تربحه البلاد كلها من السياح والمعروف أن أرباحها من ذلك تجيء بعد أرباحها من صناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم إلا إذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فإن أرباح السياح يكون لها المنزلة الأولى وبها اغتنت سويسرا بعد أن كانت فقيرة.

طول الخطوط الحديدية في سويسرا نحو خمسة آلاف كيلو متراي ١٢ كيلو مترًا في كل عشرة آلاف متر مربع وقدر بـ٩٥ مليونًا عدد من ينتقلون كل سنة على خطوطها ولها طريقة جميلة في إعطاء أوراق اشتراك فيدفع الواحد ٤٥ فرنكًا يأخذ بها ورقة في الدرجة الثالثة يركب بها أي قطار أحب مدة خمسة عشر يومًا ويدفع ٦٥ في الدرجة الثانية و٩٠ للدرجة الأولى. هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية والحوافل. ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية في ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح في نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب في السنة وهي دائمًا تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها. والبرد متصلة علائقها مع السكك الحديدية وفيها جميع أنواع الراحة للغريب ومراكز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت إحدى الصحف مؤخرًا ما مثاله: ينم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة ما يبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فإن لكل ٢٣٤ ساكنًا فيها صندوق بريد وفي سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ في لوكسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ ألمانيا صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساويًا صندوق ثم تجيء النمسا

فإنكلترا فالبرتقال أما العثمانية فقد أحرزت الدرجة الأخيرة إذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩,٣٠٠ عثماني! هذا بعض ما عرفته عن سويسرا وما يأتيه الأفراد والحكومة لجلب السياح إليها حتى أصبحت فندق أوربا حقًّا وصدقًا.

سويسرا: تفننها في الإعلانات
٦٢

لا ترى في مدينة سويسرا نقصًا في فرع من فروعها وعمل من أعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل إدارة وكل معمل وكل شارع وكل حي وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شيء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل إليه والمعاملة معه بحيث لا يحتاج الإنسان أن يسأل أحدًا وربما إذا ترويت قليلًا بالنظر لوضوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقلمًا تطلب من يدلك على من تقصده إذا كانت نمرة محله واسم شارعه في جيبك. خاصية غريبة قلمًا تجد مثلها حتى في كثير من البلدان الراقية. بل قد كتب على الأبواب الخاصة والعامة (ادفع) أو (اقفل) وكتب على المراحيض (ارفع) أو (اخفض) لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب (الرجاء مسح رجليك) وكتب في المدارس (إياك وإدخال عصاك أو مظلتك إلى الداخل) وكتب على الصور والتماثيل (ممنوع مس شيء) وكتب على صناديق البريد (تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا) ولو أردنا تعداد مثل ذلك لطال بنا المطال وسئم القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا في عالم الخيال.

ومن يظن أن في دور البريد صناديق تدفع إليها ثمن الطابع كما هو في بعض بلاد أوربا الراقية فينزل إليك فتلصقه على كتابك وفي صناديق

البيوت التي تعلق في دهليز الدار وتكون هذه مؤلفة على الأكثر من خمس أو ست طبقات كل طبقة شقتان أو مسكنان فيجيء الساعي ويضع كتب كل منزل وجرائده في صندوقه حتى إذا وضعها يطن جرس من داخل الصندوق فيسمع أهل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفًا على الناس من الحركة بدون لزوم وفي المخازن والمحال العامة صناديق للقبض والصرف لا تغلط في العد والحساب وتحصي على العامل ما أباعه في يومه.

ذكرنا هذا وإن كان بعضها لا يدخل في باب الإعلان الذي هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالإعلان في الغرب حدًّا من الارتقاء لا يكاد يوصف وأظن سويسيرا إن لم تكن أرقى الغربيين في التفنن بإعلاناتها فهي من أرقاهم بلا جدال وكفاها فخرًا أنها لولا الإعلان عن بلادها ما استطاعت أن يكون لها هذا الغنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال أصقاعها وربما أفرطت في ذلك أحيانًا لمقتضى الوصف الشعري ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التي توزعها مكاتب الاستعلامات مجانًا على طالبيها فما رأيت أكثر من مهارتهم ي إيجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة في أرض سويسرا

وكل شيء هنا بالإعلانات إذا لم تقرأ أصحفها لا تهتدي إلى ما تريد ابتياعه أو عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة إعلانات مقاطعة كذا ومنها ما يطبع الثلاثين والأربعين ألفًا في اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات في السنة تصدر في ثماني أو عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها إعلانات إلا الصفحة الأخيرة أو الصفحتان الآخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفي الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الأقل. وكل جريدة مرتبطة مع شركة

إعلانات تبتاع منها قدرًا معينًا من الصحيفة وهي تفتش لها على إعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها. كنت أتلهى في الأحايين بقراءة بعض الإعلانات في الصحف لأعرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت أستغرب في الضحك عندما أقرأ السذاجة تغلب على إعلاناتهم والتفنن فيها آخذ مأخذه من النيقة والعناية.

فمنهم من يعلن عن ١٠٠ كيلو من الجبن من جنس كذا بثمن كذا ومنهم من يقول إن عنده رأسين من البقر عمرهما كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يحب أن يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأسًا من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدنه وآخر عن بيع عربته أو دراجته أو دثارد أو صندوقه أو ثيابه وآخر عن خنزيره الذي علفه وغيره عن حذائه الذي ما أتلفه. وتجد آخر يعلن عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزانته وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه أو محراثه أو منكاشه أو مجرفته أو حصادته وعصارته ومذراته وآلة تصويره وآلة خياطته وآلة حياكته وآخر عن كلبه والصدق يغلب عليهم في إعلانهم عن مناعهم وآنيتهم وأدواتهم.

أما التفنن في الإعلان عن الاستخدام وطلب عمل في مخزن أو حقل أو إدارة أو منزل ذكورًا كانوا أم أناثًا صغارًا أم كبارًا فهذا ممَّا بلغ الغاية التي لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الأجرة التي يريدها بأخصر عبارة تستهوي القارئ وتستدعي الراغب فيه إلى مفاوضته ومخابرته على أسرع ما يمكن وكل يوم نقرأ إعلانات كثيرة في طلب حالب بقرات تبلغ عدد كذا في محل كذا بأجرة كذا ومستخدم لمخزن يعرف كذا وطاهية تحسن إدارة بيت فيه كذا من الأنفس وبواب لمحل كذا وسائس بأجرة كذا وحوذي وسائق وراع كذلك وحراث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة في معمل إلى غير ذلك

من الأساليب التي لم يسمع بهاالشرق وهي من اختراع الغرب لأن الإعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد.

الإعلان عن الحاجيات والكماليات لطيف ونافع ولكن ما كان يظن أن الغربيين إذا أعلنوا عن بيع كذا وإيجار كذا وعمل كذا أنهم يتزوجون بالإعلانات ويستمتعون بالإعلانات أيضًا تساوي في طلب ذلك الرجال والنساء لأنهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التي لا عيب فيها وغاية الأمر أنهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة. وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما أظن جريدة (الجورنال) الباريزية ثم تبعتها على الأثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وإن كان عدد الطالبين والطالبات أقل من عددهم في باريز.

وذلك بأن يطلب أحدهم خادمة تستخدم لكل شيء بأجرة كذا على أن تقوم بعمل كذا وأن يكون عمرها كذا من السنين أو أن الخادمة تطلب ذلك ولا تتوقف عن أن تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها. أكتب هذا وأمامي صحيفة إعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها أن امرأة إسرائيلية تريد التعرف إلى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاين وأن تكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه. ومنها أن عقائل وأوانس يردن أن يتعرفن إلى خواجات تكون لهم مراكز طيبة ومنها أن شابًا في الثالثة والثلاثين لا يتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب حسن في الأرياف يريد أن يتعرف إلى فتاة في الخامسة والعشرين إلى الثلاثين ويؤثر أن تكون مسيحية ومعودة النظام ويقبل بأن تكون حاملة شيئًا من النقود وأنه رزين لا يفشي سرًا وإذا أرسلت إليه الصورة الفوتوغرافية يعيدها في الحال والرجاء أن يكتب في ذلك بنمرة كذا لإدارة جريدة لوزان.

والقوم هنا لا يكتفون بتعليق إعلاناتهم على الحوائط والمركبات في السكك الحديدية والكهربائية وعجلات النقل وفي الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الأبواب والنوافذ ورؤوس الأبنية بل إن التاجر يعلن عن محله حتى في الورق الذي يصر لك به قميصًا أو بدلة أو كتابًا أو حذاء أو منديلًا أو ورقًا أو أي شيء تبتاعه بل إن الخيط الذي يربط به الإضبارة أو الرزمة قد كتب عليه اسم محله ونمرته وما فيه وهكذا في جميع ما يخطر ببال.

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها أنها إذا لم تكثر من الإعلان عنها يتناساها الناس وتقل أرباحها وهذه لوزان لولا ما تفنن أهلها في الإعلان ما أصبحت عاصمة العلم في سويسرا الفرنساوية ويبلغ طلبة كليتها ألفًا وأربعمائة منهم نحو ألف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة التي يعيش بالعلم فيها أناس لا يستقل بعددهم ومنها ما يدرس فن تدبير المنزل وآخر الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الألعاب الرياضية إلى آخر ما تفننوا فيه فجاء الغريب يستفيد منه فكان للوزان فصلان فصل الصيف يكثر فيه السائحون للنزهة وفصل الشتاء يكون خاصًا بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من ذلك أ هل البلاد مئات الألوف من الليرات.

وبلغ من تفنن القوم بالإعلانات أن أحدهم ألف كتابًا في فن الطبخ فكسد كساد بضاعة العلم في بلاد العرب ففكر فلم يجد أحسن من أن يعلن أن الفتاة التي تراجعه مرسلة إليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجها تكفيها غوائل الدهر وحوادث الأيام فكان يبعث لكل مرسلة بالمبلغ المطلوب بنسخة من كتابه ويقول لها تعلمي هذا فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة. وكتب بعضهم إذا أردت أن تغتني فاعمل عملي وأنا لا أعلمك ما عملت إلا إذا بعثت بكذا فرنك حوالة. فكان جواب هذا

الشاطر لمن طلب إليه النصحية أن يقول له اعمل عملي فتغتني لا محالة أي اكتب في إعلانك كما كتبت وهناك المال يفيض عليك.

ولكن هذه الطرق نادرة جدًّا والصدق هو الغالب على الإعلانات كما قلنا ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بأمرها وأسست لها البيوت والشركات المهمة التي تدخلها فتظن نفسك في مصرف كبير أو معمل خطير. والإعلانات مادة الصحف في الغرب وكثير من أمهات جرائدها لا تصدر يومًا واحدًا لولا الإعلانات لأن ما تأخذه من القراء والمشتركين لا يبلغ ثمن الورق مع أنها تطبع بمئات الألوف فتأمل يا تاجر بلادنا.

سويسرا: التربية العملية
٦٣

من أعظم أسرار امتياز الغربي عن الشرقي إن الفرد عندهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل في عيشنا في الأغلب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جدًّا فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية في المعاش من صناعة وزراعة وتجارة وأقل منه فتى أو فتاة في مقتبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ أسباب الكسب انتظارًا لإرث ربما يورثه إياه أبوه أو أمه أو لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل.

حالة تدهش في الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ما تعهد من عيش الاتكال الذي أنقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من خالق مجد وسعة إلى دركات ذلة وفاقة. كلما ذكرنا وأيم الحق إن في دمشق نحو ثلاثة عشر ألف شحاذ أكثرهم أصحاء أقوياء نقضي العجب من حالنا ونسجل بأننا سواء وحكومتنا في هذا النوم أو التناوم عن السعي

في مداواة أمراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية.

وإني آسف وأبكي لمئات من الشبان في سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة وطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتهم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون عالة على أهلهم ومنهم الموسع عليه في رزقه لا يتنزلون للاحتراف بحرفة ولا يرون أنه يليق بهم إلا أن يتصدروا على مقاعد الحكم آمرين ناهين يؤثرون البطالة منتظرين أن يموت أولياؤهم ليستولوا على أموالهم وفي الغالب أن يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف أولادًا كثارًا تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءًا قليلًا لا يستطيع إنماءه ولا يقوم بتفخله وبذخه هذا إذا لم يكن فاسد الأخلاق ولم يصرف دخل سنة في شهر وهناك بشره بالفقر إلى أرذل العمر.

أما الغرب فحاله غير حالنا إذا تعلم الولد التعليم الابتدائي غالبًا يبدأ أهله يقطعون عنه راتبه ويطالبونه بأجرة الدار وثمن الطعام ليلقي بنفسه في معمعان الحياة ويعلم أنه فرد مسئول عن نفسه لا يقوم بإعالته غير عمله ولهذا مئات الألوف من الأمثلة ولقد قلنا في مقالة سبقت أن ليس في الأرض امرأة ضاهت الرجل في عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن في هذه الجمهورية السعيدة غنيات كنَّ أو فقيرات ولذلك تزيد ثروة البلاد يومًا بعد آخر وترتقي في كل فرع من فروعها المدنية الحيوية. وحال معظم أمم الحضارة كذلك.

أكتب هذا وأمامي أربع فتيات في النزل الذي أويت إليه في لوزان لا أطلب لوطني إلا أن يكون رجاله دع نساءه في درجتهن من التفاني في الحياة العملية والتناغي بحب الاستقلال في الأعمال. الفتاة الأولى

إنكليزية والثانية ألمانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية ألمانية وكلهن سواء في كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال.

قالت لي الفرنساوية السويسرية وهي في الحادية والعشرين من عمرها تعطي دروسًا في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا: أنه متعهد أبنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكنًا نؤجرهما في (شالي) من ضواحي لوزان وشقيقي الواحد صاحب نزل في نيس والآخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك في الشرق يستريح ولا يعرف إلا الأزياء والرفاهية فقالت إن الناس كلهم في سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل أن أعيش عالة على والدي أو والدتي ولا على أحد أشقائي بل أعمل وأجمع ثروة لنفسي عملًا بسنة العاملين والعاملات.

أما الفتاة الإنكليزية وهي في الحادية والعشرين أيضًا فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل في إحدى البيوت الخاصة التي توفرت على تعليم الفتيات اللائي تخرجن من المدارس العليا في إنكلترا وألمانيا وروسيا أو غيرها وأردن أن يتقدمن في معرفة الفرنساوية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الأوربية الراقية التي تليق لترأس المجتمعات العالية والتصدر في الردهات والقاعات. قالت إنها تعلم الإنكليزية وهي لا تتناول مالًا وإنما تعيش مع الفتيات في مدرسة وتتعلم الإفرنسية بهذه الواسطة. وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة إلى الجبال للتزحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فأقفل باب النزل فعرض عليها هي ورفيقتها الفتاة الألمانية أن يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء في لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة في النزل الذي نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح أبواب منزلهاأو مدرستها.

أما الفتاة الألمانية رفيقة الإنكليزية فهي في الثالثة والعشرين وحالها أيضًا حال رفيقتها تعلم الألمانية وتتعلم الإفرنسية وتزيد عليها بأن تعطي دروسًا خارج المدرسة وأهلها أصحاب يسار في الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الإفرنسية وهذه هي الواسطة التي رأت أن تعمد إليها في إتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها في صدرها إلى لغة كيتي وشيلر.

أما الرابعة وهي ألمانية سويسرية فحالها أدهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لأن والدها صاحب مخزنين في لوسرن وانتلاكون لو حسب ما يملكه على حساب بلادنا لعد من الأغنياء عندنا على أنه لا يعد في المحاويج بل المتوسطين هنا فأراد أن يعلم ابنه وابنته الإفرنسية لمسيس الحاجة إليها في تجارته وحتى يكونا على أتم الاستعداد لتلقي مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو في السابعة عشرة يجعله في نزل في أرباض لوزان خادمًا يأكل وينام ويتناول راتبًا قليلًا ويتعلم الإفرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر في المدرسة.

وشقيقة هذا الفتى في التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب أن تتعلم الإفرنسية وتدبير المنزل وتعيش مستقلة فجعلها أبوها خادمة براتب ٢٥ فرنكًا في الشهر في النزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع أعمال المنزل إلا ملاحظة الطب فإن صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فترى تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحًا إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلًا تعمل بكد لم أر مثله وتقوم بجميع أنواع الخدمة عل صورة مدهشة فبينا تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح أدواتها الكثيرة أو تفرك الدهليز والممشى والزجاج والدرفات والأبواب إذا هي تتعهد المطبخ أو تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق أو تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة أو تجلو الطباق والصحون أو غير ذلك ممَّا يكثر عدده في البيوت الأوربية تعمل كل ذلك

ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لا تراها إلا باسمة في حين حرمت من رفاهيتها في دار أبيها وعنده الخادمات والخدمة.

هذا مثال ممَّا رأيته بالذات من أمثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الأوربيين بعد أن عدوا كل عمل شريفًا اللهم إلا ما يثلم العرض ويعبث بالمروءة وهذا لا تكاد تخلو منه أمة مهما ادعت أنها أمة أخلاق وتدين وشرف.

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على أهلها بعملها مئة أو مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك أيستطيع أحد أبناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب أن يقول لابنه اذهب إلى بلد كذا واخدم وتعلم فضلًا عن أن يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة و الحساب فعلميها لمن يعلمك الطبخ وتدبير المنزل والخياطة والتفصيل.

رأينا في مصر والشام أناسًا من المساتير لم يعقهم عن تعليم أولادهم التعليم المطلوب إلا ضيق ذات يدهم وكثرة أولادهم لأنهم كلهم يريدون أن يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الغنى صاحب المزارع والعقارات. ورأينا أناسًا فادوا بالمال واقتطعوا جانبًا من رؤوس أموالهم ليعلموا به أولادهم على أمل أن يعينوهم في أيامهم السود فكان من أولادهم من تعلموا تعليمًا ناقصًا ولم يكن منهم إلا أن عظمت نفوسهم وظنوا أنفسهم شيئًا مذكورًا وشمخت أنوفهم عن العمل إلا في الأعمال التي يصورها لهم الخيال إنها نافعة شريفة وذهب ما صرفه أولياؤهم من الذهب عبثًا.

الأولاد إذا ربوا كما يربى السويسري والألماني والإنكليزي بناته جاء منهم محكنون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون في الحياة من الصغير فيرتقون إلى الكبير. يتهمون الألمان بالشح والفرنسيس بالاقتصاد

الزائد والإنكليز بقسوة القلب والحقيقة أن البشر كله من طينة واحدة يحن إلى أولاده ويستميت في ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم أنهم يلقنون أولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن ننشئهم على حياة الاتكال والرضا بالقلة.

أيأتي يا ترى على الشرق الأقرب يوم ترى فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد أو أبناؤنا وأحفادنا مثالًا من الأمم التي تود البقاء لا الدثور والفناء أم نبقي هكذا يسرق بعضنا بعضًا ونعد عمله مهارة أو ينتظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين أم تضعف وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعي من بناها إلى بلاد أخرى حيث الحياة سهلة والعيش مخضل.

طف المدينة والمزرعة وأدخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والأشراف في سويسرا تجدهم كلهم لا يستنكفون عن العمل. في لوزان سوق تقام مرتين في الأسبوع على عادة معظم.المدن الأوربية مثل سوق الأحد وسوق الجمعة في دمشق تباع في ذاك السوق جميع أنواع المأكول والملبوس والمنظور فترى فيه نموذجًا صالحًا من حاصلات البلاد وصناعتها وأكثرها رخيص قصدته عدة مرات للفرجة وابتياع بعض اللوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بأنفسهن حاجات بيوتهن يجعلنها في كيس براق من المطرز ويحملنها إلى مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند أكثرهم على ما بلغني الخادمات والطباخات والوصيفات قلمّا يعهدن إليهن بشراء حاجة ولو طفيفة ويذهبن بأنفسهن لابتياعها.

وهكذا تجد الديمقراطية تشربتها نفوس الكبير والصغير فلا يجد أحد من المعيب أن يخدم نفسه وداره وأهله وسواء في الشرف من يكسح

القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات في النهار ومن يملك مصرفًا كبيرًا يعد ما يربحه كل يوم بمئات من الفرنكات ما دام كلاهما يعمل في دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق بأحد وأول ما يسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل أن يسأل عن جمالها ما هي معارفها وما تستطيع عمله. فاللهم علمنا علمًا ينفعنا في نهوضنا حتى لا نخجل من انحطاطنا في أنفسنا دع خجالتنا أمام غيرنا فإن الفرق بين بلادنا وبلادهم أصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راء كمن سمع

قل سيروا في الأرض
٦٤

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث الليل والنهار. وإني لأتمنى لكل من ساعدته الحال أن ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فإن النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور وللحرارة وإلا فتذبل كالزهرة.

قال وليم هازلت من مفكري الإنكليز (إن الوقت الذي أمضيناه في السياحة الأجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لا سبيل إلى وصله ولا وسيلة إلى إدماجه والمرء ما دام خارج وطنه رجل آخر غير الذي كان هنالك حتى إن المسافر ليودع نفسه فيمن يودع ولله در القائل: خرجت من موطني ومن نفسي. فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب إلى غير بلده من بلاد الله يجد في عجيب المناظر وغريب الأحوال سلوة وروحًا وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات الأسى ولذلك كنت أنفق حياتي خارج بلادي لو وجدت من يقرضني حياة أخرى أنفقها في وطني حتى أقضي حقوقه اهـ).

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى أكثر الأمم رقيًا أكثرها سياحًا والعكس بالعكس. والإنكليز والأميركان هم في المقدمة ثم يجيء الألمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة وأمتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لأنها اعتادت سير القهقري وإنا لو أخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لا تجد لنا إلا عددًا يضحك بالنسبة لأرباب الرحلات من الأمم. أما العرب السوريون ممن يهاجرون إلى أميركا فهؤلاء لا يقصدون من رحيلهم إلا الكسب ولا يعرفون على الأغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علمًا وعملًا.

نتمنى لأمتنا أن يسيح منها العلماء والوجهاء والتجار والموظفون وأرباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق ما رأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل. فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتكاك بغيرها من أهل طبقتها في الغرب إذا أخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويح النفس.

السياحة لا تكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فإن العارف قد يستطيع أن يطوف أهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه أكثر من ليرة مرفهًا رفاهية لا تتيسر له في بلده ولو كان من أغنى أغنيائها لأن البلاد في الغرب كلها منظم ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الأخذ بأسباب الراحة والعيش فيما خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو أرخص ممَّا هو في بلادنا فإن المصطاف أو المشتي في سويسرا قد يستطيع أن يكون في عائلة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والمنام الجيد أكثر من ١٥٠ فرنكًا وهذا قلمَّا تجد له مثيلًا في بلدة أوربية اللهم إلا في المدن الصغرى أو القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرية بأن يتعلم فيها الشرقي سنين لا أيامًا ومن رأى مدينة أو اثنتين يكون قد رأى نموذجًا صالحًا من هذه المدينة الفاضلة.

بيد أن من يسيح في الغرب لا يصح له أن يتخلى عن غشيان العواصم الأمهات مقر المدنيات الضخمة كرومية ولندن وباريز وبرلين وفينا وهذه العواصم يكتفي منها السائح ببضعة أيام والأولى أن ينظر إلى دولاب الحركة في المدن الصغرى إذ يستطيع أن يحيط بها فكره أما العواصم الكبرى فإن أهلها قد ضاعوا فيها ولا تكاد تجد واحدًا منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلًا كلمًا غبت عنها أشهرًا وعدت إليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد فخمة لم تكن من قبل وكل شيء فيها يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالفرع الواحد فيها إذا أراد درسه السائح الشرقي لا يتيسر له في أقل من بضعة أشهر ولكن النظرة الإجمالية يكفي لها خمسة عشر يومًا ومثلها سائر العواصم وأصعبها على السائح إحاطة لندن مدينة الثمانية ملايين نسمة ونيويورك مدينة الخمسة ملايين.

إن مدنية الغرب متشابهة في أكثر الأوضاع فمن رأى نموذجًا منها اكتفى والزيادة على ذلك من النوافل. من زار باريز مثلًا يشهد أعظم نموذج في الحضارة الحديثة. وخير لمن يعرف لغة مملكة في الأكثر أن يذهب إليها. وإن كان من يعرف لغة أوربية كبرى مثل الإفرنسية أو الإنكليزية يستطيع أن يسيح بدون عناء في كل مملكه ويتفاهم مع أهلها ولا سيما أهل الطبقة العليا والتجار والعلماء

ثلاث لغات أصول هي التي تفرعت منها لغات القارات الثلاث أوربا وأميركا وأوستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلًا لا يشق عليه السياحة ف البلقان وأكثر النمسا ومن عرف الإنكليزية استطاع السياحة في أميركا الشمالية وأوستراليا ومن عرف الإفرنسية كانت عليه سياحة إيطاليا وأسبانيا والبرتقال والبرازيل والأرجنتين مثلًا من أسهل الأشياء.

أما من لم يكتب له الأخذ بحظ من هذه اللغات وأراد الاستفادة من الغرب فليس أحسن له من استصحاب ترجمان من بلاده ويكون ممن سبقت له الرحلة إلى ديار الغرب وإذا أريد الاقتصاد فالأولى أن يجتمع كل ثلاثة أو أربعة أشخاص ويرافقهم ترجمان مؤتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث. ولقد شاهدنا كثيرًا من أغنياء مصر ساحوا أوربا وهم لا يعرفون لغة من لغاتها ولكنهم بواسطة التراجمة استطاعوا أن يحسنوا التصرف بيد أن الأولى أن يكون المرء نفسه عارفًا بإحدى لغاتهم وهناك حدث ما شئت أن تحدث عن استفادته وسروره.

وبالجملة فإن الخوف من السياحة توهم ليس في محله فلا المال وقلته ولا عدم الإحاطة بلغة إفرنجية بل إن المحرك الأعظم في السياحة الإرادة ومن صحت عزيمته زعزع الجبال فما بالك بالسياحة وأبناء السابعة والثامنة اليوم يسيحون في أوربا وأميركا بدون أن يخشوا ضررًا والفتيات الجميلات يضربن في البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل أن يكون فتيان الغرب وفتياته أرقى منَّا كعبًا وأكثر إقدامًا ما دامت لنا في السياحة فوائد لا يقدرها الخامل في بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما إن المدرسة هي المعلمة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علمًا نافعًا.

نحن في البلاد الفرنسوية
٦٥

ليس عجيبًا أن ترى العثماني والإيراني وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالي من إفريقية يطربون في البلاد الفرنسوية ويؤثرونها على غيرها من بلاد الغرب في التجارة والتعلم والنزهة فإن

معرفة لغة قوم هي مفتاح جميع هذه الأعمال وتعليل صحيح لعامة هذه الأحوال.

انتبهت فرنسا قبل غيرها لاستتباع الشرق الأقرب بتعليمه على مناحيها وتلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعوث، وترسل المعلمين مبشرين بمدنيتها ولغتها فلم يمض زمن طويل وفرنسا إذ ذاك صاحبة الكلمة الأولى في السياسة الغربية قبل إنكلترا وألمانيا وروسيا إلا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الإفرنسية ويأخذون عنها ويؤثرون الفرنسيس على غيرهم لأنهم لم يعرفوا غيرهم خصوصًا وإن المرونة التي يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيس عرفوا بلين الجانب وكثرة التفاني بتعليم ما عندهم لغيرهم لأنهم يرون لغتهم أرقى اللغات الأوربية وأمتهم في مقدمة الشعوب التي قاتلت لأجل الحرية.

إن ميل الفرنسيس [1] للابتكار في كل شيء دعا إلى نشر أفكارهم وأوضاعهم في بلادنا.

---

(١) كتب أحدهم مقالة افتتاحية في جريدة الأيكودي باري قال فيها: إنه ممَّا أثبتته التجارب أن الفرنسوي خلق مخترعًا وقد أتى الفرنسيس أمثال لافوازيه وكوفيه وكلود برنال وبيشا وباستور من الأعمال العلمية ما استحقوا به أن يكونوا مؤسسين لجميع العلوم الحياتية والكيمياء والتشريع والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت أهم الاختراعات الغربية في الأربعين سنة الأخيرة على أيدي الفرنسيس فهم الذين اخترعوا سر التلغراف بلا سلك وأوجدوا صناعة الأتوموبيلات وعملوا مدفعًا من عيار ٧٥ وعثروا على الأسباب الرئيسة التي سمحت بالطيران. وهكذا في السياسة فإن الفرنسيس أول من أوجدوا في أوربا وحدة وطنية وهي الوحدة الفرنسية وأول من أسسوا وطنًا وهو الوطن الفرنسوي وهم كانوا أول الناشرين تحت ستار الحرية والمساواة الأفكار الثورية.

فالفكر الفرنسوي حاد ينبه بسرعة للصلات المجهولة في الأشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التي تحدث بين أجزاء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته للمعقول وحبه للوضوح. الفرنسوي جريء على مثال لويس الثالث عشر ونابليون والموت

الفرنسوي يتحرك في الهواء أسرع من الطير. وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه تظنها بلادة منه ولكنه يستطيع أن يجعل للطيارين ولمراكز الطيران نظامًا معقولًا وإذا سقطت في درجات الأشياء الصغرى ترى الفرنسوي على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام. ويقال في ذلك إن الفرنسوي يكره وهو على هذه الصورة من الحركة أن ينثني إلى ضرورة انتباه طويل متساوق ويشعر بأنه يخنع إذا لم ير نفسه مائلة إلى الأعمال المختلفة التي تحثه وإذا وجب عليه أن يعمل عملًا مجهولًا يحتاج إلى صبر. أما الألماني فهو على العكس من ذلك له قليل جدًّا من النبوغ في الاختراع والإيجاد بل لا يكاد يذكر له شيء منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالانتفاع بما اخترع وتنظيمه.

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين في ألمانيا القديمة الذين اخترعوا وأوجدوا فإن الألماني لا يخترع لأن فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الأنوار الفجائية التي توحي بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع

الذي كثيرًا ما يكون جراء المخترع قلمًا يفرغه بل يبعث همته ويشحذ سيف مضائه. وللفرنسي ميل للحوادث وذوق في اكتشاف المجهول وهذا ممًا حدا بكثير من الضباط أن يتجشموا الأخطار إلى آسيا وأفريقية لفتح أراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذي ساق فما مضى النورمانديين والبروتونيين إلى سلوك البحار التي لم يسلكها أحد ليؤسسوا مدائن في الشواطئ البعيدة.
هذا هو الوجه الحسن وإذا جئنا إلى نقيضه نرى الفرنسوي يخترع ولكنه ما قط عرف الانتفاع بثمرة اختراعه ولا يخفق ويعظم ما اخترعه. و؟؟ العقيمة تحمل إلى غيره الانتفاع بتطبيق ما أوجده هو. فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الألمان أو الإيطاليين أو الأسبانيين هم الذين يستثمرونها. اختراعاته في العلوم لا يقع عليها حصر ولكنه لم يستعملها قط لتحسين أدواته أو حاصلاته فقد أسس مثلًا الكيمياء ولكن ألمانيا هي التي وجدت في الصناعة الكيماوية موردًا عظيمًا من الثروة أي مليارًا وستمائة ألف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وأنشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا ألف عامل يدفع إليهم ٢٦٠ مليون فرنك مشاهرات وأجورًا.

فهناك حدث ما شئت أن تحدث عن حسن استخدامه له فهو يحب العمل الذي يحتاج لثبات ولا يستعجل لأن الضروري عنده أن لا يعمل بسرعة بل أن يعمل بجودة وأن يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزًا لساعة العمل ولا يبدأ قط بطيئًا.

جاء الألماني بعد الفرنسوي في الطيران ولكنه أدهش العالم بتنظيمه له فلم يخبط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ما ينبغي أن يرى ووفاه حقه. له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها التجار والصناع الذين يبعث إليها بها. الألماني لم يخترع التلفون ولكن لألمانيا الآن نحو مائتي الف كيلو متر من الأسلاك التلفونية أي أكثر من فرنسا وعدوا المخابرات التلفونية في بلاده بـ٨٠٠ مليون مقابل ١٩٠ مليونًا في فرنسا وما من قرية ألمانية مهما صغرت إلا وهي مرتبطة بهاتف تخابر به وإدارتها في البريد أول إدارة في العالم. وهي تعترف أن ليس بين كيماوييها الكثار واحد مثل لافوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجربية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية. إن كان الفرنسوي مخترع الأصباغ الصناعية فالألماني بفضل مدارسه ومعامله أتى فيها بالعجائب حتى كاد يتخص بتجارة الأصباغ. وما من بلد يعنى فيها بتجديد أدواتها على الدوام لتكون كاملة من كل وجه على أحدث طرز كما يعنى في ألمانيا. وإلقاء أدنى نظرة على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك إلخ.

ثم انتبه الإنكليز والأميركان ثم الألمان والطليان للأمر ولكن بعد أن رسخ التمدن الفرنساوي في النفوس وكثر أنصاره بطبيعة الحال مع أنه ربما كان في أوضاع الأمم الأخرى ما يماثله أو يفوقه. وإذا قبلت مصر والعثمانية وإيران أن تعلم الإفرنسية بصفة إجبارية في مدارسها مثل لغة

البلاد كان ذلك من أكبر المعونات على بث هذه اللغة البديعة فاتخذناها لغة التخاطب والتكاتب في التجارة والسياسة.

للبلاد المصرية والعثمانية والإيرانية في البلاد الفرنسوية اليوم مئات من الطلبة يدرسون العلوم المنوعة في مدارسها في حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين في مدارس إنكلترا وأميركا وأكثرهم من المصريين والهنود أما في ألمانيا والنمسا وإيطاليا وروسيا فإن عددهم يعد من الأنامل والإيرانيون أكثر الشرقيين اختلافًا إلى مدارس روسيا للجوار والسياسة.

فإذا طربت النفس يوم دخولها أرض فرنسا وسويسرا الفرنسوية وبلجيكا الفرنساوية فذلك لأننا نشعر بأننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هم. إننا نستفيد هنا أضعاف استفادتنا في أي أرض سواها لأننا نجد تقاربًا في الأفكار والمناحي ولأننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا على الزمن أنسة بأوضاعها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت ما بينه وبينهم من الفوارق وتيسر له أن يشاركهم ويشاركوه في كل ما لا يضر بعاداته واخلاقه الخاصة.

إن المدنية الأوربية تتسرب كل يوم إلى عقولنا في طرق مختلفة تنقلها الصحف والسياح والمدارس والجيش والأسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو أردت أن تجردنا ممَّا استفدناه منها منذ عهد محمد علي الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا قرونًا إلى الوراء ظننتنا معها من أهل القرن السابع أو الثامن للهجرة على نحو ما تشاهد اليوم الأفغانيين أو المراكشيين أو الجاويين الذين سدلوا دون مدنية الغرب حجابًا كثيفًا فحرموا من حسناتها ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها.

إن سكان الشرق الأقرب إذا ذكروا الفرنسيس كثيرًا فذلك لأنهم يعتقدون فرنسا فاتحة العالم وممدنته على نحو ما كانت على عهد نابليون الأول ففرنسا هي التي وضعت في الحقيقة أساس النهضة المصرية الحديثة وفرنسا هي التي كانت كذلك في سورية منذ جاء نابليون عكا طامعًا في فتحها لأنها كانت مفتاح سورية حتى إذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى في إعطاء لبنان استقلالًا إداريًا عظمت تلك المنة على أهلها وعمت المدنية الإفرنسية بلاد الشام من طرق مختلفة خاصة وعامة وطنية وأجنبية رسمية وغير رسمية.

نحن اليوم إذا لجأنا إلى فرنسا في معظم حالاتنا فللأثر الناتج من تلك التربية والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الأخذ من مدنية القوم ولكن يضرنا الغلو والجمود فكما إن الفرنسيس أنفسهم لا يستنكفون أن يقتبسوا ما عند الأمم الأخرى كالإنكليز والألمان والأميركان مثلًا ممّا ليس في أوضاعهم فنحن من مصلحتنا أن لا نكون حكرة لأمة فنأخذ عن كل قبيل أحسن ما عندهم ولا نقول هذا سويسري وذاك بلجيكي وهذا فرنسوي وآخر ألماني وغيره إيطالي أو إنكليزي فكلهم أرقى منّا مراحل ونحن في حاجة لكل من يعلمنا مدنية تنهض بنا من خمولنا ليساوينا بنفسه بعد ونعد شيئًا مذكورًا في سلسلة المراتب البشرية.

رأيت كثيرًا من خاصة الطليان والألمان والإنكليز يشيرون إلى أن السوريين خاصة من بين سكان الشرق الأدنى يغالون بحب الفرنسيس وليس حتى في البلاد التي حكمتها فرنسا في أقطار الشرق بلد كسورية يحسن أهلها الظن بالفرنسيس فكنت أقول لهم إن ذلك صحيح ولكن لا على إطلاقه فإن القوم هناك درجات ومن يحبون الفرنسيس هم الذين أحسن هؤلاء إليهم بتعليمهم على أساليبهم وتلقينهم لغتهم العذبة فأممكم أيضًا إذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وأمجادها يعترف السوريون لها

بصنيعها ويصبحون زبنها في التجارة. وكيف يحب السوري ألمانيًا مثلًا وهو لا يعرف عنها إلا ما يقرأه في الجرائد الفرنسوية والكتب الإفرنسية وألمانيا حتى الآن لم تفتح لهم مدرسة راقية في سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها.

لا ينال المرء إلا بقدر ما بذل. والأمم الانكلوسكسونية هي أرقى الأمم بأخلاقها وآدابها ولكن أنانيتها الكثيرة دعتها إلى أن أحبت في العهد الأخير الانتفاع من الشرق دون أن تبذل في سبيل رقيه درهمًا أو تخطو إلى إعلاء شأنه قدمًا. ولذلك يبقى الشرق الأقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من أمم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية. ولا عار علينا إذا صرحنا بأننا نطرب في أرض فرنسا لأننا لا نعرف غيرها في الواقع ونفس الأمر فقد سبقت فعلمتنا آدابها وذكرتنا أمجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق إلا ممَّا عنده وعرفان الجميل لأهله طبع الكرام. ولا ينسى الأيادي التي لك عندهم إلا اللئام والسلام.

الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد المجر

٦٦

تسكن بلاد المجر عناصر مختلفة قد يثور بينها ثائر الخلاف أحيانًا ولذلك كان لمسالة الجنسيات في الأرض المجرية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتدور المناقشات في الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذي يجب أن يعطي للغة المجرية في التعليم في المقاطعات التي فيها رومان وسلوفاكيون وصربيون. وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابية تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمي حرية الانتخاب وأزمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد

يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما أطلق بعضهم عيارًا ناريًا على خصمه أو هدده بالقتل أو ضربه بكتاب وذواة كما حدث ولا يزال يحدث.

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجري والنصف الآخر من عناصر مختلفة (ألمان وسلوفاكيون ورومانيون وروتنيون وخرواتيون وصربيون) بلاد أشبه ببرج بابل اختلطت فيها الألسنة وتبلبلت والمجريون يحاولون بكل ممكن أن يحترم غيرهم جنسيتهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بتقدمهم السياسي والمدني وهذه هي حالة المجر ولولا أن العناصر غير المجرية مؤلفة من أجناس كثيرة ليس بينها أقل صلة وطريق الانتخابات النيابية الجارية في المملكة تحول دون أدنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم.

ولئن حاول الإمبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر أن يصلح أسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فإن مسائل الجنسيات ما برحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على أن تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وأن يكون للمجرية حق التقدم في هنغاريا (بلاد المجر) وقد كان في مجلس النواب المجري سنة ١٩١١: ٤٥٣ مبعوثًا منهم ٣٨٧ مجريًا و٤٠ خرواسيًا و٣٤ وطنيًا وهذه نسبة تستدعي الاستغراب والمجلس الأعلى أو مجلس الأعيان مؤلف من أعضاء وراثيين مثل البالغين من الأرشيدوقة وأعضاء الأسر الشريفة التي تدفع على الأقل ضريبة عن عقاراتها لا يقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن أعضاء يعينهم الملك مدة حياتهم بإنهاء رئيس المجلس ومن أرباب المناصب العليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ أسقفًا كاثوليكيًا و٩ أساقفة روم أرثوذكس و٦ يمثلون المذاهب اللوثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة ينتدبهم مجلس نواب خرواسيًا.

وللمجلس الأعلى أن يرد ما يشاء من المشاريع والقوانين التي يقررها مجلس النواب ولكنه لا يستعمل هذا الحق إلا نادرًا لأن مجلس النواب موقر في صدره وغاية ما يستطيع عمله أن يرجئ الإقرار على قرار مجلس الأمة

ومن الأمراض التي أصيبت بها بلاد المجر كما أصيبت بها فرنسا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذي يزداد استحكامًا اليوم بعد اليوم ففي إحصاء رسمي أخير إن في المجر ٣٠١٠٤٨٠ موظفًا في شعب لا يتجاوز أحد وعشرين مليون نسمة فإن الوزارة التي تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦-١٩١٠ قد أحدثت عملًا لـ٤٥ ألف رجل والوزارة التي خلفتها أحدثت في العشرة الأشهر الأولى لتوليها الأمر ثلاثين ألف وظيفة. وهذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لأنه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد أن كثرة الموظفين في الحكومة لا يفسر بأن الأشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل إن الوقت والمال والقوة تضيع في هذا التطويل والقيود. يساعد على ذلك الإهمال المغروس في طبيعة الموظفين على الأغلب ولا سيما في المجريين فمن لم يتابع البحث عن أوراقه ويلحقها من ديوان إلى آخر ويوصي صاحب الشأن تضيع وتهمل ولا نغالي إذا قلنا إن المجر على كثرة تغاليهم في التناغي باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من أبواب التدخل في أمرهم حتى في المسائل الخاصة ما يصح معه أن يحكم بأن البلاد المجرية أكثر الممالك التي جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها في كل شأن من شؤونها.

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهي لسان حال علم الاجتماع في بودابست عدة أحوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الإقدام الخاص والنبعة الشخصية فقالت إن الحكومة تعطي راتبًا للكاهن الذي يعمد الوليد وللموظف الذي يقيده في السجل وترزق المعلمين

وتوصي الطابعين وصناع الأدوات المدرسية وتدفع لمؤلفي الكتب المدرسية ولنقادها ولإنشاء دكات للمدارس ويستعمل خشب الحكومة وحديدها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدحان وعمال الدخوليات (أوكتروا) والكتاب والإخباريين وغيرهم والجمعيات العلمية والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمي والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون إبرازها إلى حيز الوجود ولأرباب الضجة والسكوت وتدر المال على الصنائع الأهلية واستملاك محال الوقود وتساعد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضًا والصراف مالًا.

هذا وحرية الأديان والمساواة لم تتم في المجر إلا سنة ١٨٩٥ وكان للكثلكة المقام الأول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكفي أن يقال إن مساحة بلاد المجر تبلغ ٣٢٤,٨٥٠ كليو مترًا مربعًا تملك الأسقفيات والأديار والبيع ١٢ ألف كيلو متر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لأن من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

أهم القوانين الدستورية في المجر ٤٥ قانونًا يرد عهد الأول منها إلى القرن التاسع أي إلى أحد عشر قرنًا وأهمها قانون سنة ١٧٢٣ و١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذي تم الاتفاق بين المجر والنمسا على أن يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم أنفسهم ويكونون مستقلين إلا في الجيش والبحرية والأمور الخارجية فيدفعون قسطًا صالحًا من المال لمعاونة حكومة فينا وتتعهد الأسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الأملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكًا شرعيًا إلا إذا أقر على تتويجه مجلس المجر ويقضي القانون

الأساسي في البلاد أن يقيم الملك ستة أشهر في فينا وستة أشهر في بودابست ولكن هذه العاصمة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الأغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الأمة المجرية إلا أن هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها في ثورة ١٨٤٨ التي لا يبرح المجر يذكرونها ويحتفلون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائدًا مجريًا الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لاشتراكهم بحرب الاستقلال ضد النمسا ويسمونهم الثلاثة عشر شهيدًا وترفع الأعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من أعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبته سنة ١٩٠٩ بالغًا حدًّا دل على مبلغ تعلق هذه الأمة برجالها الذين سعوا لاستقلالها.

للمجر أنشودتان أنشودة الملك والجيش وأنشودة الأمة ولهما عيدان وطنيان الأول في ١٥ آذار والثاني في ١١ نيسان فالأول هو عيد المجر الحقيقي يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الأمة المجرية اشتراك الأشراف في جميع التكاليف العامة وإلغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفي ١١ نيسان هو اليوم الذي صدق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية.

لا يحب المجر النمساويين ويريدون أن يخالفوهم في كل شيء ولو بالصورة الظاهرة وما أنس لا أنس يوم اجتاز بنا القطار من الأرض النمساوية وابتعدنا ساعتين عن فينا ودخلنا في الأرض المجرية فإن الأرض تكاد تلبس حلة غير الحلة الأولى وقال لي رفاقي في القطار وكانوا مجريين أنت الآن في أرض هنغاريا يا مولاي ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا إلى مملكة أخرى وإن ما بين فرنسا وألمانيا من التباين لا يشعر به على الحدود بأكثر ممّا يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين

والمجر يطلبون إشارات خاصة لعسكرهم كما يطلبون أن يكون التعليم العسكري باللسان المجري ولهم مطالب أخرى يسعون إليها لئلا يكون للنمساويين عليهم أقل سلطة وتأثير وإن كان لهؤلاء تأثير كبير في الأمور الاقتصادية والعلمية كما للألمان هذا مع إن بلاد المجر غنية بصناعتها وزراعتها وعلمائها ويكفي بأن ثروة المجر قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة أملاكها العقارية وخمسة مليارات قيمة أموالها غير المنقولة ومثلها صناعتها وباثني عشر مليونًا نقودها وبثلاثمائة مليون أموالها في الخارج أي بأربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة أفقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض أو لم تستطع القضاء على حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها أو زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا مااستطاعت هذه أن تغلب المجريين.

ليست الأمة المجرية عريقة في المدنية كالأمم القديمة في أوربا فقد جاءت حوالي القرن التاسع وانضمت إلى أهل أوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى الآن شيئًا من أوضاع القرون الوسطى في نظاماتها الاجتماعية فإن تسعة أعشار من يعملون في الحقول المجرية إلى اليوم هم من السلافيين (الصقالبة) أو الرومانيين المغلوبين على أمرهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الأراضي وما زالوا يستثمرونها بأيدي غيرهم ولم يبرحوا في كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

وإذا تأملت مليًا في حال المجري تجده يشبه التركي في كثير من أحواله فإنه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعًا هكذا شأن الفلاح

والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركي فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون إن منًا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة أشهر وهذا عيب كبير في مجتمعنا.

تقدر مساحة أملاك صغار الفلاحيين في المجر بعشرة ملايين هكتار أي أن يكون الواحد يملك ستين هكتارًا والوسط الذي يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين ومجموع ما تملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والأديار بعشرة ملايين هكتار.

وقد أصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ سبعمائة ألف رجل فارتفعت أجور العملة وبيعت أملاك صغار الفلاحين من أواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم إلى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون إلى بلادهم يعودون أغنياء وقليل ما هم والعائدون يبتاعون الأراضي بالأثمان الفاحشة.

وللإسرائيليين المقام الأول في تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولا سيما في بودابست عاصمة البلاد فإن ثلث سكان هذه العاصمة من الإسرائيليين أي ثلثمائة ألف من أصل تسعمائة ألف وبيدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم أكثر الأمة تعلمًا وأقدمهم على الأعمال هذا مع أنهم ليسوا قدماء في البلاد بل إن هجرتهم إليها ترد إلى العهد الذي طردت فيه أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد القاع الإسرائيليين من بلادها فوجدوا في بلاد المجر صدرًا رحبًا وخلفوا اليونان في التجارة. وحيث توطدت قدم التاجر الرومي يصعب على التاجر الإسرائيلي أن ترسخ قدمه

والرومي كالإسرائيلي بشوش لين العريكة يعرف من أين تؤكل الكتف في التجارة بخلاف المجري.

يقدر عدد الإسرائيليين في المجر بثمانمائة وأربعين ألفًا منهم ستمائة ألف (تمجروا) أي أصبحوا مجرًا حتى في أسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فإن كان أبناء إسرائيل يقبلون على التوطن في هنغاريا فليس لأن التجارة والصناعة والصرافة تستميلهم إلى نزولها لأن جميع الصناعات الحرة مفتحة الأبواب أمامهم.

هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها في يومين اثنين صرفتها في عاصمة بلادهم أزور معاهدها البديعة وبودابست من أجمل عواصم أوربا وهي مدينتان في مدينة أي بوداوبست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان بأربعة جسور كبرى بديعة من أجمل ما هندس المهندسون والجسران الجديدان الأخيران هما من صنع مهندسين مجريين أما المدينة فمقسمة شوارع فخمة فسيحة وهي نظيفة لا تقل عن أحسن العواصم.

وأهل المجر يحبون الأتراك ولا يزالون يذكرونهم بالخير لأنهم يرون أن إخواننا أسدوا إليهم جميلًا غير مرة وآخر مرة في ثورة المجر الأخيرة يوم لجأ زعماء الثورة إلى الأرض العثمانية فحماهم سلطان العثمانيين (وأظنه المرحوم السلطان عبد المجيد) من أن تنالهم يد النمسا التي طلبت بإلحاح تسليمهم وآثر أن يشهر حربًا على النمسا أو تشهرها عليه على أن يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

حياتنا والحياة الأوربية[1]
٦٧

سادتي الأعزة: تقاضاني بعض الأحباب دينًا لم أر بدًّا من قضائه على حين اشتداد الأزمة بل الأزمات في بلادنا. أرادوني أن أحاضركم بشيء ممَّا جنيته في هذه الرحلة الثانية إلى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعني إلا إجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهم وإن كان البحث في نهوض القوم أو في فرع من الفروع ارتقائهم يحتاج إلى درس عميق وبحث دقيق ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله فإذا أتيتكم بأمور تعرفونها أو أكثرها فذاك لأني أحببت المبادرة إلى امتثال الأمر مع علمي بأني لا آتي بجديد على أنه لا جديد تحت الشمس:

كانت السياحة في سالف الزمان ضربًا من شاق الأعمال ولكنها أصبحت في هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة إليها أكثر من غيرهم ويدخل في الخاصة أرباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف في العمل يهدي قديمه ولم يهتد إلى وجه الصواب في حديثه.

كان أجدادنا يطوون الأميال والفراسخ أيامًا وشهورًا لينتقلوا من قطر إلى آخر ونحن اليوم نسيح في شرق الأرض إلى غربها في أيام يسيرة ونقطع بضعة ألوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا نرى

(١) محاضرة لنا ألقيناها في المنتدى الأدبي في الأستانة يوم ٢٤ ربيع الأول ٣٣٢ و٢٠ شباط ٩١٤

السائحين منَّا إلى الآن أقل من السائحين في العصور الماضية هذا إذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر أسباب الراحة في عصرنا وفقدانها في أعصار أجدادنا أيام كان يقول ابن زريق البغدادي وقد رحل من بغداد إلى الأندلس:

ما آب من سفر إلا وأزعجه رأي إلى سفر بالبين يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل موكل بقضاء الله يذرعه

إننا إذا رحلنا اليوم إلى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها ونقوي حواسنا بعد انثلام حدها وندخل في طور نتعلم فيه ونعتبر ونتعود عادات حسن أ كثرها وجدير بنا أن نقتبسها عمن سبقونا مراحل وأشواطًا. لأنها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل. فكل ما نراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت. وأجيال علمت فعملت:

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المطلب

تكثر الخواطر على السائح منًّا في ربوع أمم الحضارة الحديثة فلا يلبث أن يذكر بلاده ويقابل بين حالها وما يشاهده هناك من السير نحو الكمال بخطا سريعة في حين يرى أمته تسير سير السلاحف:

إن القباع سار سيرًا نكرًا يسير يومًا ويقيم شهرًا

نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء. ونحن مازلنا نسير بسير الجمال والبغال والحمير. وشتان بين نظام السيرين.

سر أين شئت من بلاد المدنية تجدها نسقًا واحدًا في الاستمتاع بنعم الجمال والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيازًا في أمور تتفرد بها ولا فرق في أصل المادة بين الشرق والغرب: سهول وأودية وجبال وأنهار

وبحيرات وبحار. ولكن الفرق في تربية العقول ونمط الحياة فالسر إذًا في السكان لا في المكان.

سحت هذه المرة في إيطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجر فرأيتها إلا قليلًا متشابهة في راحتها ونعيمها وعمرانها وعلمها وآدابها وصناعاتها: الناس كلهم يتفننون فيما يعلمون ويسيرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ما هذه الروح التي تجرد منها جسم الشرق وسرت في عظام الغرب وأعصابه وشرايينه فأتى أهله بالعظائم ونحن بقينا حامدين مبهوتين منحلين متضائلين.

لا تغبط المجدب في علمه — وإن رأيت الخصب في حاله
إن الذي ضيع من نفسه — فوق الذي ثمر من ماله

مدنية الغرب غريبة في كل مظهر من مظاهرها، لأن أهلها أحسنوا الانتفاع من كل قوة في الوجود ونحن أضعنا بجهلنا القوى القريبة الانتفاع. هذا شأنهم في كل شيء فكأن الغرب حلف أن لا يحالف الشرق والشرق آلى أن يخالف الغرب على كثرة حاجته إليه واضطراره إلى الأخذ عنه.

رأيت أولادًا وبنات دون العاشرة يسيحون في الغرب من قطر إلى آخر وحدهم بدون أدنى رهبة وارتباك، ولم أشهد كثيرًا من رجالنا يستطيعون السياحة في أوربا وأميركا على ما يجب، وبهذا نعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بأن صبيانهم أقوى من رجالنا وفتياتهم أعقل من نسائنا فإذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الخمسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم أطول وأجزل.

إننا في درس المدنية الغربية نأخذ ما تهيأ لنا وتمثل لأنظارنا باديء الرأي ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا أن نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنهم فما بالك بالمملكة أو الممالك. ينفد العمر ولا تنفد مادة الكلام عن رقي الغرب وكلما تأملنا معاهده، وحللنا مادة قواه نبكي لضعفنا وقوتهم، وجهلنا وعلمهم، ونكاد ندخل في اليأس المميت، من تحسين حالنا لولا أن اليأس محرم، وأن التاريخ يحدثنا أن أممًا كانت أحط منَّا منزلة فارتقت لما صحت عزائم بنيها على إنهاضها، والأمم لا تموت إلا إذا أسلمها بنوها العارفون للموت.

مواد هذه المدنية التي تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن أهمها تقدم الغربيين في بيوتهم عنَّا، ورقي الأسرة هنالك وانحطاطها هنا. والمملكة التي تتألف من بيوت راقية هي التي تحرز شوطًا أبعد من غيرها، وما الممالك الراقية إلا مجموعة بيوت راقية والكليات تتألف من الجزئيات، ومن تماسكت أجزاء مادته، كانت أسبابه أقرب إلى القوة بالطبيعة.

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصرًا في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفندق والمسرح والقهوة والأماكن العامة يسجل في مذكرته أمثلة لا يكاد يحصيها من رقي الأسرة الأوربية تجسمت في جميع حالاتهم أي تجسيم، وحامل المسك لا يخلو من العبق

تحمل مدنية الغرب في مطاويها حسنات وسيئات، ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التي بزت الفضائل، والرذيلة التي تربو على مجموع الرذائل، ولكن المليح، يغطي وجه القبيح، فكأن شعار المدنية الحديثة الارتقاء، في كل شيء، والجمع بين المتناقضات، أما

الشرق فهو وسط أو دون الوسط، والوسط والدون لا يكادان يعملان عملًا محمودًا في هذا الوجود.

أذكر لكم أمثلة ثلاثة من عشرات من الأمثلة وقعت العين عليها في باب ارتقاء الأسرة الغربية تمثل أدوار الأعمار وأدوار البيوت. المثال الأول أسرة فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من أهل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لتطبب أحد أولادها ونزلت في المنزل الذي أقمت فيه فلاحظت أمرها مدة أربعة أسابيع انظر عناية الأبوين بتربية أولادهما فكان الوالد يوقظ أولاده في الساعة السادسة والنصف ويأخذ في إلباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الابنتين وتمشطهما فإذا تناولوا طعام الصباح يرافق الثلاثة من أولاده إلى المدرسة لأنه وضعهم في المكتب مع أن مدة مقامه في تلك المدينة لا تتجاوز شهرين ثم يعود إلى الدار ويحمل ابنه إلى الطبيب ويعود به بعد ساعتين فيجيء الأولاد في وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيعهم ثانية إلى المدرسة وربما عاد إليهم في المساء ليستصحبهم أو اكتفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى النزهة. عناية فائقة في هذين الوالدين الذين لا يعرفان غير تعهد صحة أولادهما وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والتدين. هذه الأسرة من أسر الأرياف والفلاحين من أهل الطبقة المتوسطة التي تكون على شيء من اليسار ولطالما هنأت الوالدين على عنايتهما بأولادهما وقلت لهما إن الأسرة الفرنسوية لو كانت كلها مؤلفة على هذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بما يشبه هذا الحنان الفتان لاستحت فرنسا أن تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية في بعض عواصمها. ولهذه الأسرة مئات الألوف من الأمثلة ومثل ذلك يقال في جميع ديار الغرب.

والمثال الثاني الذي رأيته يمثل درجة أخرى من درجات الأسرة رأيته في إيطاليا في قصر من أعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتليد وأعني به منزل صديقي الأمير ليوني كايتاني الذي صرفت أيامًا في الاشتغال في مكتبته أبحث عن تاريخ بلادي وأجدادي فإن هذا الرجل الشريف في أمته الغني بعلمه وما له لم يرزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه أرسله إلى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخذه الشفقة عليه وآثر أن لا يراه وأن يربى تربية راقية صحية على أن يكون في داره القوراء بين والديه وأهله وقبيله.

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فإن العلامة غولد صهير شيخ المشرقيات في هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلمّا زوجه أخرجه من بيته على عادة الإفرنج في إخراج أولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا أسرة برأسهم ويعيشوا مستقلين عن أبويهم فلا يقع نفور بين الكنة وحماتها ولا بين الولد ووالده. والراة في الاستقلال في كل شيء. هذه أمثلة ثلاثة من أطوار الاسرة الأوربية تمثل أطوار تلك الأمم أمَّا تحليل أجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كيماوي كبير يحشر إليه علماء التربية من أجدادنا والمحدثين من أهل الغرب ليقولوا لنا خلاصة تحليلهم لمادة الحياة الأوربية النامية. والعبرة بالكيفية لا بالكمية.

دعاني الأستاذ غولد صهير لتناول طعام العشاء في بيته وقال لي إنه سيكون معنا ابنه غولد صهير المهندس وكننه ولما قدمني إليهما قال لي: إن كنتي وهي نعرف خمس لغات فقط تكتب بها وتتكلم بسهولة عارفة بالآثار المصرية ؟؟؟ فقلت لها: بارك الله فيك أيتها العقيلة المحترمة مجرية في مقتبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر باريزيًّا وأهلها أرقى شعب إسلامي ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة أحمد

كمال بك وكيل المتحف المصري هذا الرجل الفرد في وادي النيل يتوفر على البحث في عاديات مصره على الأصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من يعلمه ما يعلم ليخلفه على الأقل في منصبه لأنه بلغ سن الشيخوخة ولم يجد في ثلاثة عشر مليون مصري من يقبل على تعلم ما أفنى حياته في تحصيله وألف فيه ونوع الأساليب في نشره في الكتب والمحاضرات والمقالات. أنا أعلم أيتها العقيلة النبيلة أن في أوربا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لي ببال أن أرى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال في علمهم وتساهمهم في من يحتاج إلى نظر دقيق ومادة منوعة في العلم. فإن كان نساؤهم على هذا المثال فلا عجب إذا كان من رجالهم العجب العجاب

إلى اليوم لم نفكر في هذا الشرق الأقرب في تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الأول إلا بنهوض النصف الثاني، فإن كانت كنة غولد صهير أستاذ تفسير القرآن والأصول والحديث والملل والنحل في جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية. فكم عالمة بل عالم عندكم معاشر العرب بآثار البتراء وبعلبك وحرش وتدمر وبابل وأشور وحمير والحيرة.

أنا مع الأسف على كثرة بحثي في تراجم الناس وأيامهم لا أقدر أن آتيكم بواحد يكون على النمط الأوربي في بحثه وردسه كما لا أجد في أمتي المهندس الذي أريده ولا الكيمياوي ولا الطبيعي ولا المصور ولا النقاش دع من يماثلهم من النساء اللاتي شاركن الرجل في معظم حياته المادية والمعنوية في الغرب. وعمّا قريب يشاركنه في الحياة السياسية.

كل ما تعلمناه إلى يوم الناس هذا وقلدنا فيه الأمم الراقية لم يخرجنا من الظلمات إلى النور فلم تبرح عيالًا على الغرب في معظم شؤوننا

ومرافقنا وقيام أمرنا، فما دمنا نريد التحرير السياسي وليس لنا من أسباب التحرير العلمي قليل ولا كثير هيهات أن تقوم لنا قائمة.

كيف تعمر بلادنا وتستبحر الحضارة فيها ونقلد الغربي في حياته السعيدة وليس عندنا مصور ولا مهندس ولا نقاش ولا معمار ولا موسيقار ولا كيمياوي ولا غيرهم وزيادة على ذلك جهل النساء وهو من أعظم الويلات.

لم تعمل حتى الآن إحصاء بعدد الأميين في بلادنا ولكن المفهوم إن عدد الأميين هو ٩٥ في المئة في بلاد العرب في حين أصبح عدد المتعلمين في أكثر مدن الغرب مائة في المائة تساوي في الأخذ من العلم بالخط اللازم النساء والرجال والمتعلم منهم التعليم الابتدائي أرقى من المتعلم منَّا التعليم الراقي وكل شيء نسبي

قالت لي فتاة بولونية في الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم في جامعة جنيف على أحد مشاهير هذا العلم وهي عارفة ببضع لغات أوربية وقد سألتها عمَّا تقصده من تعلم هذا العلم فقالت: أريد أن أؤسس مدرسة في بلدي لأن الواجب على المرء أن يكون شيئًا في هذا الوجود. فقلت لها: جزاك الله عن هذا السعي لأمتك خيرًا ولكن نساءنا في الشرق لا يردن ولا يريد أولياؤهن مثل ما تريدين. اكتفين بأن يكن لا شيء في هذا العالم ولذلك لا تجد بين ألوف من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والألمانيات والإيطاليات والرومانيات والبلغاريات والصربيات واليونانيات والإسبانيات والبرتقاليات والبرازيليات والأرجنتينيات طالبة عربية اللهم إلا واحدة مصرية فيما أعلم تساهم بنات جنسها وتزاحمهن على دكات الجامعات في سويسرا وفرنسا

وإنكلترا وألمانيا فتأملوا حال أمتكم وانظروا إلى أي درجة بلغ بين أظهركم انحطاط عقول بنات حواء.

كلمًا نظرت مليًا في سعادة الحياة في الغرب وشقائها في هذا الشرق يتجلى لي سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وإنها هي التي.أوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحث والجمال والعواطف والرغبة في الكمالات تمت للبيت الغربي سعادته ومن سعد في بيته أو توقع السعادة فيه كان حريًا بأن يعمل الأعمال العظيمة خارجه إذ يجد له في منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء.

رأيت كثيرًا من شباننا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ما عندنا من الفتيات المتعلمات اللآئي يلقن للزواج الذي تكون من سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب العصرية والفضيلة والمعارف ولكنني لم أر شابًا من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من عني بتعليم أخته أو ابنته التعليم الراقي ولا من فكر في تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتلقين البنات مبادئ تنفعهن حقيقة في تأليف البيوت التي يرفرف عليها طير السعد والرغد. النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم تسلك طريقها ويالللأسف حتى الآن.

أوربا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء أيقضي يا ترى على مدنيتك البديعة وتنحل بما حوت ديارك من جمال الوجود وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل ما بدأت به أو يمزقه تمزيق الأخرق الأحمق كثروة ورثها وارث لم يعرف قيمتها أم تسلم لك هذه الحياة السعيدة وتقل مؤلماتها وموبقاتها ويعم الشرق أثرها ويشاركك في كل معنى من معانيك البديعة ويكون حظه كحظ البلاد

الراقية من ربوعك ويتحرر من أسره السياسي وأسره الاقتصادي واسره العلمي ويتخلص من التبعية لك في كل ما يدل على ضعفه وتراجع أمره.

تيار الغرب ينهال علينا فيأتينا تارة بحمأة وطورًا بقليل ماء فهل نرزق التوفيق يا ترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته أم نتناوله على علاته ولا نكاد نسيغه.

إن ما لدينا اليوم من أسباب القوة لا يقوم في وجه ذاك التيار لأنها ضئيلة لا كفاء لها بالمقاومة. ولعمري أن ألف أمي وأمية لا يوازي عقلهم عقل متعلم أو متعلمة واحدة.

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضًا. وكلمًا كانت الأفكار منصرفة إلى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك المجتمعات تغتبط وتفرح ولطالما قال بعض من أحسنت الأمة ظنها بهم قرونًا واستولوا على عقلها وقلبها وتصرفوا بعجزها وبجرها إذا قيل لهم إن العلم الفلاني مفيد ينبغي أن يكون في الأمة أفراد يعرفونه: إن هذا العلم لا تنفع معرفته ولا يضر جهله.

بيد أن الأيام أثبتت أننا في أشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربي العثماني لا يقوم حق القيام إلا متى عمد أفرادنا إلى الأخذ من كل مطلب من مطالب الحياة كما هي سنة من سبقونا ومن الأسف أننا لم نبرح في مجتمعنا نشاهد ناشئتنا الكريمة على الأغلب تميل إلى المذاهب الاتكالية وأكثرها يؤثر التوظف في فروع الإدارة والجندية ولو كانت هذه غير رابحة في الجملة. إن جعل وظائف الحكومة هدفًا لنا في تعلمنا هو الذي أفقر هذه المملكة وجعلها في مؤخرة الممالك في عمرانها وثروتها وراحتها. والمال أساس الأعمال ولا يأتي به إلا المتعلمون من الرجال.

فهل لكم يا رجال الأمة أن تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من إقبال المتعلمين من أمثالكم على الوظائف والزهد في الصناعات الحرة وإني لا أخجل إذا قلت إن صانع الخزف والفخار والقرميد أنفع لهذه الأمة من وزير متوسط القريحة ضعيف مادة العلم لا يحسن عمله وقد وصل إلى منصبه بالمصانعة والشفاعات وإن دباغ الجلود أو صباغ الحرير والقطن أشرف من فقيه تعلم بعض فروع المعاملات ليتولى بعض الأعمال القضائية والشرعية.

وبعد فرجائي إليكم ياشبان هذه الأمة وبغيركم لا تجدد شبابها، أن تجعلوا نصب أعينكم الأعمال الاستقلالية ويكفي بعضكم أن يتولى الأعمال الإدارية وغيرها في المملكة فإن الكل لا تتسع خزينة هذه الأمة لإعاشته خصوصًا وأنتم تعلمون ضائقة الموظفين وإن جيوبهم في الغالب فارغة تتقاذفها الرياح لأنها خالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة إقبال وإدبار والإدبار في الأكثر هو الغالب.

من لي بأن يعمل كل احد من شبان هذه الأمة الواجب عليه أولًا ويتوفر على دراسة الفرع الذي يمت به فإن سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي أن يعمل فيها ما يجب عمله في غيرها ومتى أتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه إذا اشتغل بالعموميات فمشاركة الطالب في المسائل العامة يجب أن تكون في سن الدراسة إلى حد محدود وبعد ذلك فهو في حل من الاشتغال بما أراد.

أنا أحب أن أشهد من أبناء امتي وقرة عينها رجالًا يفكرون في ترقية نفوسهم وذويهم وبيوتهم والأخذ بأيدي إخوانهم أكثر ممَّا أحب أن أراهم يفكرون في المسائل الاجتماعية الكبرى التي يضيع بها الوقت على غير

طائل بالنسبة إليهم وإن كان الواجب على كل وطني أن يصرف من فكره ووقته شطرًا ولو قليلًا للنظر في المسائل العمومية.

تلامذة الكليات في ألمانيا هم الذين هيأوا الوحدة الألمانية ووضعوا أساسها في القرن الماضي ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتي يوم على هذه الأمة البائسة يا ترى يشهد فيه طلاب مدارسها العليا بعد أن يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون في الخير العام لأمتهم خصوصًا متى أتموا سني الدراسة وأصبحوا أحرارًا في أعمالهم وإراداتهم. نعم أيها الإخوان (إن الشفيق بسوء ظن مولع) وإن ما يتمثل للأنظار من مدنية أوربا مهما كان ظاهره فيه الرحمة فرحمته لأهله لا لنا ونحن لا رحمة لنا إلا إذا أتتنا على أيدي رجال لنا أمثالكم وهؤلاء لا يأتون بعمل تام إلا إذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الأساليب الغربية نعم نحن لا حياة لنا إلا إذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووجدنا المقاصد في التربية والتعليم.

إن القليل المتعلم منَّا لا يؤلف أقل أمة صغيرة. وهذه الزهرات التي أراها مهما بلغ من نضارتها تضيع بين ما هناك من عوسج وبلان فلا سبيل إلى وقايتها إلا بتنقية هذا الشوك ما أمكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة الغرب التي سلكها في الترقي على تعديل طفيف يدخل فيها بطبيعة الإقليم والعادة.

إن ناديكم هذا مثال من أمثلة التضامن ولكن أمتنا لا تعد مرتقية إلا متى كان في كل مدينة بل في كل قصبة من مدنها وقصباتها أندية تنسج على منواله في التعارف والتعاطف وتوقد في الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس إلى طلب العلم ويأخذ القوي بيد الضعيف حتى

يساويه في المنزلة ويتدبر الكل في مستقبل مجيد للأمة يخرج بها إلى حال أحسن من حالتها الآن ويتعلم ابن الفلاح الصغير كما يتعلم ابن الغني الكبير وإذا لم تقم جميع أعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء.

واجباتكم أيها الأعزة كثيرة جدًّا والأولى البداءة بالجزئيات ولكن على شرط أن نبدأ ونجعل تاريخ الأمم التي نهضت قدوتنا ومهما زنا على العمل يجب أن تكون مدنية الغرب إذا أردنا أن نحيا حياته مصدرنا وموردنا وبدون ذلك الفناء المطلق والعياذ بالله أو الاندماج في جسم الأمم الغربية التي تبسط أيديها علينا اليوم بعد اليوم.

إننا لا نحيا إلا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم ولكن هذا اللفظ الجميل -لفظ القومية- لا يطابق معناه مبناه إلا باتخاذ جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون والإيطاليون وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والغلامنديين في البلجيك والألمانيين والفرنسويين في سويسرا

ومن دواعي الحسرة أن من رحلوا من أبناء العرب إلى ديار الغرب يدرسون في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربي الشريف بالفعل لا بالقول أقل عددًا من أكثر عناصر هذه الدولة. نعم هم أقل من الأتراك والروم والأرمن هذا مع أننا أكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة وبلادنا أغنى من بلاد تلك العناصر التي أخذت ما استطاعت من الحكومة لتعليم أبنائها وقامت بسد العجز من أموالها الخاصة.

بلغني أن في نية الحكومة السنية إرسال ستين طالبًا من أبناء العرب إلى مدارس أوربا العليا فإن صح النبأ عد من أعظم الإصلاحات. وإن كان هذا العدد دون الواجب أيضًا وذلك بأنا إذا ضمنا عدد طلابنا الآن

بستين طالبًا بلغ من قابل مجموع طلبتنا في الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبة الإيرانيين في مدارس أوربا مع أن العرب العثمانيين أكثر سوادًا من الإيرانيين بالتحقيق

هذه عددنا وهذا ما أعددناه، هذه أدواؤنا وتلك أدويتنا، وبأيديكم وأيدي أمثالكم خلاصنا، فلا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة العبء ثقيل عليكم وبتضامنكم وتماسككم يهون كل عسير على شرط أطراد العمل وأتقانه. ومضاعفة الأفعال أكثر من الأقوال، وصرف المسعى إلى المنتج النافع، والزهد في التافه العبث. والله يتولاكم ويسدد مراميكم، ويقر عيون أوطانكم بنجاحكم ويجعل منكم أعضاء عاملة في جسم مجتمعنا وأصواتًا داعية إلى كل نافع ورافع إنه سميع الدعاء.

أرض يونان
٦٨

اغتنمت فرصة إرساء الباخرة الرومانية التي ركبتها من الآستانة إلى الإسكندرية في ميناء بيرا لأزور آتينة مدينة أرسطو وسقراط والمسافة بين بيرا وآتينة تسعة كليو مترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية في خمس عشرة دقيقة. رأيت آتينة مدينة وسطى لا تزيد نفوسها عن مائتي ألف وهي في منبسط من الأرض وعلى مقربة منها أكمة قام عليها الاكروبول والمدينة نظيفة في الجملة مبلطة أرصفتها بحجر أبيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وأبنيتها الحديثة من الرخام أيضًا وأهم ما لفت نظري فيها معاهدها التي قامت بعطايا المحسنين من أبنائها مثل الستاد أو الملعب العجيب الذي أنشئ بمال أفيروف ونصب تمثاله أمامه. وأفيروف هو الذي

خلف ملايين من الفرنكات أعطاها لأمته ومنها أنشأت قسمًا من الدارعة اليونانية المنسوبة لاسمه.

نعم في آتينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات عالية داخلية وخارجية أنشأها أرساكي من ماله وترى مكتبة الأمة أسسها فاليانوس وترى لافبروف حبوس النساء والأولاد ولسنيا المجمع العلمي ولسينكروس حبوس الرجال وقد أنشأ على نفقته من آتينة إلى فالير طريقًا معبدة وطولها ٩ كيلو مترات. وأنشأ فارفاكيس مدرسة عالية للأولاد وجاياس قصر المعرض وهو مؤسس مدرسة البنات العليا للروم في الآستانة وهكذا تجد فلانًا من أغنياء اليونان أنشأ مدرسة صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس ابتدائية وليلية للفتيان والفتيات فتجد اليوناني مع إنه أكثر الأمم هجرة لبلاده -لأن نصف اليونان هاجروا إلى مصر والسودان وأميركا وشواطئ البحر المتوسط وغير ذلك من البلاد- أكثرهم تعلقًا بحبها وتفكرًا في إنهاضها يغتني احدهم من مصر أو من أميركا ويجود بالألوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وإن كان المشهور عنهم كزازة الأيدي.

نهضت يونان في المدة الأخيرة نهضة عظمى بفضل نشر التعليم على اختلاف صنوفه بين أبنائها وهو الدواء الشافي لكل مرض اجتماعي.

التعليم في يونان مجاني إجباري وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور منها ١١٩٧ من الدرجة الأولى و١٣٤ من الصف الثاني و٢٩ من الصف الثالث و٥٤ من الصف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسة للبنات منها ٣٠٠ من الدرجة الأولى وفي القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والإناث على السواء وعندهم مدرسة عليا لتخريج المعلمات وقد أنشأت جمعية آتينة الأدبية عدة مدارس مسائية يتعلم فيها مئات من الفتيان المضطرين أن

يعملوا في نهارهم وليس لهم من الوقت غير الليل. في يونان ١٨٧٨ أستاذًا و٦١٠ معلمات و٧٦٨ معلمًا في مدارس الأولاد في الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم إلى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم ويخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الأولى والقسم الآخر يعلم الصناعات النفيسة أي النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية وعندهم مدرسة تجارية ومدرسة جامعة عليا فيها أساتذة اشتهروا بأعمالهم العلمية حتى في أوربا.

هذا مع أن لليونان في الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فإن لهم في الآستانة وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلمًا يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالبًا دع ما لهم في البلاد التي ضمت إلى بلادهم حديثًا وكل المدارس التي هي خارج علمهم لا تنال شيئًا من الرواتب من الحكومة بل إن يونان هناك يقومون بنفقاتها.

ربما لمن نصب بلاد بمصائب الهجرة أكثر من اليونان فإن الداخل منهم إلى نيويورك وحدها كل سنة يقدر بأربعين ألفًا فما بالك في الأقطار الأخرى فإذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك ويانيا ألتي انضمت إليهم نحو ثلاثة ملايين فإن المقدر إن مثل هذا العدد منهم موزع في أقطار العالم وهم يحافظون على لغتهم وعاداتهم حيثما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الإسكندرية ومصر والآستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغي بها.

ومع كثرة المدارس في اليونان ترى طلبتهم في جامعات الغرب كثارًا جدًّا ولا سيما في باريز ولندن. واليونان إن لم يكونوا أكثر الأمم إقبالًا على تلاوة الصحف والتشوق للأخبار السياسية فهم في جملة الأمم المتقدمة في هذا الشأن فلا تكاد تجد واحدًا لا يتلو جريدة أو كتابًا أو

مجلة في كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لا تربح جرائدهم كثيرًا فإن لهم في أتينة ١١ جريدة يومية وإذ كان العدد الواحد ينتقل من يد إلى أخرى كما تنتقل جرائدنا في الشام ومصر في أيدي قرائها الذين لا يحبون أن يشتركوا ولا أن يبتاعوها اقتصادًا باردًا منهم صعب على جرائدهم أن ترقى.

ولليونان جرائد كثيرة في الآستانة والقاهرة والإسكندرية وجرائد أسبوعية في بعض عواصم أوربا ومنها ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبثوا فيها أفكارهم ويؤثروا في الأسواق المالية والمجالس السياسية.

هذا ما أمكن الإلماع إليه من حالة رقي المعارف في يونان وأرضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ ألف كيلو متر مربع وهي غير مخصبة في الجملة بل أكثرها جزر متقطعة في عرض البحر حتى إن سواحلها تبلغ في مساحتها سبع مرات مساحة سواحل إنكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان في كل زمن يحصرون قواهم في بحريتهم ويصرفون فيها أموالهم وقسمًا عظيمًا من ميزانيتهم وقد كان لبواخرهم التجارية يد طولى في استقلالهم سنة ١٨٢٤ لا ينكرها التاريخ.

واختلف العلماء في أصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الأرض فتوحًا وفلسفة وصناعات نفيسة والأرجح عند الباحثين في أصول الشعوب أنهم أخلاط من الناس جاؤا منذ قرون إلى هذه الأرض واستعمروها بعد أن فرغت من سكانها الأصليين أما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج ويحاولون بالطبع أن ينتسبوا لأفلاطون وأرسطو وسقراط وديوجنس وهوميروس وغيرهم من فلاسفة يونان الذين بيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم.

آثينة تشبه المدن الأوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها أكثر من جميع أوربا قال صاحب كتاب يونان الحديثة [١] إن أسعار العيش في يونان يزيد ٥٠ في المئة عمَّا هو عليه في إنكلترا ونحو ٢٥ في المئة عمَّا هو في الولايات المتحدة.

المدنية الرومية الحديثة منقول أكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيرًا ولذلك حفظوا لها جميلها وما برحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى إن معلمي جيشهم إلى الآن هم ضباط من الفرنسيس وفي الحرب الألمانية الفرنسوية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعتهم ليقاتلوا في صفوف الجيوش الفرنسوية فقتل بعضهم وبيضوا وجوههم مع من أسدى إليهم جميلًا ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الأمزجة المختلفة والميل إلى النافع له ما أمكن بكل وسيلة.

إن ما في آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذي يلفت نظر السائح اللهم إلا إذا أحب أن يزورها ليتذكر ما فيها. وأين عظمة رومية من عظمة آثينة ولا نغالي إذا قلنا إن بقايا عادياتنا في جرش ووادي موسى وبعلبك وتدمر أفحم وأعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التي لم تقو على عاديات الأيام.

في العاصمتين
٦٩

رأيت هذه المرة في العاصمتين عاصمة الترك الآستانة وعاصمة العرب القاهرة ما طالما شكا منه الاجتماعيون من الاتكال المجسم

Perey F.Artin la Grece noeinelle(١)

والغلو في حب التوظف والاستخدام رأيت ابن الآستانة لا يفكر ولا يريد أن يفكر في غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصري كذلك كلاهما يستميتان في طلب الوظائف وقد زهدا في الأعمال الحرة فلا تكاد ترى في الآستانة متعلمًا إلا وهو يرغب أن يبيع استقلاله من غيره ويكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها. ومن الأسف إن هذا الخلق استحكم حتى لا تشهد سوى أسباب الرزق الضئيلة بيد الأتراك أما التجارات الواسعة والصناعات الرابحة فهي للرومي والأرمني والألماني والإفرنسي وغيرهم من الشعوب والأمم وكذلك المصري المتعلم لم يتعلم إلا للخدمة في الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المعاش للرومي والإيطالي وغيرهما.

داء استحكمت حلقاته حتى أفقرنا يسلب الغريب منّا أموالنا ليحملها إلى بلاده ولا يزال آخذًا بالانتشار والعبر في القطرين تتلو العبر داعية القومين إلى أطراح المذاهب الاتكالية وإن أبواب الاستخدام إذا فتحت اليوم قليلًا فغدًا تقفل حتى في وجوه الكفاة من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق صدرًا عن إنفاق ما يلزم من المال على العمال والمستقل في عمله أنفع لنفسه ولقومه من المتعلق بأذبال غيره الذي يعيش عالة على السوى.

كنت في القاهرة في زيارة صديق لي من أهل العلم والمكانة في الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسلمة ودفعت إليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة ما نالها من من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة في المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهات كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العيني وطالبة إليه أن يساعدها لإرجاعها إلى مركزها.

فقال لها صاحبي إن مصلحة الصحة قد أسدت إليك معروفًا يجب عليك أن تشكريها عليه. وهو أنه فتحت أمامك باب الاستقلال في عملك ومصر في حاجة إلى طبيبة مسلمة مثلك وليس فيها كثيرات من أمثالك وأنت تكتبين العربية والإنكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فأنصح لك أن تعمدي إلى نشر إعلانات عن محل تتخذينه وتشتهرين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة أن تدفعي هذا القدر من المرتب الذي تعدنيه شيئًا للممرض الذي تستخدمينه فإنك ستربحين العشرات من الجنيهات في شهرك وتخدمين بذلك بلادك ونفسك.

فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطبيبة وأخذت تورد الحجج على صحة ما تريده وأنه لا قبل لها إلا باستخدام ولا رزق لها إلا فيه وأنها إذا نالت الخمسة جنيهات فقد حيزت لها الدنيا وأخذت بحظ من السعادة لها ولأسرتها لأن هذه أنفقت ما كانت تملكه في تعليمها فلم يعد في وسعها أن تزيد على ذلك.

وهكذا بقي صاحبي وإنا نورد البراهين القاطعة التي تلقن الفتاة معنى الاستقلال وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهى الأمر إلى أن يكلم في أمرها أحد أصحاب الشأن ليرجعوها إلى وظيفتها التي أخرجت منها من غير سبب ولا تجد سعادتها إلا فيها.

هذا مثال رأيته بالأمس في مصر وكل يوم يقع مثله عشرات في الآستانة. وإن المرء ليأسف جد الأسف على عقول تضيع من غير فائدة وأعمال وكفاآت تذهب هباءً.

أناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم أن يبرزوا في كل عمل تصح إرادتهم على اتخاذه وأن يغتنوا ويرتاشوا ويعيشوا مرفهين لا مقترًا عليهم وأحرارًا لا مقيدين مستعبدين.

في الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض ما يمكن الانتفاع به من موجوده لا يحسن استخدامه والمتعلم من أهله يعتقد أن الراحة والغبطة في الاعتماد على خدمة يخدمها وما درى أن تعبه في هذه الراحة وأنه لا راحة بدون تعب ولو كان هذا الخلق غرس في طابع الإنكليز والأميركان والألمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة كما غرس في طباع سكان هذه الديار ما قامت هذه الحضارة التي تدهشنا ولمَّا استقام نظام الأسرة على صورة تبهرنا آثارها.

أليس من الأسف أن نكون حتى في بلادنا غرباء فإذا أراد أحدنا أن يترفه بعض الرفاهية لا يجد نزلًا ولا مطعمًا ولا قهوة لا مسرحًا لوطني بل كلها للإفرنج. والتركي والعربي باهتان شاخصان لا يعرفان من أين تؤكل الكتف لأنهما يجهلان أصول الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفخل والفخفخة وضخامة الألقاب.

ولطالما رأينا من نعدهم من كبرائنا يطأطئون رؤوسهم ذلة لتاجر صغير في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لأنه جمع مالًا وعدده إرادة أن يقرضه ما يستعين به على تمشية أموره أو يتبلغ به يسيرًا ريثما تصرف له مشاهرته وهذه الحال تراها على أشدها في القطر المصري لأن ابن مصر منفاق على الأكثر لا يفكر في أن يوازي غالبًا بين دخله وخرجه ولذا انتقلت الأملاك أو جزء كبير منها من أيدي المصريين إلى الغرباء والرومي في المقدمة والحال في الآستانة أدهى وأمر.

وبعد فحيث اشتد العراك بين الأمم وبعبارة أخرى في العواصم الشرقية التي تكون فيها المنافسة على أتمها تجد الوطني يتضاءل ويضعف أمام الغربي بل ينهزم شر هزيمة وتتحلى للناظر صورة الاتكال

والاستقلال- بل صورة من العلم النظري الذي هو القشور وصورة العلم العملي الذي هو اللباب.

اشتدت في فرنسا على عهدها الأخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين والمستخدمين فأحس القوم بهذه الآفة التي تهدد كيانهم فأنشأ بعض المستنيرين حقيقة يستنكفون من تولي الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة أو كاد في البحث عن الكفاة إذ لم يقبل عليها إلا المتوسطون وزهد في خدمتها النوابغ وما أنس لا أنسى وزيرًا تعارفت إليه في باريز ترك الخدمة وتولى إدارة مصرف صغير وكم في الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فأبى وآثر أن يكون تاجرًا أو صرافًا أو صاحب معمل أو مدير شركة أو محرر جريدة أو أستاذًا في مدرسة على أن يكون وزيرًا كبيرًا يقدم ويؤخر في مصالح أمته ويحل ويعقد في أقدارها. والأمثلة كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين.

(تم الجزء الأول)

فهرس

